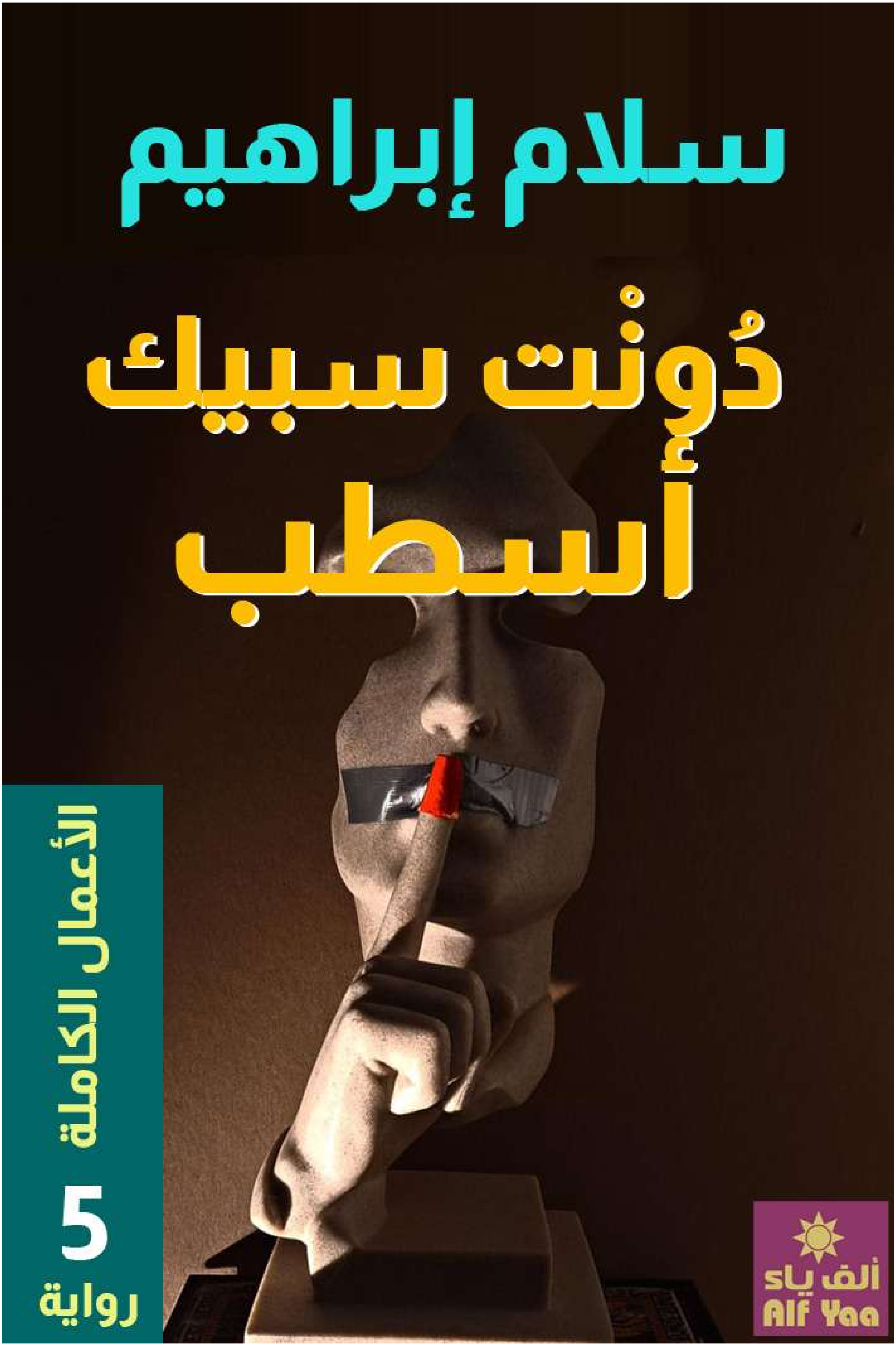

سلام إبراهيم

دُونْت سبيك أسطب

الأعمال الكاملة

5

رواية

ألف ياء
Alf Yaa

دُونْت سبيك أسطب

منشورات «ألف ياء» «AlifYaa»

المؤلف: سلام إبراهيم

الكتاب: دُونْت سبيك أسطب (رواية)- الأعمال الكاملة 5

صدرت النسخة الرقمية: تشرين 2/نوفمبر 2025

الطبعة الأولى 2023، مؤسسة أبجد العراق.

- **الناشـر: «ألف ياء AlfYaa»**
- **الموقع الإلكتروني:** www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات
- (PDF، ePub وMobi و/أو أي تنسيق رقمي آخر
- محفوظة لـ**«ألف ياءAlfYaa»**
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبِّر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
- **«ألف ياء AlfYaa»** ناشـرة للكتاب فقط وهي
- غير مسؤولة عن محتوى الكتاب

- **لوحة الغلاف: الفنان محمد فرادي،**
- **تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداوود**

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الأعمال الكاملة 5

سلام إبراهيم

دُونْت سبيك أسطب

رواية

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

إهداء إلى

علية عبود يعقوب1928- 1996

عبد إبراهيم عبود 1927- 1989

خليل إبراهيم عبود 1934- 2017

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

البارحة أتممتُ عامي السابع والستين لينطبق عليَّ المثل "عمر الشقي بقي".

العام الفائت كدتُ أصعد إلى السماءِ، بالنسبة لي ليس هناك شيء أشَدَّ ألفةً من الموت، سأروي لكما كيف رافقني وحام حولي منذُ الطفولة وحتى العام الماضي حينما وقعتُ في دوامةِ ألمٍ مُبَرِّحْ، غامض حيَّر الأطباء في الدنمارك حتى أنهم طَرَدوني من المستشفى بعد أن تكرر إدخالي والفحوص لا تسفر عن شيء، تمنيتُ الموتَ مثل عليلٍ لا شفاء له،كانت الأمنية مصحوبةً بالأسفِ واللوعةِ إذ كنت قد بدأت بكتابة هذه الرواية، وددت مكاشفتكما بما خفي عليكما من أمر أكبر أولادكما الذكور. كنتُ في منتصف المسافة أبحث وأكتب محطات وخفايا، وككل مرة نجوتُ بعد عملية جراحية أتاحت لي بلوغ الفصل الختامي، فهيا يا والديَّ ندخل باب الرواية.

منشورات «الفياء» AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

المحتويات

1. بيت العصري..11
2. باب الظلام..23
3. سمك جليل..31
4. لعنة الفقر..39
5. النخلة..47
6. البراءة..49
7. قيامة الأرواح..65
8. أستاذ "جبار"..75
9. الحالم..93
10. سحر السينما..101
11. صبي الظهيرة..113
12. فتاة البرميل..123
13. رجلٌ معلقٌ على شجرة..133
14. جيران وحرمان..147
15. جريمة في مقهى..155
16. ثورة..165
17. رايات العزاء..179
18. الفجر الغاوي..183
19. عادة مألوفة..189
20. فن الحياة..195

منشورات «الفياء» «AlfYaa»

21. سفروا الملك..209
22. نذر 223
23. بريجيت باردو..231
24. إنّا لله وإنّا إليه راجعون............................237
25. الشِرْكْ...248
26. خالي مهدي...264
27. ثور جامح...276
28. استسلام..289
29. اتفاق...301
30. من قطيعة إلى صداقة عميقة...................309
31. عمي "موسى سوادي"...........................331
32. أدوس على الخطر...................................345

منشورات «الف ياء» «AlfYaa»

الفصل الأول

بيت العصري

منشورات «ألف ياء» «AlifYaa»

أنزلني سائق سيارة الأجرة أمام الباب. وضعَ حقيبتي جواري على الرصيف وودعني، وقفتُ مذهولاً، غير مصدقٍ.

- كم حلمت بهذه اللحظة؟

فطوالَ الطريق الممتد عَبرَ الصحراء من دمشق حتى مدينتي الديوانية كنتُ أرسم أشكال بيوت الجيران ووجوههم، شكل الصباح والمساء، الظهيرة والعصر، غبار الشارع وهوائه متحاشياً أسئلة السائق عن أسباب غربتي، وهل أزور العراق أول مرة، متتبعاً نصائح من سبقني خوفاً من الخطفِ. كنتُ أضحك مع نفسي بصمتٍ وأنا أسمعُ الناصحَ، فهو لا يدري بأنني لا أملك غير أجرة السفرِ ومصرف بضعة أيام منحتهُ لي بلدية المدينة التي أسكن فيها كمساعدةٍ عقبَ خروجي من مصحةِ الإدمانِ.

أَلزمُ الصمتَ متأملاً وهجَ شمسِ الصحراءِ الساطعةِ وسرابَ الأفق وأعمدة الكهرباء بأسلاكها المقطعة وأجسادها المحطمة على امتدادِ سياجِ الطريق السريع الحديدي المنزوع من بعض الأماكن والمحطم في أخرى. كان السائق ينقل نظره بين أسيجة الطريق المُخربة ووجهي يشكو من همجيةِ العراقي الذي نهبَ منشآت بلده، راوياً قصصاً عما جرى أيام الاحتلالِ الأولى، لم أقاطعهُ وأقول؛ بأني كنت أشاهد تفاصيل النهب من سريري بالمصحة في بثٍ مباشرٍ بشاشةِ التلفاز المعلقة بحائط غرفتي الصغيرة، أهزّ رأسي مجاملةً دون أن أنطق حرفاً بينما ألاحق بعيني قوافل العربات العسكرية الأمريكية الرائحة والغادية شاعراً بغصةٍ وأسى، فقد قضيت جلَّ عمري ورأيت الأهوال مناضلاً من أجل بناء عراق حر وشعب سعيد، وها هي بقعتي الدامية محتلة ممزقة، والمفارقة أني لولا الاحتلال لما تمكنتُ

منشورات «الألفياء» AlfYaa

من الوقوف على رصيف طفولتي مغموراً برذاذ عتمة المساء، غارقاً بمزيدٍ من الأخيلةِ والأحلام وواقعاً في سكرةٍ فريدةٍ لم أقع بمثيلٍ لها بالرغم من أني قضيتُ ثلاثة أرباع عمري الذي جاوز الستين في شرب الخمر.

حملتُ حقيبتي وخطوتُ بمهلٍ شديدٍ نحو الباب الحديدي القديم. ضايقني الدكان الذي أشادوه في الحديقة الأمامية زمن الحصار، كان مقفلاً، دفعتُ البابَ دفعةً خفيفةً، فانفتحَ. لفحتني برائحتها شجرة النارنج التي زرعها أبي شتلةً، ها هي تظللني بأغصانها المثقلة بكراتِ ثمارها. تمايلتُ مثل سكران، فمن عمق البيت المظلم هبتْ عليَّ روائح قديمة، رائحةُ خبز أمي، عَرَق أبي، ثياب أخوتي، نشارة الخشب، الشاي المهيّل. روائح أليفةٌ هاجتْ من أعماق نفسي، من مناحي طفولتي، من الزوايا والأركان، من حجرِ الجدران، من الممرِ، من شبابيك الغرف، من البابِ الخشبيةِ القديمةِ التي نَجَرَها أبي قبل أكثر من أربعين عاماً.

رددتُ البابَ ونزلتُ درجات السلم الحجرية الثلاث، كانَ الظلامُ والسكونُ والصمتُ يلف البيت الذي يسكنه أصغر أخوتي مع زوجته وطفليه. شعرتُ بسعادةٍ خفيةٍ للصدفةِ، فسوف تفسح لي هذه الخلوة الإحساس بالمكانِ الذي نشأتُ فيه، فبين هذه الجدران تخلّقتُ، وكَبرتُ حتى صرتُ ما أنا عليهِ بكل تناقضاتي، ومشاكساتي، ووداعتي، وطيبتي وخبثي، وقوتي وضعفي، وإقدامي وجبني، كل ذلك بُنيَ هنا بين هذه الجدران الرطبةِ وأساساتها المتداعيةِ.

أَمسيتُ جوارَ غرفة الضيوف التي شغلها أبي لوحدهِ بعد أن فَطَمتهُ "علية عبود"ما أن عادت من بيت الله، كان ذلك عام

منشورات «الفيا» AlFYaa«

1975. تناهتْ أصواتٌ خافتةٌ تأتي من شبّاكها المعتمِ المفتوح على الطارمةِ. سكنتُ منصتاً وضجيج المدينة بدأ بالتخافتِ حتى صارَ مثل صدى بعيد، أدنيتُ رأسي من جسدِ الباب المثقّب فتعالى حفيف حركتهِ وهو يهيئ كأسه جالساً على سريرِ نومه كما يفعل مساءَ كل يومٍ في مثل هذا الوقت بالضبطِ. تخيلتهُ يرتشف أولَ جرعةٍ ويشغّل جهاز التسجيل، فينتشر صوت أم كلثوم:

أروح لمين

وأقول يا مين

ينصفني منك!.

ما هو أنتَ جرحي

وأنت فرحي

وكلو منك!.

أروح لميييييييييييييييييييييييييييييين

ينصفني منك!.

أسمع صوته القوي يردد معها صارخاً مع نهايةِ المقطع:

- اللهههههههههههههههههههههههههه!.

في الإعادةِ الثانيةِ، يعلق بنبرةٍ عاليةٍ كي تسمع "أمي"الجالسة في الصالةِ، مقابل الباب بالضبطِ، تسبّح بسبحتها السوداء الطويلة المتدلية حتى سجادة الصلاة و"قرص التربة"الحائل اللون، تكون لتوها أكملتْ فرض المغرب ولم تزل بثوب الصلاة الأبيض الذي يضفي مزيداً من المهابةِ على هيأتها الساحرةِ،

منشورات «الفيـاء» AlFyaa

بطولها الفارع وقسماتها الجميلة المتناسقة، وعينيها البنيتين الواسعتين بأهدابهما الطويلة، وبشرتها البيضاء الناصعة، ورشاقة جسدها بالرغم من تجاوزها الخمسين.

- إي غير يفهمونْ الظُّلاّمْ هذا الكلامْ الذهبْ!.

فأراها تبتسمُ لنظراتي الماكرةِ وأنا أجلس على الأريكةِ المجاورةِ لجلستها الأثيرة، تتمتم بصوتٍ أقرب إلى الهمس:

- إشْوكتْ الله يهدي أبوكْ!

لا أدري كم من الوقتِ ظَللتُ واقفاً، انتبهت إلى نزولِ الظلام، وتوهج مصباح الشارع الناري المتدلي من العامود العالي. لم تطل يقظتي إذ سرعان ما غرقتُ من جديد في بحرِ الطفولة وبيتها القديم سامعاً صوت أبي يأتي واضحاً قوياً يكرر جملته الأثيرة التي يطلقها كلما بلغَ نشوة السكر متجاهلاً العالم والمحيط، جملة إنكليزية تعلمها من عمله مع الشركات الأجنبية في الكويت والعراق:

- دونت سبيك أسطبْ (stop)!.

ليلحق بها، بعد ضحكةٍ ساخرةٍ قصيرةٍ، جملةً أخرى:

- بلاك أند وايت!.

يلفظ جمله منغمةً هازلةً، ليعود مردداً كلمات "السيدة"وتعليقات مُبطنة عن شّدةِ أشواقهِ المبرحةِ لأمي شاردة النظرات المنهمكة بالبسملة وهي تُسبّح بسبحتها السوداء الطويلة وتتأمل صفحة السماء الزرقاء الظاهرة من فتحةِ باب الهول.

- يا رب السماوات ما ألذّ تلك اللحظات!

منشورات «الفياء» «AlfYaa»

قلتُ مع نفسي، وتخيلتني سَأجدهُ جالساً على سريره ما أن أفتح البابَ، فيسارع إلى تَعْمير كأس لي كما تواعدنا في آخرِ لقاءٍ وأنا أودعه في طريقي للالتحاق بثوارِ الجبلِ في شباط 1985.

كانَ سعيداً بخبرِ التحاقي، ضمّني إلى صدرهِ بقوةٍ رغم قصر قامته، حضنتهُ وشممتهُ فعبقتني رائحة عرقه المخلوطة بنشارةِ الخشب ومشروب عَرَق العصرية العراقي، أبعدني قليلاً، تأملني طويلاً وعميقاً كأنهُ ينحت قسماتي الفتية بعينيهِ قبلَ أن يقول بثقةٍ:

- أنا فخورٌ بكَ يا ولدي!

وعاود التحديق بعينيَّ طويلاً، خنقتني العبرة، كنتُ غير قادرٍ على الكلامِ، أضافَ:

- كُنْ قوياً كما عهدتك!

لطالما قوّتني كلماتهُ وهيأتهُ ونظراتهُ وسلوكهُ في تجاربِ حياتي العنيفة. أبحرتُ في عينيه الجاحظتينِ القويتينِ اللتين تلألأتا بالدمعِ وقلتُ:

- أبي إذا بقينا أحياء وسقط "صدام"سنلتقي ونشرب كأساً!

ضمَّني مرة أخرى وقال:

- وأنا بانتظاركَ يا ولدي، توصل بالسلامة!

انسللتُ من بين ذراعيه في عتمةِ ذلكَ المساءِ البارِدِ، لأغيبَ أكثرَ من عشرينَ عاماً.

- سَأجدكَ يا "عبد سوادي"وستملأ لي كأساً!

قلتُ مع نفسي في ذروةِ وجدٍ ودفعتُ بابَ غرفتهِ فانفسحتْ

منشورات «الفيـاء» AlFyaa»

باردةً بأثاثها المختلف، آرائك فخمة، تحف، ورود اصطناعية صينية رخيصة موزعة على مناضد تقف في الزوايا، صور لمناظر طبيعية، شلالات وغابات عُلِّقَتْ لتخفي الجدران المتآكلة، بينما اختلطتْ روائح البيت القديمةِ بروائح جديدة غير مألوفة، ألّمتْ بي غصة كأنني أقفُ في مواجهةِ غرفةٍ غريبةٍ.

رجعتُ إلى الخلفِ صرتُ خارجها، رددتُ بابها وأغمضتُ عينيَّ عاباً من روائحِ المساءِ والشارعِ، فاستيقظت من جديد أرواحُ المكان وراحتْ تطوفُ حولي، خاطفةً في قاماتٍ وأشكالٍ تظهر دانية، ثم تبتعد متلاشية في الممرِ وطرفِ شجرة النارنجِ، في الشبّاكِ وعمق الحائطِ القديمِ، فرحتُ أتلمسُ الجدرانَ شبراً.. شبراً، معانقاً بأطراف أصابعي الجص القديم الرطب، أمسحهُ مطبق الأجفان، ناقلاً خطواتي ببطء شديد، حتى باب الصالة الخشبي القديم المحتفظ بشكله، دفعته دفعةً خفيفةً فتزحزح قليلاً، كررتُ المحاولة بقوةٍ، كما كنت أفعل حينما أعود إلى الدار ولا أجد أحداً. أنفتح بنفس صخبه الأليف، وراح يهتز ذات الاهتزاز القديم، فتخيلتُ كأنني لم أغِبْ كل تلك السنين، بل لم أزل مختبئاً في لحظةٍ من لحظاتِ ذاكَ الزمن الأقل عناءً، حيث لم يكن الخراب شاملاً إلى هذا المقدار، واقفاً جوار أمي أتلمس شالها الأبيض، قسماتها البيضاء صافية البشرة وهي تضمّني كأنني لم أكبر، طفلاً يوشك على البكاء يهمس:

- يمه تعباااااااااااااااااااااااان!.

فتمسح جبهتي الناضحة بمنديلها، وتردد أدعيةً تحميني من نوائبِ الدنيا، كما كانت تفعل قبل غيابي حينما أمرُ عليها في آخر يوم من إجازتي حيث أكون شديد التعب مُنهكاً عاجزاً، مُلاحقاً مُراقباً فقد تسللتُ سراً من بين الثوار في الجبالِ البعيدةِ،

منشورات «الف ياء» «AlifYaa»

واختفيتُ في مدنٍ وبيوتٍ، إلى أن ضاقت بي السبل، فاضطررتُ إلى التسليمِ في عفوٍ خاصٍ إلى وحدتي العسكرية، تلك الأيام بدأ أمري ينكشف قليلاً.. قليلاً. أتوقع القبض عليّ في أية لحظة، ستكون نهايتي، سيورونني جهنم قبل الإجهاز عليّ.

في ظهيرة باردة جلستُ على أريكةِ الصالة الخشبية صامتاً، منهكاً غير قادرٍ على الكلامِ، لم تقل شيئاً. ظلّتْ تتمعّنْ في قسماتي المكسورة إلى أن داهمني نعاسُ من يريد الهروب من الدنيا فاستلقيت بملابسي العسكرية وأخذتني غفوة يائسٍ مستسلمٍ، فسمعتُ حفيف ثوبها وهي تقترب مني، مرددةً بصوتٍ خافتٍ وكأنها تكلم نفسها:

- يا ربي ابني مدَوخْته الدنيا!.

لفحتني أنفاسها اللاهثة، وإطباق شفتيها على جبهتي ووجنتيّ، ثم أحسست بغطاءٍ يلقى عليّ، وأصابعها الحنونة تمسح بشرتي، مصحوبةً بصوتها الشجي الهامس بآيات وأدعية، وكلام غير مفهوم يشبه الأحجية كي يعمي عيون وقلوب الأشرار عني، فأصل إلى برّ الأمان.

وقتها.. تسللتْ الطمأنينة إلى نفسي، فسقطت في غفوةٍ كالميت.

طفوتُ على السطحِ.

وجدتُ الصالةَ تضيق بالأثاث المختلف، أرائك ضخمة وكأنها أسرّة نوم غيّرتْ قليلاً من طعمِ المكان وجعلتني أخرج من دفقِ بيت طفولتي الذي غطستُ فيه، لم ألبث إلا ثوانٍ إذ انحدرتُ من جديد منجذباً إلى موضع جلستها بمواجهة الباب، تنتظر كل غروبٍ حالمةً بلحظةِ دخولي أو دخول أخي "كفاح"، كما كنا

منشورات «الفياء» «AlYaa»

نفعل نهاية كل أسبوع، حينما كنا ندرس في جامعة بغداد. لم تصدق مقتله في أقبيتهم، رغم أنهم أبلغوا والدي رسمياً، هذا ما كنتُ أعرفه قبل التحاقي بثوارِ الجبلِ، لكن ما جعلها تتوهم، أنه حي وموجود في مكان ما في العالم؛ هو تسليم السلطة لجثث العديد ممن أعدمتهم زمن الحصار في تسعينيات القرن الماضي. كتب لي "علي"أخي الأصغر قبل سنوات:

("أمُّنا تجلس في مكانها المعهود في الهول مقابل باب البيت الخارجي كل غروب عقب فراغها من شؤون البيت، وتردد:

- ما أصدّق، لو فعلاً قتلوه كان سلموا جثته مثلما فعلوا مع "محمد"ابن بنتي المسكينة "وداد"، لا.. لا.. ما أصدق!

ففي عام 1995أعدموا ابن أختي الوحيد، وتسلم والده جثته من طب بغداد العدلي،

وأضاف في رسالةٍ طويلةٍ هرّبها مع أحدهم إلى الأردن كي يبعثها من هناك على عنواني في الدنمارك:

"صارت تهذي كل غروب وتوجه كلامها إلى أخينا "كفاح"وكأنه يسمعها، فتلومه على قسوة قلبه لأنه لا يبعث خبراً كي تلتقي به كما كان يفعل في أعوام اختفائه الثلاثة الأولى، حينما كانت تتسلل خفيةً إلى بغداد وتلتقي به في الحدائق العامة، وفي الأضرحة المقدسة، وتبيت معه ليلة أو ليلتين وتعود مرتويةً ساهمة النظرات تكلم نفسها طوال الوقت، وهي تطبخ أو تكنس أو تصب الأكل أو تجلس بمواجهة المساء مرددةً "يمه أخوكم يقنِّع اللي ما يقتنع". أما هذه الأيام ومع طوال الغياب باتت تردد بلهجةٍ تذبحُ ذبحاً:

"يمه شلون ينطيك گلبك ما تشوفني كل هذي الفترة الطويلة يا

منشورات «الفـياء» AlAyaa

بعد روحي وگلبي وكلي.. أروح لك فدوة!".

هبطتُ إلى موضع جلستها مخّلِقاً كتلتها من ذاكرتي، من روح المكان، من عمق نفسي، من صمتِ المساء، من عمقِ البيت الخالي، فتجسدتْ في لحظةٍ بارقةٍ حتى أني لمستُ يدها الناعمة ومرَّغتُ وجهي براحةِ كفيها الحانيتين وتأرجحتُ على حافةِ النشيجِ، فيما سمعتُ من الغرفةِ الداخليةِ المفتوحةِ على الصالةِ، وعلى غرفةِ الضيوفِ صوت أخي "كفاح"وهو يضحك ضحكته الخافتة مع صوت احتكاك الفرشاة بجسد قماشة الرسم الأبيض، الموضوعة على مسند مائل وسط الغرفة بين سريرينا كلما ألمت به رغبة إظهار الكائنات النائمة في نفسه، وجوه نساء حزينة، وجوه مولولة، مفزوعة، نساء عاريات يأخذن العقل، يجسّدهنَّ وكأنهنَّ من لحمٍ ودمٍ، فيجعلنه يطلق ضحكات مكتومة منتشية. ضحكات أسمعها بالرغم من صوت "أم كلثوم"المصحوب بآهاتِ أبي. أستمعُ متلذذاً وأنا أفرك جبهتي الناضحة بباطن كفيها الوادعين المستسلمتين بين أصابعي إلى أن بدأت أنتحَبُ بخفوتٍ راحَ يصطخبُ قليلاً.. قليلاً ليتحول إلى عويلِ طفلٍ يتيمٍ مكسور الخاطرِ.

نحيبٌ لم يستمر طويلاً، فسرعان ما اصطخبَ البيت وَضَجَّ المدخل والباب الخارجية تُفْتَحْ على مصراعيها. عشرات النسوة المتشحات بالسواد، تدفقن صارخات، ينطقن اسمي من بين نحيبهن وبكائهن، نسوة لا يظهر من وجوههن وأجسادهن سوى قرص الوجه الصارخ الملهوف بحيث لم أستطع تشخيص وجه واحد وأنا في ذاك الاضطراب والوجد، لكنني ميزتُ صوتاً واحداً ينغّمْ اسمي مولولاً، نبرته قريبة إلى نفسي، لا ليست قريبة فحسب بل راسخة. كانت رفيقة طفولتي وصباي أختي

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

"سهيلة"التي تكبرني بأعوامٍ ثلاثة، لكنها ضاعت مع اشتداد الصريخ، وحزمة النسوة أحاطتني ورحن يمسحنَ جسدي، ويلتصقن بي، يبغينَ ضمّي في أحشائهن، لأنفجر بعويلٍ طويلٍ، وأنا أكتشف ثانية بعد ثانية وجوه الحشد، وأتعرف عليهنَّ بالرغم من طول السنين. كنَّ أخواتي الثلاث اللواتي يكبرنني، والثلاث الأخريات اللواتي يصغرنني، وبناتهن اللواتي تركتهن صغاراً، وعمتي وخالتي الوحيدة، وعدد آخر من النساء وقفنَ على مبعدةٍ لم أتعرف عليهن، وفي حلقة أبعد تحلق رجال لم أميز منهم أحداً. كنَّ يمسحن دمعهن، فيما كنتُ أقف بقامتي الفارعة أحضن هذه باكياً، وأقبّل هذا الرأس وذاك، من الرؤوس الصارخة المختبئة المدفونة في جنبي، وفي صدري وظهري، ناظراً إلى دفقٍ من البشرِ، اكتظَ مالئاً فسحة المدخل والطارمة، وتجمهر أمام الباب الخارجية، يضيئه مصباح الشارع العالي. كنت أذوبُ وجداً، ولا أستطيع تمييز أحد، لكن في اليومِ التالي عَلمتُ بأن محلتي "الحي العصري"هرعتْ عن بكرة أبيها، لخبر عودتي حياً بعد ذلك الغياب الطويل، لكن أهلي اعتذروا عن استقبالهم قائلين:

- أحنه بعدنه ما شفناه!. في يوم أخر.. في يوم أخر!

أخرجوهم وأقفلوا البابَ.

منشورات «الف ياء» «AlfYaa»

منشورات «الف باء AlifYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlifYaa»

الفصل الثاني

باب الظلام

رددتُ بابَ الغرفة قائلاً:

- دعوني أرتاح!

ورميتُ جسدي على سريرٍ يشغل نفس موضع سريري القديم لصق الجدار المجاور للباب المفتوحة على الصالة التي أقفلتها للتو.

- ها أنتَ عدتَ إلى رحمك الدافئ، غرفتك المشتركة مع "كفاح"الذي يصغرك بثلاثة أعوام، ها هو الحلم الذي دَهْوَرَ أحوالك في المنفى وجعلك مدمناً يتحقق، ها أنتَ تتأمل جدران الغرفة، لم يتغير شيء عدا الأثاث، بابها الخشبية القديمة، مكتبتك التي نجرها والدك وثبتها على طوال الجدار الراقد الآن تحته اختفتْ، سرير أخيك المقابل حَلّتْ محلهُ خزانة ملابس ابن أخيك الصغير.

تخافتَ ضجيجُ العائلةِ المكدسةِ في الصالةِ والغرف الأخرى قليلاً.. قليلاً إلى أن حلَّ صمتٌ أخذني إلى صمتِ ليالٍ أبعد من زمن هذا البيت، كنّا لم نبنِه بعد مطلع ستينيات القرن الماضي، إذ انتقلنا إلى بيت "العصري"بعد مشادات ومشاكل مع أعمامي في بيتِ جدي الكبير بـ"الفاضلية"وسط المدينة، فأشدنا على هذهِ القطعة التي تبلغ مساحتها مائتا متر مربع غرفتين؛ الأولى تطلُ على الشارع بنافذتين عبارة عن فتحات أربع بحجم قطعة آجر، وحوش كبير في نهايته، بَنَتْ أمي بمساعدة عاملٍ فقيرٍ غرفةً من الطينِ نستخدمها كمطبخٍ وحمامٍ ومخزنٍ. ها أنا أراها الآن تشد حزامها. تخلط الطين. تناوله للعامل الذي يرتّب الجدار. تَتَصَببْ عرقاً، متجهمة القسمات، خفيفة الحركة، وبأربعة أيام قـامَتْ

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

الغرفة، فارتسم البِشرُ على وجهها، استخدمتها كمخزن ومطبخ وحمام، كانت بلا نافذة، تضعني في عتمتها عارياً في الطستِ النحاسي المدور الكبير، وعلى ضوءِ فانوسٍ ضعيفٍ تبدأ بسكب الماء على رأسي، وفرك جسدي بالصابون فركاً متأنياً، لتحملني عقب التنشيف إلى الغرفةِ الأخرى. تفعل ذلك ثلاث مرات في الأسبوع شتاءً، و يا لتلك الشتاءات البـاردة المـاطرة، كنـتُ أتضايق من أيامِ المطرِ إذ يتحول الحوش الترابي الواسع إلى وحـولٍ، والغرفـة الحجريـة الوحيـدة لا تـدفئها منقلـة الجمـر الصغيرة، كنا ننحشر تحت الغطاءِ على الفراشِ المشترك الممتد من سريرِ أمي وأبي وحتى بابها المفتوح على الساحةِ الموحلةِ. نلتصقُ ببعضٍ من أجل الدفـء. أما في الصيفِ فالأمرُ أهونَ إذ كنا نتكفل الأمر بأنفسنا؛ نأخذُ حماماً في ساحةِ البيتِ الفسيحةِ عند اشتداد الحر في الظهيرة، وننتشر فيها ليلاً، عند أقدام سرير أمي وأبي المنصوب على حافةِ حديقةٍ صغيرةٍ تجاور غرفة الطين، زرعها أبي شجيرات ورد، يتأملها مساءَ كل يومٍ وهو يرتشف كؤوساً من العرق حال فراغهِ من نشرة أخبار إذاعة لندن التي لا يصدق غيرها.

في صبيحة باردة من صباحات شباط 1963لم توقظني أمي، كان يوم جمعة، بقيتُ نائماً ولم أستيقظ حتى الظهيرة، أردتُ اللعب في الشارعِ، منعني أبي قائلاً:

- لا تخرج، ممنوع التجوال!

- ليش؟

- انقلاب!

لم أفهم شيئاً بادئ الأمـر، ورأيتهـم؛ أبي وأمي وأخـواتي

منشورات «الفـياء» AlfYaa»

يجلسونَ حول منضدةٍ صغيرةٍ عليها مذياع خشبي قديم، يستمعونَ إلى أناشيد حماسية وبيانات لم أفقه منها شيئاً، لكنّ نشيداً واحداً ظلَّ عالقاً في ذاكرتي حتى الآن، وأكاد أرتعدُ كلما تذكرتُ صوتَ المجموعةِ وهي تهدر بأصواتٍ تثير الفزع؛

(الله أكبر.. الله وأكبر

الله أكبر فوق كيد المعتدي

والله للمظلوم خير مؤيدي

أنا باليقين وبالسلاح سأقتدي

ونور الحق يسطع في يدي

قولوا معي.. قولوا معي

الله.. الله.. الله أكبر

الله فوق المعتدي)

يَنهَدُّ أبي شتماً ويدوّر بَكرة المذياع، فيتحرك المؤشر الداكن في لوحة الأرقام، باحثاً عن إذاعته المفضلة مردداً:

- ما راحْ نعرفْ الحقيقةْ إلاّ لمنْ نسمعْ إذاعة لندن!.

لكن صوت مذيعها يضيع بين موجات الأصوات والضجيج المبهم بتداخل لغاتٍ مختلفة مع موسيقى وأزيز.

- شيجيبْ المغربْ حتى تصيرْ واضحة!

يقول ذلك بغضبٍ، ويعود بالمؤشر إلى إذاعة بغداد الضاجة بأناشيد وبيانات يتلوها مذيع بصوت جهوري فيزيد هلع أمي وأختي الكبيرة "ساجدة"بينما يوقد غضب أبي فيرعد ويشتم:

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

- كلاب.. كلاب معقول قتلوه وسيطروا على السلطة!

أصبح الوقتُ ثقيلاً، البيت عاد سجناً، تسللتُ من الغرفةِ مستغلاً انشغالهم في جدلٍ لم أفهم منه شيئاً، توجهت إلى المجاز القصير وفتحت باب البيت الخشبي بهدوء، كان الشارعَ خاوياً موحشاً والجيران يختبئون خلفَ الأبوابِ، وضجيج المدينة المألوف أختفى، عبرتُ العتبة مسحوراً بالجو الغريب، ما أن ابتعدتُ عدة أمتار حتى سمعتُ صوتَ أمي الحازم يأمرني بالعودةِ. توقفتُ. التفتُ. وجدتها تؤشر بيدها، وتردد بصوتٍ خفيض يشي بخشيةٍ غامضةٍ:

- يمه أرجع.. أرجع!

هاجمني خوفٌ مبهمٌ من هيئتها المذعورة وصوتها الخافت فرجعتُ إلى باحة البيت حتى نزول المساء وانتشاره في الزوايا والظلالِ والغرفِ، أمي وأخواتي أصابهنَّ الخرس يحملقنَ بأبي المنصت لنشرة أخبار لندن التي أمست واضحة، ينصتُ ثم يضرب فخذيه العاريين بكفيه المفتوحين بين الحين والحين لاعناً الجماعة سأعرف لاحقا أنه يقصد الشيوعيين:

- عرفناها هاي تاليه أنطوها للعفالقة السفلة!

رويداً.. رويداً بدأتُ أفهم فداحة ما حدثَ، إذ لم أعُد أذهب إلى دكانِ عمي "خليل"الحلاق وسط المدينة كما أفعل كل يومٍ عقبَ عودتي من المدرسةِ، ولم أعُد ألعب مع رفاقِ طفولتي في الشارعِ، وبدأتُ أسمع قصصاً مرعبةً من غرباء يحلّونَ في بيتنا ليلاً ويختفونَ قبيل الفجر. كانوا يشاركوننا الأكلَ والكلامَ، يجلسونَ معنا بوجود أبي وأخواتي وأمي دون حرجٍ أو خشيةٍ، يروون لأبي بأصواتٍ خافتةٍ قصصاً مفزعةً عن رجالٍ ونساءٍ

منشورات «الفياء» AlFyaa

يسمونهم رفاقاً ورفيقات أوقفهم الحرس القومي في روضـةِ الأطفال الوحيدة الواقعة على نهر الديوانية الصغير، عن طرق تعذيب فظيعة، عن رجالٍ يعلقونَ بالمقلوبِ في مراوح السقف، يُجلسونَ عنوةً عراة على أفواه قناني زجاجية مكسّرة، عن صمودِ رجالِ ونساءٍ، عن موتِ أحدهم تحت التعذيب، قالها زائر بصوتٍ حزينٍ وبكى، سأعلم لاحقاً أنـه معلـم يـدعى "جبـار شبرم"قتلوه ودفنوه سراً خارج المدينة خلف معامل الآجر على طريق الدغارة. وسيعترف القتلة حينما أنقلب عليهم "عبد السلام عارف"بعد ثمانية أشهر وقامت السلطات بنبش مقبرة جماعية، دفنوا فيها أشخاصاً غرباءَ عن المدينة من بينهم فتاة من البصرة كانت تعمل معلمة في المدينة.

مع تواتر الأخبار التي يأتي بها الضيوف الغامضون، بدأت أكتشف سرَّ هلعْ أمي وأختي، وغضب أبي الذي راح يشرب من جديد كل ليلة، ومع حلول المساء يحمل فأساً، يمسكه بقوة ويهزه قائلاً لأمي:

- إسمعنْ ما واحد يأخذچن وأني عَدِلْ أگتل واحد أثـنين يگتلونى واللي يصير وراي ما يهمني!

كلما سمع ضجيجاً قريباً حمل فأسه وخطى بحذر كامناً خلف بابِ البيتِ، متلصصاً من ثقوبها الصغيرة، أتسلل خلفه بحذر، أمدُ رأسي من حافة جدار المجاز، ينتبه فيؤشر دون أن يرفع صوته كي أعود إلى الغرفةِ. كانَ قلبي يضج بنبضاته ويهبط إلى قدمي كلما تخيلتُ المشهد الذي رسمه أبي بجملته القصيرة، فأراهم يقرعون الباب حاملين بنادقهم "بور سعيد"، بملابسهم الخاكية، ووجوههم المتجهمة، وشواربهم الطويلة الكثيفة مثنية من طرفيها إلى ما تحت الحنك، يحاولون اقتحام البيت، يضرب

منشورات «الفـياء» «AlfYaa

الأقرب إليه، يشهرون بنادقهم ويردونه فيسقط نازفاً، يدخلونَ، ويأخذونَ أمي وأختي الكبيرة وسط صراخ أخوتي وأخواتي.

مشهدٌ مريعٌ ظللتُ أرسمهُ كل مساء بسيناريوهات مختلفةٍ، مفكراً في سر خشية أبي وهلع أمي وأختي الكبيرة، قلبتُ الأمر فحدستُ بالرغم من صغري أن الأمر يتعلق ببيتٍ في مدخل شارع "السراي"مقابل جامع "الحاچم"القديم، تأخذني أمي وأكبر أخواتي "ساجدة"إليه أحياناً، بيتٌ يكتظُ بالنساءِ المرحاتِ الضاحكاتِ المحيطات بأمي المنهمكة بشرح كيفية فصال الأثواب لبَناتٍ من مختلف الأعمار، تُعَلّمهن الخياطة وفي أوقات الراحة ينشدنَ أناشيد ثورية تتغنى بحرية المرأة والجمهورية الفتية والزعيم العظيم محب الفقراء وحاميهم. "علية عبود"كانت محوراً تتحرك وتوجه وتقود بجد في العمل وببهجة في المرح، كنت أتنقل في زحمتهن شاعراً بلذةٍ غامضةٍ، وبهجةٍ بقيتُ كل العمر أحنُّ إليها، سأعرف لاحقاً أن ذلك البيت الصغير كان مقراً لرابطة المرأة العراقية؛ واجهة من واجهات الحزب الشيوعي العراقي.

في تلك الأيام المكثفة أدركتُ أن عائلتي متورطة بالسياسة، وخبر اعتقال عمَّيَّ "خليل"و"موسى"فاقمَ الاضطراب والقلق، فلازمني الهلع ومخيلتي تمنتج سيناريو اقتحام البيت مساء كل يوم.

أبي يخفي الفأس تحت المخدة. يعبّ الكأس تلو الكأس متابعاً أخبار إذاعته المفضلة. يهرع كلما سمع ضجة تقترب شاهراً فأسه متوتراً خلف الباب.

لم أتخلص ويتخلص وتتخلص العائلة من ذلك الكابوس

منشورات «الفياء» AlFyaa«

المرعب إلاّ بسقوط الحرس القومي في 18تشرين 1963.

منشورات «ألف ياء» «AlifYaa

الفصل الثالث

سمك جليل

جافاني النومُ. أشعرُ بيقظةٍ ونشاطٍ، بالرغم من تعب الطريق الطويل، وضجيج الأخوة والأخوات، والأقرباء الذين أهلكهم الصراخ والبكاء والحديث، فهمدوا في الغرفِ الأخرى، لأبقى وحيداً محاصراً بذاكرتي الصافية كعين الديك التي لم يضعفها إدماني الكحول، بل كان عاملاً في زيادة صفائها، فعشتُ في الماضي والتفاصيل التي حوّلتْ أيامي جحيماً في بقعةٍ هادئةٍ، مرتبةٍ، نظيفةٍ، تشبه الجنة حيث أنتَ حرٌ ومضمون من كل النواحي حتى إذا كنتَ بلا عملٍ، وَطَنٌ أنهكتُ عمري وكدتُ أفنيه من أجلِ أن يكونَ لأبناءِ جلدتي مثله، لكني أعيش فيه غريباً.. غريباً.

أنصتُّ للسكونِ، كان تاماً ضاجاً بقصتي حرضني على مغادرة السرير، نهضتُ وخطوتُ بحذرٍ شديدٍ نحوَ بابِ غرفةِ الضيوف، دُرتُ أُكرتها ببطءٍ شديدٍ وخرجتُ إلى الطارمةِ لأعبَّ من نسماتِ آخر الليل أنفاساً عميقةً وأحملق في آجرِ الجدران، البلاط، ما تبقى من أشجار الحديقة، الشارع، بيوت الجيران، السماءِ الصافيةِ بنجومها اللامعات العاليات، لديَّ في كل بقعةٍ وخطوةٍ حكاية، تأملتُ بعينين ساهيتين نقاطَ الضوءِ المنتشرة في صفحةِ السماءِ:

- يا إلهي.. أية نجوم ناصعة الضوء هنا!

منشورات «الفيـاء» «AlYaa»

همستُ لنفسي مقارناً بين سماءِ طفولتي وسماءِ الدنمارك بنجومها الباهتة، الكابية حتى في عزّ الصيف والصحو، أرجحتني اللحظةُ على حافةِ النشيجِ شوقاً إلى ما لا أدريه، شوقٌ غامضٌ محتشدٌ بالأطيافِ والرؤى والوجوه والأصوات التي انفردَ منها صوتٌ واحدٌ صارَ واضحاً يأتي من عمقِ الليل وطرف الشارع، دوي فرن مخبز "حاج جاسم"في مدخل شارعنا العريض، دويٌ عاشرَ أحلامي في سنواتِ الكفاح المسلح في الجبال، دويٌ أليفٌ أتوهمهُ في صوتِ خرير نبعٍ وأنا على حافةِ النوم أو اليقظة، أسمعهُ في عمقِ أحلامي لأجد نفسي دائماً في باطن طفولتي، في هذا المكان "بيت العصري"، وصوت أمي الهامس يوقظني، فأنا أكبر أولادها، كي أذهب وأجلب العشرين رغيفاً التي نشتريها بالنسيئة.

كمْ كنتُ أتثاقل من هذهِ المهمة خصوصاً أيامَ البردِ في الشتاءِ!

فأغطي رأسي متصنعاً النوم العميق، فتلّح بصوتها الذي أسمعه هذه اللحظة واضحاً:

- يُمّه سلامْ انهض الفجرْ راحْ يطرْ!

- ...

تلحُ بحنوٍ فأقوم، لأجلب الأرغفة الحارة قوت يومنا.

تَرَدَّى وضعنا المعاشي مباشرةً عقبَ عام 1963إذ تَفَشَّتْ البطالةُ، وخصوصاً في مهنٍ تعد كماليةً في زمن الأزمات كالنجارةِ. كنتُ بالرغمَ من صغر سني أعي فداحةَ الأمر، فحينما أزور أبي في بحرِ النهار أجدهُ جالساً على كرسي خشبي جوار الباب على الرصيف، ينتظر أن يأتيه رزق، والدكان شبه خاوٍ إلا من ألواحٍ خشبيةٍ معدودة وأدواتِ العمل، فكان يقضي الوقت

منشورات «الفياء» AlFyaa

بالحديث مع جيرانه أصحاب الدكاكين، لا أتذكر يوماً رأيته فيه متجهماً، بالعكس أجده بشوشاً ينكّت ويضحك بصخب، وأحياناً أجده ينجُرُ شيئاً، لكن لم يكن ثمة عمل حقيقي يغطّي مصروف عائلتنا الكبيرة. كان "حاج جاسم"صاحب المخبز منقذنا.. وجهه شبيه بوجوه الأولياء، قسماتهُ وديعةٌ جميلةٌ، وبَشَرته بيضاء ناصعة، وهو يناول الحشد المضطرب الخبز من شبّاكَين صغيرين متباعدين، واحد للنساء والآخر للرجال.

ببطءٍ ودون صوت خطوتُ نحو باب البيتِ، كانَ القمرُ بدراً، ظلّلتني شجرة النارنج المضاءة بمصباحِ الشارعِ المتدلي من عامودٍ حديدي عالٍ نُصِبَ جوار بيتنا على الرصيفِ، فتحتُ البابَ بحرصٍ شديدٍ عابراً العتبة، غمرني سكون الشارع، سكونٌ تامٌ، كلابٌ تركض بصمتٍ على الرصيفِ المقابلِ، بيوت الجيران هامدة تحملُ كل منها شيئاً من نفسي التي كادتْ أن تتبدد في المنفى بين مصحات الإدمان والأطباء النفسيين. فهنالك في ذلك البلد البعيد تشعر أن عمركَ انقضى هباءً، وأنت تتمعن في الناس، كيفَ تعيش وكيف تُفكر وتعمل وتحب بعضها والحياة، بينما مكان نشأتكَ يمعن في التمزقِ والحروب والقتل، بالرغم من أنكَ كنتَ تعي هذا المآل، وعملتَ كل ما بوسعكَ للخلاصِ منه، لكن الخراب حلّ وترسّخ وأنت شبعتَ ذلاً في المعتقلات، ومعسكرات اللجوء، وتشردت في المنافي وتجرعت مرارتها محروماً من الأهل ومكان النشأة ولولا الاحتلال لَمُتَّ في حسرة رؤية شارع طفولتك الذي تقف عليه الآن في سحر ليلتك الأولى، رائياً تفاصيل نشأتك ومحنتها، وكأنكَ أمام شريط سينمائي.

لم أمكث طويلاً في الشارعِ، أعادني صوتُ أمي الغضبان

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

وهي تكيلُ اللومَ لأبي، فيما كان يغرق بالضحك والقهقهة مردداً:

- دونت سبيك "علاهن"دونت سبيك!

و "علاهن"اسم الدلال ولكثرة ما يناديها به كل مساء ظننت أنه اسمها، ظل يكرر الاسمَ بحبور وبنغماتٍ مختلفةٍ وأمي تعيد تساؤلها بحرقةٍ:

- ليش.. ليش.. ما جبت الفلوس أحنه في حاجة إلها.. ليش؟

تقولُ ذلكَ وهي تقلبُ بيديها ثلاث سمكات كبيرات، مكررةً شكواها من تبذير أبي، متسائلةً مع نفسها عن سعرِ هذهِ السمكات، ومتخيلةً ثمنهنَّ بين يديها تسد حاجة أخواتي الست وأخوتي ومدارسهم، إذ كانتْ تخيط وتحوّر قطع ملابسنا القديمة وتبدع بذلك، بينما والدي يردد لازمته "دونت سبيك"كي لا يَسْمَعْ نفس الكلام، كلما عاد مساءً على دراجته الهوائية معلقاً على مقودها سمكاً، هائل الحجم طرياً رائحته تملأ الشارع:

- علاهن خَليهُمْ ياكلونْ!

وقتها لم يكن باستطاعتي إخبارها بقصة السمك، ولا يستطيع أبي أيضاً، فمساءَ كل يومٍ يتحول دكانه إلى بارٍ صغير يجتمع فيه أصدقاؤه من مختلف المهن، يجلسون على كراسٍ بدائرة ترسم الرصيف، وبين الحين والحين يدخل أحدهم جوف الدكان المظلم يغيب عن الأنظار، يعبّ كأسه ويخرج متورد الوجنتين منتشي القسمات، يلوك حبةَ باقلاء أو حمص. من ضمن ندمائه رجلٌ اسمه "جليل السماك"وجه عريض متناسق القسمات، فارع القامة، أنيق الملبس، يرتدي دشداشةً بيضاء طويلة، وكوفية بيضاء مرقطة ببقع دائرية سوداء يعتليها عقال أسود رفيع، حليق الذقن دائماً، ناصع البشرة، واسع العينين، يتكلم بثقة

منشورات «الفيلاء» AlYaa»

بصوتهِ القوي النبرة. قبل جلسة المساء أراه حينما يبعثني "عمي"لشأنٍ ما، يقفُ جوار عربته الخشبية المليء حوضها بأسماك طازجة على مبعدة أمتار من دكان أبي، جليل كامل الأناقة لا يفعل شيئاً سوى تَسلّم ثمن السمك من الزبون، فالذي يقوم بكل شيء عامل يقلب السمكة، يعرضها، يزنها، يشقها بسكين، ينظف بطنها، ويضعها في كيسٍ، كانَ شديد الكرم فكلما لمحني ناداني ودسَّ براحة يدي درهماً، وهو مبلغ كبير ذلك الوقت على طفلٍ لم يتجاوز العاشرة.

يَكْسِدْ السمك في بعض الأيام، فيوزعه على الندماء، يحمل أبي حصته معلقةً على مقود دراجته الهوائية، تستقبله أمي باللوم والتبذير فيقابلها بالضحكِ والتعليقاتِ الساخرةِ.

قبل معرفتي سرَّ السمك كنتُ أظن أنه غير مبالٍ بها وبنا، لكنني في مراحل لاحقة من عمري وجدتهُ عميقاً جليلاً يضحك على الموقف برمتهِ، لا يستطيع مصارحتها بأنه يحصل عليه مجاناً من نديمِ شربٍ، إذ يعرف أنها تتضايق من إدمانه وندمائه، مضاف إلى إباء نفسها الشديد، إذ ستعتبر ذلك مساً بكرامة العائلة، وإذلالاً لشخصه بقبوله عطايا، كانت شديدة الكبرياء والترفع بالرغم من فقرنا، وتردد دائماً جملتها الشهيرة:

- صيتْ الغنى ولا صيتْ الفگر!

يضاف أن أبي وبظروف البطالة تلك كان يريد أن يبدو ربّ أسرة، قادراً على إطعام أولاده أفضل الوجبات. تعمّقتْ بيَّ الحياة ففهمتهُ بعمقٍ مضاف، كان يسخر مع نفسه من تعقيد القصة برمتها، ومن تصوّر أمي؛ كونه مبذراً لا يعرف التصرف بما رزقه الله. ما زلتُ أتذكر قسماته اليافعة النشوانة،

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

يجلس على حافة السرير يتأملنا بعينيه الجاحظتين، صاعداً في درجات غبطته الخمرية، نلتهم السمك الغالي بنهمٍ متزاحمين حول صينية كبيرة تتوسط الغرفة، بينما أمي تنزوي في طرف الغرفة البعيدة تنظر إلينا بمشاعر مرتبكة متأرجحة بين نشوة رؤية الأبناء يأكلون سمكاً وبين الأسف على ثمنها الغالي.

في الأيام التي يتكرر فيها كساد سمك جليل يأتي بكمياتٍ أكبر فينحصر في زاويةٍ ضيقةٍ، إذ أن ذلك يجعل أمي شبه مجنونة وكأنهُ بَدَّدَ ثروةً نزلتْ عليهِ من السماءِ، فتزيد لومها مُحاصَرَةً بتكاليف حياتنا، ملبسنا، مدارسنا، لا يجد خلاصاً من نكدها ولومها إلا بعب المزيد من كؤوس العرق ليصل إلى ذروة خبرتها جيداً، فأنا بدوري ورثتُها منهُ وأصبحت سكيراً عتيداً، ذروة تتساوى فيها الأشياء والأعمار والمعاني فيعود الكلام لا قيمة له، ذروة "عبد سوادي النجار"حينما يحاصر يطلق جملته البليغة:

- دونت سبيك.. أسطب!

يلفظها ساخراً مرة، ومقاطعاً كلامها في أخرى، حتى تتعب فتكلم نفسها بصوتٍ مسموع:

- أبوكم سِكَرْ!

"دونت سبيك"تَحْسم الموقف، وتنهي الحوار.

منشورات «الفياء» AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الفصل الرابع

لعنة الفقر

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

- إلى أين يا ربي.. إلى أين؟!

أتلظى بجحيمِ فراشــيَّ المبلـول، أتلـظى مسـحوقاً بالأسـئلةِ ومخيلتي الحاشدة بأحاديث الفسق والانحطـاط. أتقلـبُ. أتقلى بانتظارِ الحفيفِ القادمِ بعد لحظـات. الليلـةُ حالكـةٌ بنجومهـا العاليات. أستلقي مثل ذبيحةٍ وسط أخوتي العشرة في ساحةِ البيتِ الفسيحِ. سينسدل السكون، ويهمد اضطراب الأجساد المبعثرة جواري، سيتصاعد شخير أبي السكران بعد أن يتعب من محاولته معها، كنت أسمعها تهمس قائلة:

- شو.. شو.. لا تلح "سلام"گاعد!

تكرر القول بهمس يقابلهُ خوار أبي الراغب وصوت احتكاك الجسدين تحت الغطاء، ثم يندمل كل شيء بالصمتِ إلا نفسي المنتظرة تلك اللحظة التي أرّقتني منذ يومين. أغطسُ في هوةِ الجحيمِ، في الصمتِ، في الحلكةِ الغامرةِ، مستنجداً بمصابيح السماء العاجزات، بشخير أبي الذي بدأ بالتصـاعدِ، بأجسـادِ أخواتي وأخوتي، بالجدرانِ، بالسماءِ، مكرراً بحرقةٍ وجنونٍ:

- إلى أينَ يا ربي إلى أينَ؟!

أتفتتُ كما الليلتين الفائتتين في صمتِ الفراشِ، وأنا ألاحقُ إيقاع الحفيف المنبعث من السريرِ القريبِ. أعضُّ أسناني بقوةٍ تحتَ الغطاءِ، والهواجس البذيئة تهجم عليّ من الحفيفِ. حفيفٌ وكأنه أبواب جهنم. في الليلةِ الأولى أبعدتُ الغطاءَ عن رأسي قليلاً، فرأيتها على ضوءِ النجومِ الخافتِ تزيح الغطاءَ وتستقيم جالسةً، تسكن للحظاتٍ منتظرةً عودةَ شخير أبي الذي انقطعَ، تُدلي ساقيها بحرصٍ شديدٍ دونَ أن تصدرُ صوتاً مع انتظامِ الشخير الرتيب، تعدل وضعَ الغطاءِ، تستقيم بطولها الفـارعِ

منشورات «الألفباء» «AlfYaa»

وجسدها الرشيقِ، تخطو مقتربةً من فراشي في الطرفِ القريبِ من السريرِ، أطبقُ أجفاني متصنعاً النوم. تنحني نحوي، فأسمع أنفاسها اللاهثة لثوان وهي تلفح بدفئها وجهي، أسمعُ حفيف خطوها، فأفتح عينيَّ. أجدها تعدل أغطيةَ أخوتي واحداً.. واحداً. ثم تبتعد بخطواتٍ غير مسموعةٍ متجهةً صوب الدهليز القصير المؤدي إلى بابِ البيتِ، ظننتُ أولَ الأمر أنها ذاهبة لقضاءِ حاجتها، فالمراحيض جوارَ الباب عند مدخل البيت، بقيتُ أنتظر عودتها، وعندما أفكر الآن بعد كل تلكَ السنواتِ، لم شككتُ بالأمرِ أجدُ أن طريقتها في التسللِ تبعثُ الريبَ، انتظرتُ طويلاً، لكن النعاس باغتني فسقطتُ في النومِ، شغلني الأمرُ طوالَ النهارِ، هجمتْ عليَّ قصصٌ عن تسلل الزوجات إلى عشاقهن السرّيين، قصصٌ يرويها زبائن عمي الحلاق وسط المدينة، قصصٌ يرويها مراهقو المحلة في أفياء تموز، غرائب ليل "حي العصري"الخليط من فلاحين مهاجرين لتوهم من قرى محقها الإصلاح الزراعي، وملاكي الأرض من الإقطاع أواسط ستينات القرن العشرين، وبدو استوطنوا بعد أن تعبوا من الترحال، وضيق بيوت المدينة المتضخمة بالأجيالِ الجديدةِ. قصصٌ تحكي عن الليلِ وحماقاته، عن زوجات الجيران اللواتي يتسللن إلى عشاقهن، أو يتسلل عشاقهن إلى أسرّتهن تحتَ جنح الظلام، قصصٌ أسمعها هَجَمَتْ عليَّ في اليوم التالي، فعدتُ أنظر نحو أمي بعينين مرتابتين، متخيلاً أحداثاً تجعل من دمي يفور، فأودُ لو أهرب إلى جهةٍ مجهولةٍ لا يعرفني بها أحدٌ.

تعمقتْ الهواجسُ في الليلةِ التاليةِ، فَعَزَمْتُ على ملاحقتها لمعرفة أين تذهب؟، انتظرتُ إلى أن سادَ الصمت وتعالى شخير أبي رتيباً، سمعتها تزيح الغطاءَ وتقترب مثل الليلة الفائتة منا

منشورات «الفيا» «AlfYaa»

لتعدل الأغطية، ثم رأيتها تتسلل على أطرافِ أصابعها إلى الدهليز، لبثتُ مدةً قصيرةً استنفدتُ فيها احتمال ذهابها لقضاءِ حاجتها، دفعتُ البطانيةَ بقدميّ بهدوءٍ، غادرتُ فراشيَّ حافياً، خطوتُ على أطرافِ أصابعي نحو الدهليز، كانَ السكونُ مطبقاً لا يعكرهُ سوى عواء كلابٍ متقطعٍ بعيدٍ، وشخير أبي المتقطع أيضاً، كان الدهليزُ شديدَ العتمة. قَطَعتهُ نحو الباب المردود متمسكاً بالجدارِ. حدقتُ من ثقوب الباب. كانتْ الفسحة المرئية خالية. لبثتُ خلف الباب منصتاً لدقائق إلى أن وثقت من السكونِ، سحبتُ درفة الباب مليما.. مليما، كان الشارع خاويا ولا أثر لها، انسدلَ ستارٌ فلم أعد أرى شيئاً، أحسستُ بوجهي يلتهب كمن دُلِقَت عليه نارٌ سائلة، فعدتُ مسرعاً إلى فراشي، دخلتُ تحت الغطاء شاعراً بالبؤسِ والعجزِ كأن أحدهم سحقني وانفجرتُ باكياً بصمتٍ، ظَللتُ أبكي حتى تبللتْ مخدتي وسقطتُ من جديد في النومِ.

- إلى أينَ يا إلهي.. إلى أينَ؟!

سؤال ظل يَنحرني طوالَ اليومِ، فبقيتُ أدور حولها وأتمّعن في قسماتها الجميلة، وهي مشغولة بشؤون البيت، تُعِدُ الطعامَ في غرفةِ الطينِ على موقدٍ نفطي بدائي، تغسل ملابسنا في طستٍ بطرفِ الحديقة، لم يخفِ عليها أمري، فلديها فراسة غريبة، أمسكتني من كتفي وقالت:

- يمه شبيكْ؟!

زادَ اضطرابي، وعيناها الواسعتان تغوران بعيني، في محاولةٍ لمعرفة ما يدور في رأسي، كدتُ أن أعترفَ لها، لكنني خشيتُ من هولِ الأمر، فتحاشيتُ عينيها ناظراً إلى ترابِ

منشورات «الغـيـاء» «AlIYaa»

الساحةِ قائلا:

- ما بيَّ شيء.. ما بيَّ شيء!

رفعتني بيديها القويتين من تحت كتفي قائلة:

- شيلْ راسكْ وانظرْ بعينيّ!

أنصعتُ لأمرها ونظرتُ إلى عينيها القويتين أيضاً، أنزلتني قائلةً بصوتٍ حنونٍ:

- شبيكْ يا ولدي؟!

أنفلتُ من بين يديها وركضتُ نحوَ باب البيت لأضيع في الحقولِ المجاورةِ حتى نزول المساء، وأي جحيمٍ قضيتهُ في الحقولِ الشاسعةِ والسواقي، مَشيتُ حتى أدميتُ قدميَّ، بكيتُ حتى نشفَ دمعي، وكنتُ أصرخ في البرية بين الفينة والفنية:

- يا ربي وين تروح أمي بالليل وييييييييييييييييييييييين يا ربي؟!

* * *

- الليلة لازمْ أعرفْ وينْ تروحْ؟

قلتُ مع نفسي وعزمتُ على التسللِ خلفها.

كمنتُ تحت الغطاءِ متتبعاً خطواتها المبتعدة نحو الدهليز. أزحتُ الغطاءَ. ألمّتْ بي رَعدةٌ أرجفتْ أضلعي، جعلتني أتلكأ قليلاً في النهوضِ، شَددتُ من عزمي، متذكراً قصة كيد النساء العظيم وحكاية النبي "يوسف"التي سمعتُ تفاصيلها من الشيخ وهو يروى لنا حِكَمْ الحياة من على منبرِ جامع "العصري"في

منشورات «ألف ياء» «AlifYaa»

ليالي رمضان.

- أتكون أمي يا ربي مثل زليخة؟!

طفقتُ أرتعشُ تحتَ ضوء النجوم، اضطربتْ خطاي، خشيتُ من الدهليز، فانحرفتُ نحو باب غرفة البيت الحجرية، توجهتُ نحو كوى النافذة الأربع الأقرب إلى باب البيت التي يتسرب من خلالها ضوء مصابيح الشارع الضعيف. ضاقتْ بيَّ الدنيا، وأنا أطل على السكونِ وخواءِ الصمتِ العاوي في ضجةِ رأسي، ضاقتْ ولا أثر لأمي ولا حفيف. غادرتُ النافذة خائضاً في حلكة الغرفة، تحت النجوم العاليات، في عتمةِ الدهليز مستدلاً بذاكرة النهار وظلال ضوءٍ مثل وهمٍ يتسرب من درفة باب الدار المردود، خلدتُ خلفها متلصصاً وبغتةً هاجمتني روائح كريهة، جعلتني أستدير مظاهراً شق الدرفة المنفرجة لأعبَّ من هواء الدهليز رائحته، عدتُ ومددتُ بصري من خلال شق الباب، فأنفتحَ الشارع الميت أمامي من جهة الجامع.

- أينَ ذهبتْ يا ربي؟!

لم يكف السؤال عن التردد في كل لحظةٍ. تضرعتُ إلى الخالقِ وتساءلت:

- أية محنة تضعني في باطنها يا إلهي، لماذا.. لماذا؟!

وفي لب ذلك السكون فار دمي، وطفحَ غضبي، كدتُ أن أنطح الباب برأسي حرقةً وغلبةً وتعباً. في تلك اللحظة سمعتُ حفيف ثوبها الأليف يقتربُ من الجهة غير المرئية لموقع وقفتي. ارتددتُ هلعاً إلى نهاية الدهليز، لكن الحفيف انقطعَ خلف الباب. سكنتُ في العتمةِ منصتاً لصوتٍ خافتٍ غريبٍ، ثمة شخص يفعل شيئاً أمام الباب، تجرأتُ مقترباً من البابِ وسحبتُ الدرفة

منشورات «الفياء» AlFyaa»

بهدوءٍ، فرأيتها تنحني نحو خزانة المرحاض المفتوحة، لتدلي سطلاً مشدوداً بحبلٍ طويلٍ، وتغرفْ حتى ملأتْ تنكة صفيح، حملتها على كتفها، وخطتْ نحو فسحةٍ خاليةٍ كانت تفصل "العصري"عن المدينة، فتحتُ الباب، وتتبعتُ خطواتها إلى أن غابت في الظلام. فانفجرتُ في نشيجٍ طويلٍ لاعناً الفقر.

حينما أيقظتني في الصباحِ كي أجلبَ خبزنا من الفرن، أمسكتُ كفيها الطاهرتين، وانهلت عليهما بالتقبيل حتى بكيتُ مردداً:

- يمه يا يمه، يمه يا يمه!

وهي تكفكف دموعي، وتطيب خاطري دون سؤال كأنها علمت بأنني عرفت.

بعد أكثر من أربعين عاماً ها أنذا في أول ليلة لي في رحمي الأول، أخطو من نقطة فتحة المراحيض حتى حافة الساحة، التي بنيت بالبيوت، أستعيد خطواتها المباركة، المكافحة، رائياً طيفها حياً يسير جواري في عمقِ هذا الليل الفريد.

منشورات «الفياء» «AlfYaa»

«AlifYaa منشورات «الف باء

الفصلب الخامس

النخلة

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

أقف تحت سماء طفولتي شاماً رائحة جسدَك، مزيج من نشارة الخشب وعرق العصرية العراقي وأنت تكرر لازمتك، ضاحكاً، مبتهجاً تتدرجْ بالنشوةِ مع كل كأسٍ جديدٍ.

- دونت سبيك!

يا لجمال روحك يا أبي، حاصرتني الأشواق هابةً من غرفتك، صوتكَ، شجرة النارنج التي غرستها قلماً بيدك، الجدران، طيفك الدائر في لحظتي منذ أن حَللْتُ في البيت.

تَمسكتُ بالجدار الذي كنتَ تتكئ عليه كل غروب تتأمل حديقتكَ، وتخمن متى ستمنحنا النخلة تمرَها التي غرستها فسيلةً في طرف الحديقة، النخلة التي لم أجدها، إذ حلَّ دكان محل الحديقة، كتبَ لي أخي الصغير "عادل"مشهداً، أبكاني طويلا في ليلِ منفاي، كتبَ واصفاً اللحظة التي قرروا إعدام نخلتكَ، صوّرَ اللحظةَ التي سقطتْ فيها، كيف ضَجَّ الجميع بالبكاء أخوتي وأخواتي وأبنائهن كأنك مُتّ للتو، وأكثر من أطال في النحيب أمي مما جَدَدَّ موجة البكاء. أضاف:

كانت لحظة جارحة يا أخي، ولولا مساعدتك زمن الحصار لما تولدت فكرة تحويل الحديقة إلى دكان.

الآن وأنا أتمسك قبيل الفجر بآجر الجدار الذي كنتَ تستند إليه، وتتأمل حديقتك، أشعر بأنكَ راضٍ عني، إذ لم أدع عائلتي تسقط في هوة الفقر، راضٍ وأسمعكَ بوضوحٍ تردد ساخراً عندما لا ترغب في حوارٍ يعكر عليك نشوة الشربِ:

- دونت سبيك.. سطوب.

منشورات «الفيـاء» «AlFyaa

الفصل السادس

البراءة

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

غمرني وجدكَ، لم أزل أحتل في هذا السَحَر مكان وقفتك، وأنت تتكئ على جدار غرفة الضيوف الخارجي، بمواجهة حديقتك التي تحولت إلى جدران من أسمنت وآجر، حالماً بطيفكَ، لمس كفكَ الحانية التي توارثْ إلى الأبد في غيابي.

أقف مغموراً بمهابتك ومعانيك، يا من علمتني دون أن تدري أن أكون أبيَّ النفس معتداً بها بالرغم من الوضعِ والمحيطِ، الفقرِ والتشردِ، علمتني وأضأتَ لي درباً، دليتني على درب الآلام بجملةٍ واحدةٍ تعادل قصصاً وروايات:

- لا.. ما أشتم وَادِمْ ما لي علاقة بهم، مو بس ما لي علاقة.. أحبهم "علية"أحبهم!

وتطلق بعد قهقهتك العاصفة لازمتك القاطعة مطعمةً باسم دلالها:

- لا "علاهن"دونت سبيك.. أسطب!

تهرب من حصارها إلى أقصى السكر، لتغلق باب أسئلة محنتها اليومية بلقمة العيش لأفواه عشرة. ظننتُ وقتها أنك غير مبالٍ بما كنا فيه من فَاقَةٍ، لكن حقيقة الأمر غير ذلك، فقد كنتَ تبكر إلى محلك، راكباً دراجتك الهوائية، أخبروني أنك لم تتركها حتى الممات. كنتُ أراكَ من طرف الشارع حينما ألتحق بخدمة عمي "خليل"بعد المدرسة، تجلس على كرسيكَ أمام المحل بانتظار رزقك، لكن لا زبون في تلك الأيام العجاف عقب انقلاب البعث 1963، لم تأتِ يوماً إلى البيت بيدٍ خالية، فإما تحمل أسماكاً كبيرةً أو كيساً كبيراً من كعك تشتريه بالنسيئة من جارك الفران "محسن"النحيف جدا والطويل القامة جدا والعصبي جداً، كان يصرخ طوال الوقت بوجه ابنه

منشورات «الفيا» «AlfYaa»

"سعدي"الذي سَيُقتَل في الحرب مع إيران لاحقاً، الكعك والشاي فطور طفولتي اليومي، إذ لا أتذكر أنني فطرتُ يوماً بيضاً أو جبنــاً، كنـتُ أطـير فرحـاً حينمـا أبـات في بيـت عمـتي "نعيمة"فزوجها "عبد الباقي "يعمل موظفاً في دائرة النفوس وطقوس الإفطار في صباحهم مثل حلمٍ بالنسبة لي؛ حليـب، بيضة مسلوقة، مربى، قيمر، خضروات متنوعة، كرفس طماطم بطاطا مسلوقة وشاي، ولَمَّتِهِمْ حولها وهي توزع على أبنائها السبعة صحناً يحوي قطعةً من كل هذه الأشياء، أشبع فأَغتمُّ مقارناً بين صباحهم وصباحنا، إذ يتراءى أمام عينيَّ مشـهد أخوتي وأخواتي المتحلقين حول أمي بوجهها الصارم المهموم منتظرين حصتنا المحددة كعكتين وقدح شاي، حينما أكبر قليلا سأعلم من أين تدبر أمي متطلبات يومنا من مأكل ومشرب وملبس، من مصدرين الأول خالتي "زهرة"أختها الوحيدة التي تصغرها، زوجها ضـابط في الجيـش تسـاعدها سـراً بمبـالغ بسيطة، وتُحَمّلها في كل زيارة أكياساً مليئةً بالسكرِ والشايِ والفاصوليا، فطنتُ لذلك وبدون تخطيط تقودني قدماي في الأيام التي أشعر بأنها حزينة حائرة إلى بيت خالتي، فتحمّلني ما يفك قليلاً من همّها.

المصدر الثاني كان أختايَّ "ساجدة"و "وداد"اللتين انتقلتا إلى بغداد لإكمال دراستهن الجامعية، فحللنَ في قسمٍ داخلي، كان يمنح للطالبات الفقيرات بعد أن يثبتن ضعف حالهن بمضبطةٍ من مختارِ المحلةِ وشهود في المحكمةِ، سبعة دنانير ونصف كمخصصات شهرية، كان مبلغاً كبيراً وقتها لمن ذاق الفقـر والعوز، توفران منه وتأتيان بما توفراه إلى أمي نهاية كل شهر.

- يعنى هذا رأيك النهائي؟

منشورات «الفـياء» AlFiyaa«

سألتكَ وأنتما تجلسان وسط حوش الدار الكبير، أجلس قريباً منكما أنصتُ وأتأمل قسماتها المطعونة، وقسماتك غير المكترثة الثابتة وكأن شيئاً لم يحدث، لم تفكر إذ أجبتها بوضوح ونبرة قوية واثقة:

- گلت لا، يعني لا!

- ونبقى بهذا الوضع!

ترشف من كأسك رشفةً خفيفةً، تضعه على طبلة صغيرة جوار السرير، تنظر نحوها بعينين مرحتين وتقول:

- خلي أخوچ "صبري"يَقدمْ أوراقه!

وخالي نجار أيضاً ويعاني شظف العيش تلك الأيام كما نعاني.

- قبلوكْ أنتَ وعائلتك أوجبْ!

- لا علاهن لا "عبد سوادي"ما يسبْ الناسْ!

- هسه أنت يا أبو سلام شنو علاقتك بالشيوعيين، إشوكت صرت شيوعي صدگ.. إشوكت؟ شَغلوكْ صانِعْ بالعهد الملكي وتركوكْ ما احدْ سألْ عنكْ وما اشتروكْ بفلسْ زمنْ عزهمْ بأولْ أيامْ عبد الكريم قاسم، وهسه هُمه يومية واحدْ ناشرْ صورته وبراءته بالجريدةَ. وأنتَ معاندْ، وبيدك تسد بابْ رزقْ عائلة چبيرة، والله ما عدتْ أفهمكْ أبدْ ورهْ كلْ هذا العمرْ الطويلْ!

المساء هبطَ على وجهكَ المضاء بمصباح الحوش الناري، أصغيتَ سارح النظرات كأنك تحلم وحينما أكملتْ جملتها الأخيرة، حملقتَ في قسماتها طويلاً، عميقاً وقلتَ جملاً قصيرة متلاحقة ظَلَّ يرنُ صداها في أعماقي أوقات التعذيب في الأقبية،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

وجبهة الحرب مع إيران وبين الثوار في الجبل، جمل علمتني كيفَ أكون نفسي لا غير:

- اسمعي يا مره هذي قضية شرف!

- ...!

- ما أريد أكل خبز بذل!

ألجمتها فحارتْ ولم تقل شيئاً فأردفتَ بجملةٍ ناصعةٍ:

- كرامة الإنسان رأس ماله بالدنيا!.

لم تكن أمي تعي موقفكَ بالرغم من فطنتها، إذ كانت تعتبرك سكيراً، والسكير شخص خيالي كما تردد وهي تكلم نفسـها، خيالي لا يستطيع مواجهة الواقع والمحيط، فيهرب من مشاكله ليعيش في الخيال والأحلام، وفاتها عمقك وأنتَ تفضل الفاقة على خبزٍ مغموسٍ بالذلِّ.

ها أنتَ قطعتَ رحلتك القصيرة منذُ ما يزيد على الثلاثين عاماً، وأنت لا تدري بأنني أسهر هذه الليلة حتى تباشير الفجر والريح تدوي بين الأشجار خلف نافذة شقتي بطرف الدنيا في الدنمارك أحتسي مثلما كنتَ تحتسي، أحاول أن أخلقُكَ بالكلمات رائياً التفاصيل الصغيرة كلها كأني عدتُ طفلاً أعيشها مرة ثانية بروائحها وألوانها وأمكنتها وانفعالاتها، أراك بوضوح تجلس أمامي بلحمك ودمك وأنت تتشبث بموقفك، وتُمْعِن في سكرك وطربك مع كوكب الشرق.

لم تستوعب موقفك، أوقفت نشاطك السياسي حال نجاح ثورة 14تموز 1958، انقلب البعثيون على الزعيم وقتلوه في 1963، لم تُعتقل، بمعنى أوضح لا الشيوعيون يعتبروك رفيقهم

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

ولا البعثيون يعتبروك شيوعياً عدوهم فكيف تفهم موقفك وأنت تُفَرّط بمصدر عيش مستقر وهي الممتحَنة بتوفير حاجة أولادها العشرة، فَتُتعبَكَ باللومِ وتكرار السؤال، سأكتشف أنها لا تقل كبرياءً عنك حالَ تحسن وضعنا نهاية ستينات القرن المنصرم.

سأدرك سرَّ غضبكَ لاحقاً، تنفجر محتدماً وتصيح:

- كافي.. كافي.. لا تعبرين الحدود!

لكنها تُمعن باللوم فتقوم من السرير منتفخ الأوداج، تخطف من على الطبلة أشياء شرابك الواحد بعد الآخر، كأس العرق، القنينة، صحن اللبن الرائب، الباقلاء، الحمص، الخس، إناء الماء، وتبدأ برميها نحو جدار الجيران فتتكسر أسفله. فتلزم الصمتَ وتنسل لتشغل نفسها بعيداً، سأدرك وأنا أتورط بالسياسة يوماً بعد أخر، كم كان لومها المنطلق من حاجةٍ ملحةٍ ثقيلاً جارحاً لم يقدر موقفك الواضح وضوحاً تاماً، لم يكن قصدها مَسَّ كرامَتكَ، لكن وصفكَ بمهمش لا قيمة لمواقفه ولا احد يهتم بها، أو يأخذ باله منها سواء أكتب براءة أو لم يكتب وختام كلامها بمثلٍ شعبي ما أن تَسمَعُهُ حتى تحطم وتنثر كل ما على الطبلة:

- ما تـگلي من يُعرفْ فطيمه بسوگ الغزلْ!.

في اليوم التالي تخفف الموقف مبتعدةً عن كلامها الحاد ولهجة السخرية وتركز على حاجتنا لمورد شهري ثابت، فيبقى الحوار بحدود مرحك وأنت تُنَغّم مقولتك بمرح:

- دونت سبيك.. أسطب

إلى أن تتعب أمي فتلتفت نحوي قائلة:

منشورات «الفـياء» AlYaa»

- يمه أبوك سكر!

في يومٍ روتْ لي، حال سقوطك في النوم أس المشكلة وعَزَتْ ما أنتَ فيه وما أصابكَ إلى الإدمان وحذرتني منهُ، لكن هيهات صرتُ أشرب مثلك، فالفتى على سر أبيه.

- أبوكْ لوما الشُربْ ما ورط نفسه وصبغ وشيعته، كان في بغداد يشتري أخشاب لنجر غرفة نوم، يبات يومين ثلاثة يشبع شرب بالبارات ويرجع بالثالث، وبذيچ المرة ما رجع، كان ينزل يم صديقه سكير مثله "جبوري النجار"كاتب الأغاني، وهو خبرنه بالقصة، كان يوم شنق "فهد"بساحة المتحف، أبوك بالليل سكر ووقف وسط الساحة وراح يهتف بحياة فهد ورفاقه والشيوعية!

أصغي إلى روايتها فأراكَ يافعاً في الواحد والعشرين، تقف على ناصيةِ الساحة، متوهجاً بغضبكَ، متحمساً، تهتف وسط دهشة المارة ورعبهم، تخيلتُ وجهكَ الفتي وصوتكَ القوي، وشجاعتكَ الفائقة، تَجَسّدتَ أمامي وأنتَ تدس يدك في جيبِ معطفك وتنثر النقود حولك داعياً إلى قتل قتلة "فهد"ورفاقه في زحمة ساحة المتحف، وجوه المارة الذين يتوقفون لأعشار اللحظة مندهشين ينظرون إلى هذا الرجل الغريب، قصير القامة وهتافه المجنون، قبل أن يَلم بهم الرعب فيسارعون بالابتعاد، ما زلتُ مزدحماً بالأسئلةِ بعد مرور أكثر من سبعين عاماً، ماذا فكرت لحظة شروعك في الخطابِ؟. هل كنت تحس بالجدوى؟. ماذا أردت؟! وهل حَسَبْتَ للنتائج؟ لا أدري، لكنكَ أعلنت فحسب.

أكمَلَتْ:

منشورات «الفيـاء» AlFyaa»

- عثرنا عليه موقوفاً في سجن معسكر الوشاش، قُدِمَتْ أوراقه للحاكم العرفي بعد شهر، حكموه سنة قضاها بسجنْ بغداد المركزي.

خَتَمتْ أمي قصتها، لم أقتنع بها، صحيح أن الحكم ثُبِتَ في صحيفة أعمالك التي تحتفظ بها دوائر الأمن لكل ناشطٍ سياسي لكن تصويرها كونكَ مجرد سكير هتف تحت تأثير الخمرة لم يقنعني، ازداد يقيني، بعد انغماسي في العمل السياسي واعتقالي زمن الدكتاتور الذي كانَ العهد الملكي أكثر احتراماً للقانون منهُ، بأن الحال معك كان أكبرَ من مجرد هتافِ سكران، إذن من المستحيل الحكم عليكَ بتهمة هتاف مخمور في ساحة عامة، لابدَّ أن لك تاريخاً من النشاطِ السري تخفيه فأنتَ قليل الكلامِ عن نفسك، كثير السخريةِ، بَحثتُ لاحقاً وبعناء شديد. أخرجتُ أخاك "خليل"من بحر نكاته التي يؤلفها طوال الوقت، فأخبرني بأنك كنتَ في أول حلقة سرية للحزب الشيوعي شُكلتْ في الديوانية، وذكر لي أسماء بعضهم؛ جليل الرئيس، ومهدي الصياح وآخرون كان يجتمع بكم "فهد"في غرفةٍ من قصبٍ وسط حقول بطرف المدينة، موضعهُ الآن "دور نواب الضباط"التي بناها عبد الكريم قاسم في أول سنة من ثورته:

- كنتُ أحملْ قوري الشاي وكيسْ الكعك، كانْ عمري عشرة، فهد كانْ يلفْ رأسه بكوفيه مرقطه، ولمنْ أدخلْ يسكتونْ، ويمزحونْ ويايْ ويعطوني "عانة" (عملة العهد الملكي)، ومن يخلصْ الاجتماعْ يودعهم ويغيبْ بظلامْ الحقولْ. ما عرفتْ الغريبْ كانْ "فهد"إلا لما انعدمْ.

كنتُ أنصتُ حالماً، رائياً المكان والشخوص، الديوانية مكونة من محلاتٍ أربع، صغيرة محاطة بالحقول والبساتين وفهد

منشورات «الفياء» «AlFYaa»

الجوال بين مدن العراق بهيئته المهيبة الغامضة منهمكٌ بنسجِ أسطورته، يَحلُّ لساعاتٍ بقامتهِ الفارعةِ وقوامهِ النحيفِ في غرفةٍ وسطَ حقلٍ، وأنتم تتحلقون حوله، تحملقون بدَلَهٍ وعشقٍ، تصغون بصمتٍ لكلامه المتقد، يذكي حماستكم وهو يبشر بفجر الاشتراكية والمساواة، يوم نهاية البؤس مثل داعٍ من دعاةِ البلاشفة أيام الثورة الروسية 1917الذين جابوا المدن والأرياف لتحريض الكادحين على الثورةِ. تَخيّلتُ جلستكم حول موقد النار، قسماتكم يافعة مصقولة صلبة كجذوعِ النخيل، عيونكم لامعة تحدق بالغريب الأليف وقسماته القويةَ المنحوتة التي ستبقى ما بقى العراق وهو يعتلى خشبة الشنق في ساحة المتحف ببغداد صبيحة يومٍ من أيام شباط 1949هاتفاً:

(الشيوعية أقوى من الموت وأعلى من أعمدة المشانق)

تنصتون بكيانكم، واثقين أنكم رجال المستقبل، هكذا ظننتم أكيد، مثلما ظننتُ في شبابي، الرجال الذين سيقلبون الواقع ويأخذون العراق إلى الوطن الحر والشعب السعيد، تلتفون حول موقد تلوّن ناره وجوهكم المتحمسة، والمشتعلة من حديث الساحر الغريب وقصصه، وطريقة تصويره لمجتمع الحلم، إذ يجعلهُ في متناول اليد، فتحلمون بيوم الخلاص من الفقرِ والجهلِ والجوعِ والأمراضِ، رأيتكم بعين خيالي تخرجون سكارى بأحلامِ الثورة لتودعوه في الغروب، تقفون جوار باب الغرفة تلاحقونه بعيونكم الممتنة إلى أن يغيب بين نخيل البساتين البعيدة.

- هل كنتَ في فوران تلك الأحلام حينما اندفعتَ لإلقاء خطبتك وسط ساحة المتحف وجثة "فهد"ساكنة معلقة أمام ناظريك؟

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

أين لأمي، وهي ترى لاحقاً صور شيوعيين قياديين يعلنون براءتهم في الصحف فيطلق سراحهم ويعودون إلى وظائفهم التي فصلوا منها، أين لها فهم أحلامكَ وتلكَ الأواصر السرية في علاقة تشبه الروايات والأحلام زمن صعود حلم المساواة والاشتراكية؟!

أين لها وأنت تشرب كل ليلة مديراً ظهرك للعالم وحينما تنزعج تقول بهزل:

- دونت سبيك.. أسطب!

كانتْ تظن أن مواقفكَ الساخطة من الواقع والسلطة مجرد كلام تنطلق به عقب سماعكَ الأخبار وصعود الخمر في رأسك.

أتذكر ذلك الغروب الذي دخلتَ فيه البيت مرحاً كعادتكَ وأخبرتها بما أَذهَبَ وجوم قسماتها الجميلة قائلا:

- راح أتوظف "نجار"بالمعارف.

لم تتمالك نفسها فرددت:

- اللهمَ صلِّ على محمد وآل محمد.. اللهمَّ صلِّ!

ثم قالت وصوتها يتهدج متخيلةً حصولنا على موردٍ شهري ثابت يقينا الفاقة:

- يعني صدگ راح تفرج!

تجلّى جمال قسماتها الساحرة الذي أخفته هموم العيش وثقل العوز، وأنت تؤكد:

- أكيد "علاهن"أكيد، اليوم ودَّه عليَّ مدير التربية، طلبْ تقديم أوراقي، وخبرني ما راحْ يعلنْ عنها تعرفين البطالة

منشورات «الفياء» AlFyaa«

والوساطات، وأكد: أني حبيتْ شغلكْ، اشتغلتْ ببيان بيته قبل سنة.

في الأيام التالية صارت أمي امرأة أخرى، تضحك طوال الوقت، ولا تدقق كثيراً في تفاصيل سلوكنا، تجمعنا كل مساء حولها، تحت نجوم الله العالية وسط الحوش وتروي لنا قصصاً قَدَحَتْ مخيلتي، قصصاً فيها مزيج من الحكمة والفكاهة، عن خنفساء مغرورة، تتجمل عصر كل يوم، تتحمر وتتخطط وتلبس كعباً عالياً، وتخرج إلى السوق باحثةً عن زوج لها، فتمر بأصحاب المهن، النجار، الحداد، الإسكافي، الحلاق، العطار، وواحداً واحداً يعرضون عليها الزواج فترفض، إلى أن تصعد إناء زيت وتغرق فيه، قصصاً شبيهةً بهذه مضحكة واضحة جعلتني أتعرف على روح أمي المرحة لأول مرة وأخر مرة، إذ سرعان ما كَفتْ عن ذلك، وعادَ إليها وجومها القديم بعد أيام قليلة.

أكملَ أبي أوراقه، نجح في الامتحان العملي فهو من أمهر نجاريّ المدينة، ولعدم قدرته على القراءة أخذني معه، كنتُ بالرغم من صغر سني أستطيع القراءة والفهم أيضا. الموظف المسئول عن الاختبار أكد حصوله على الوظيفة، فاقترح عليه زيارة المشغل للتعّرف على طبيعةِ العمل. فركبنا سيارة المعارف إلى مخزنها الواقع جوار علوة الخضر القديمة، البناية من طابقٍ واحدٍ، صف من غرفٍ متلاصقةٍ على امتداد جدران البناء المستطيل تشرف على ساحة أوسع من ملعبِ كرة قدم. تراكمتْ وسطه مقاعد خشبية تستوعب تلميذين، بينما امتلأت الغرف بكتبِ المنهاجِ الدراسية المقررة. كانت مهمة أبي تصليح المقاعد المستهلكة، ونجارة مقاعد جديدة للمدارس الجديدة. فما

منشورات «الفيـاء» AlFyaa«

أسهل هذه المهمة، وما أقرب المخزن فهو لا يبعد عن بيتنا سوى مئة متر فقط.

سحرني المكان، سعته، غرفه، خشبه، ظلاله، مشيتُ شارداً حلمان ناسياً أبي المشغول فوجدت نفسي داخل غرفة واسعة، ظلالها باردة، كُدِست فيها الكتب المدرسية حتى السقف، وبين أكداسها ممرات ضيقة جعلتُ أدور فيها مغموراً برائحةٍ فريدةٍ إلى أن وقفتُ مبهوراً ضائعا وسط الكتب، ومثل حالمٍ حملت كتاباً. فتحته، ألصقت أنفي بسطحه الناعم وشممتُ بعمق أنفاساً متلاحقةً، خدرتني رائحة الورق المسكرة التي سترافقني بقية العمر.

لم تزل عادة شم ورق الكتب تلازمني، فحينما أشرب الخمرة ويصعد دبيبها أتناول كتاباً من أدراج مكتبتي، أفتحه وأشمه فأرى نفسي ذاك الطفل الحالم الخدران في مخزن الكتب.

حلمتُ أنا الآخر بحصوله على الوظيفة متيقناً بأني عثرت في هذا المكان على فردوسي المفقود. لم أصحُ إلا على صوته يناديني، فهرعتُ راكضاً نحو الشمس المشعة بباب الغرفة.

لم يبقَ لتحقيق أحلام أمي وفردوسي سوى مرحلة واحدة أخيرة، أوجبتها سلطات ما بعد انقلاب شباط 1963على المتقدم لوظيفة حكومية وهي جلب "صحيفة أعمال"من دائرة الأمن.

في بابِ المخزنِ طلبَ مني قراءة الكتاب بالرغم من أن الموظف شرحَ له المطلوب، رفعتُ رأسي بعد آخر سطرٍ، فرأيتهُ ينظر نحو امتداد الشارع المكتظ بالمتسوقين، لبثَ دقيقة صامتاً، متفكراً ثم هزَّ رأسه تحت شمس الظهيرة الساطع وكلم نفسه قائلا:

منشورات «الفيـاء» AlfYaa»

- أنروح ونشوف!

ثم التفت لي:

- بويه أرجع للبيت!

لاحقتهُ وهو يبتعد على دراجتهِ الهوائيةِ القديمة إلى أن اختفى وسط الحشد قاصداً مركز المدينة، عدتُ إلى البيتِ، ونقلتُ لأمي تفاصيل ما جرى، مكان العمل، طبيعته، ما قاله الخبير فكادتْ أن تطير من الفرحِ وكأنَ كلامي أجنحة.

عادَ في المساء متألقاً يحمل ثلاث سمكات عظيمات من سمكِ جليل مرددا:

- شوفي عَليّة هذا شلون سمك!

كانت على أحرّ من الجمرِ، تعيد سؤالها عن نتيجة مراجعته، فيعيد الكلام عن السمك وكيف سيكون عند الشواء، هَجَستْ أمي بخيبة قادمة وسألته بتركيز شديد لا مفر منه، فأجابها هازلاً:

- يردون براءة من الحزب الشيوعي تنشر بالجريدة ويه صورتي، يعني أسب ناس مو بس إلي علاقة بيهم بل ناس أحبهم.

شحبتْ قسمات أمي وأخرسها الكلام، فراحتْ تبلع ريقها الذي نشف، غير قادرةٍ على النطق، بينما أبي يكمل:

- تهي بهي.. تالي "عبد سوادي"يصير مَضْحَكْ و تصير العاهرة أشرف منه!

وأردفَ بصوتٍ واثق، وفي وجهه نشوة وكبرياء:

- أغبياء ما يعرفون منو عبد سوادي؟

منشورات «الفـيـاء» «AlFyaa»

وضربَ صدره بباطن كفه الأيمن ملتفتاً إلى أمي التي كمدتْ قسماتها وشردتْ نظراتها في شحوبِ ذلك المساء المنار بمصباحٍ معلقٍ بجدار غرفة البيت الحجرية، وبقمرٍ تام الاستدارة أَتَمَ طلعتَه وأشرفَ على المشهد، ظّلت متحجرةً غير قادرةٍ على النطقِ، تأملها بشجنٍ ومدَّ يده بالسمكات نحوها قائلا:

- ولا أنتِ يا أم سلامْ تفهميني!

أرادت أن تقول شيئاً فسارع قائلاً بصوتٍ حازمٍ:

- لا تدوخيني الليلة، أتركيني أشرب ولا تنكدين ليلتي، والصبح الله كريم، نحكي وعندي فكرة وحل!.

في تلك الليلة كنتُ أقف بينكما، أفهم بإحساسي المأزق، لكني غير قادرٍ على التعبير، أقف متعاطفاً، متمنياً لو تسمحان لي بمعانقتكما، لو تتفاهمان وتنسجمان لتعود أمي إلى مرحها الذي بَرَقَ مرةً واحدةً في عمرها وانطفأ، تعود وتحكي لنا قصصاً في الليالي، لكن هيهات.

تمالكتْ نفسها، عادتْ قادرةً على الكلامِ فأصرّتْ على أنك أهدرت باب رزق عشرة أفواه تحتاج خبزاً وملبساً ومستلزمات مدارس، فيما أنت أصررتَ على الكرامة وشرف الموقف. ليلتها أشبعتها بـ:

- دونت سبيك.. أسطبْ!.

ولم يفيد كونها مقاتلة عنيدة ولديها طاقة حوار عجيبة إلى أن حسمت الأمر:

- أسمعي بُكرى من الصبحْ تخطفينْ قدمكِ لبيتْ أخوكْ "صبري"هو نجارْ ماهرْ وسجلهْ نظيفْ، ومثلنه عنده عشرة،

منشورات «الفيـاء» «AlFyaa»

خلي يقدمْ أوراقه بمكاني، وأني من رجعتْ من دائرة الأمنْ مريتْ بمدير المعارفْ ووصيته بيه.

أرادتْ أن تحاورك، لكنك رحتَ تردد دون فاصلة:

- دونت سبيك.. أسطب، "علاهن"حبيبة دونت سبيك.. دونت سبيك!

لتختمها:

- دونت.. دونت.. دونت.. سأسافر للكويت!.

خالي "صبري"حصل على الوظيفةِ وأستمرَّ فيها حتى سن التقاعدِ، أما أنتَ! فبعدَ أسبوعٍ حزمتَ أمتعتكَ وسافرتَ إلى الكويت.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الفصل السابع

قيامة الأرواح

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

قبلَ عام كانَ الحلول بين جدرانكَ حلماً مستحيلاً، آيستُ من كثرةِ ما حلمتُ، أحلم وأترمد.. أحلم وأترمد.. أحلم وأترمد والعمر يجري في المنفى بين الكأس

والضياع.

أغطسُ في الهدوءِ الذي حلّ على كل شيء؛ البيت، الحديقة والشارع، أسند ظهري إلى جدار غرفة الضيوف، أحملق في نجوم طفولتي المتدلية كعناقيد مضيئة بعيني ذاك الطفل البريء الذي كنتهُ، أختنق بعبرة العمر الذي قضيته بين الحروب والتشرد والمنفى. أنفصل عن الجدار وأخطو ببطءٍ شديدٍ نحو الباب الحديدي، أحرر لسان القفل، أسحب الباب بحذرٍ شديدٍ، أخطو عابراً العتبةِ، أتوقف مبهوراً مسحوراً لأستنشق هواء نشأتي بعمق. ألبثُ مخدراً، أترنح كسكرانٍ قبل أن أتوازن وأرجع خطواتٍ ثلاثة إلى الوراء لأستند إلى سياج البيت مأخوذاً بقيامة روح المكان بناسهِ وروائحهِ وألوانهِ وأحلامهِ وسكانهِ.

لم أنقطع عن مدينتي ومعارفي، فطوال فترة الحصار أقمتُ صلاتٍ مستمرة عبر البريد العادي، كنتُ أكتب أو أستلم كل يوم تقريباً رسالة أو رسالتين من أصدقائي وأقربائي، لم أترك صغيرة أو كبيرة دون سؤال، أخبروني أنكَ كنت تجلس في مكان وقوفي الآن أمام الباب، عصر كل يوم، تنادم جارنا "عبد سماوي"والد صديقي (الشاعر الذي مات غريباً في لندن "عزيز السماوي") حتى حلول الظلام، تحكيان أشواقكما ومعاناتكما، فأنتَ لديكَ واحد قتلوه في أقبيتهم والثاني هارب و "السماوي"لديه أربعة أبناء هاربين، تخففان عن بعضكما، كُتِبَ لي: أنك بقيت بعد موتهِ تجلس وحدكَ عصرَ كل يوم حتى قبيل رحيلك بأيام.

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

قليلاً.. قليلا نهضتْ أرواح أبناء جلدتي من غفوتها وضجتْ فرأيتُ قيامتها تنطق بما حلّ من موتٍ وقتلٍ وخراب.

أقفُ مغموراً بالأسى، أتصفح البيوت بيتاً.. بيتاً.

مقابل دارنا تماماً تراءى رفيق الطفولة ومقعد الدرس "سريع مطر"يظهر من باب دارهم يافعاً، أبيض البشرة بوجنتين مليئتين موردتين وجبهة ناصعة وعينين ملونتين، قصير القامة وديع مسالم، خاصمته غيرةً، فـ "أمل"جارتي التي تولهتُ بها تجلس كل ظهيرة على دكةٍ خشبيةٍ بمدخلِ دكانه الصغير تبادله الحديث بينما أقف في نفس موضعي الآن أتلظى بغيرتي. لم أتحمّل، في ظهيرةٍ حارةٍ اشتعلتْ فهرعتُ إلى مطبخِ البيتِ، حملتُ سكينة طويلة، عبرتُ الشارعَ نحوه، فأخذ يصرخ مستنجداً وركض نحو بابهم المفتوح بينما هربت "أمل"إلى بيتها المجاور، وقفتُ وكأني بطلُ فلمٍ أزبدُ وأرعدُ شاعراً بالنصرِ فخفتتْ فورة غيرتي، كنتُ أحبها بجنونٍ، لكنها لم تعرني أي اهتمام في القصةِ كلها.

سنكبرُ وسنصبحُ أصدقاء جداً ونتذكر الحادث بمرحٍ، سيتزوج امرأة متحضرة ثرية كان سعيداً جداً بها، يسرّ بمشاعره كلما التقينا:

- سلام الله رزقني امرأة ما كنت أحلم بها!

كانتْ زميلته في بريد الديوانية.

في صبيحةِ يومٍ باردٍ فتحتُ رسالةً بلهفتي المعتادة والتهمت سطورها جوار صندوق البريد، كانَ الثلجُ يتساقط من سماءٍ دنماركية بيضاءَ دانيةٍ تشعركَ بوحشةِ الوجود، خذلتني قدمي فاستندت على جدار المحزن الخشبي أعيدُ قراءة جملة ختامية

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

(أما جارنا الطيب "سريع "فَفُقدَ بهجوم شرق البصرة، ولم يعثر على أثرٍ له) يومها سكرتُ سكرةً عظيمة من الظهر لأنفجر بنحيبِ يأسٍ ومرارة، بكيتُ بشدةٍ وحرقةٍ قبل أن تعود زوجتي من عملها، فقد مَلّتْ من بكائي على من أفقدُ ممنْ لا تعرفهم.

أتصفحُ معكَ يا أبي فظاعةَ القمعِ وهول الحربِ.

جارنا "عزيز"رفيق الطفولة والصبا، شدَّ لحمتنا، حمانا وجعلنا نتضامن في المعارك واللعب، ثم أصبح صديقاً ورفيق الأفكار ونديم الكأس، كان مسالماً، عاشقاً للديوانية، لم يقوَ على الالتحاق بالثوارِ بالرغم من مفاتحتي له، فبقيَ في المدينة موظفاً في مصرف الرافدين، يعود من العمل، يشرب نصف عرق وينام في روتين يومي، لكنه سِيقَ إلى جبهة الحرب فهرب ليختفي في بيت مستأجر في مدينة أخرى مع صديقٍ مشترك سيخبرني في رسالة؛

(كان يسكن معي، نشرب ليل نهار لكنه خرج يوماً ولم يعد أبداً)

سيزورني "محسن"أخوه الكبير، ويستفسر عن مصيرهُ:

- يگولون التحق بالشيوعيين بالشمال، وطلع خارج العراق!

أجبته:

- لم أسمع بذلك، ولو التحق أو بالخارج كنت عرفتْ.

ألزمه جوابي الصمت دقائق وقبل أن يغادر سألني بصوتٍ مضطربٍ:

- أيش تعتقد، وين صار؟

منشورات «الفيـاء» «AlFyaa»

أجبت دون تلكأ:

- لا يوجد غير تفسير واحد، اعتقلوه دَفْنْ، وضاع بسجونهم!

ما زلتُ أراكَ يا "عبد سوادي"تجلس على كرسيك جوار "عبد سماوي"تقلبان مثلما أفعل الآن مصائر أولاد المحلة الذين ضاعوا بين السجون وجبهة الحرب،

"مظهر عبد طه"الإنسان البسيط تناوبنا على حراسة مرمى فريق محلة "العصري"، كان الكتاب المدرسي بالنسبة له غابة يتيه فيها، لا يستوعب شيئاً، فيبدي عجبه من قدرتنا على المذاكرة، رسبَ في السادس ابتدائي سنتين فدفعتهُ عائلتهُ الفقيرة إلى التطوعِ في الجيشِ ليعينها براتبٍ شهري مضمون، هو الآخر جلبوه ملفوفاً بالعلم في سنةِ الحرب الأولى.

ارتفع صوت ترتيلٍ خافتٍ لآيات قرآنية من شباكٍ قريبٍ مُنَغّمَاً أضفى سِحراً على وقفتي، السَحَر على الأبواب، رميتُ ناظريّ في عمق الشارع الذي يستدير مع محيط ساحة مدورة شاسعة، في جهتها المقابلة بناية الجامع القديم بمنارته الواطئة إلى جواره بيت "لفتة"مفوض الشرطة طويل القامة صارم النظرات يلاحق ويحاصر ابنه "رياض"المدله بالأفكار الثورية، كان زميلي في مدرسة الثقافة الابتدائية، تولهنا بالقراءة باكراً، في الخامس الابتدائي كنا نتبادل الكتب ونلتهم الروايات البوليسية، وروايات الفروسية والمغامرات التي أفضت بنا قليلاً.. قليلاً إلى روايات إنسانية، بائعة الخبز، البؤساء، قصة مدينتين، لنقع على "الأم"لمكسيم غوركي وبطله "بافل"الذي قلب حياتنا رأساً على عقب وفتح لنا بابَ النضال من أجل المساواة والحرية، وبابَ العمل السري في خلايا الحزب

منشورات «ألف ياء» «AlifYaa»

الشيوعي، التي أفضت بنا إلى زنازين أمن الديوانية قبل الحرب مع إيران التي فرقتنا فعدنا لا نعرف أخبار بعض، كتبوا لي حينما سألت عنهُ:

- خرج من بيته مع آذان الفجر ليلتحق بوحدته في شرق البصرة لكنه لم يصلها أبدا ولم يعد أبداً، بعد عامين تم تبليغهم عن إعدامه دون تسليم جثته.

خلف الجامع بعدة أزقة، بيت "جهاد الحداد"عامل أسمر، قصير القامة، شجاع، متوقد، صلب، كنا نسهر ونشرب ليلاً في محله وسط زقاق الحدادين نتحاور مشغولين بِهَمِّ الناسِ، كان جريئاً لا يخاف، عمل معنا سراً حتى لحظة التحاقي بالثوار، ضاعت أخباره عليّ ولم أسمع عنه حتى وصولي الديوانية. سأصدم وأنا أجلس على علبةِ صفيحٍ مقلوبةٍ في مقهى "جواد المراقب"الصغيرة مقابل معمل ثلج "الحاجم"في شارع المواكب، سأصدم إذ كان من الأعزاء الذين حلمتُ في المنفى برؤيتهم، وفيما كان "جواد"يناولني قدح الشاي، سقطَ من يدي فتناثر زجاجه بين قدميَّ، و"جهاد"بوجهه المنحوت ونظراته الواثقة وشفتيه الباسمتين، يحملق نحوي من ورقة النعي الحائلة الملصوقة بالحائط أمام جلستي، التفتُ إلى "جواد"بعينين مذهولتين تتنقلان بين وجه جهاد ووجههِ فقال بصوتٍ حزين:

- أخذه "الحرس الجمهوري"عندما احتل المدينة بانتفاضة 1991وضاع أثره.

خنقتني العبرةُ. إسْوَدَّ مزاجي فعدت إلى البيت. انزويت في غرفتي وانفجرت بنحيبٍ طويلٍ.

في صبيحة اليوم التالي ظاهرتُ ملصق جهاد وانغمرتُ مع

منشورات «الفياء» «AlIYaa»

"جواد"بحديث ذي شجون، فروى بمرحٍ كيفَ تسربتْ مجموعتي القصصية "سرير الرمل"من سوريا إلىٍ الديوانية قبل الاحتلال، فانتشرتْ وصورتْ وقرِأتْ مثل منشور سري، ليركز على تشخصهم لطالب الخامس ثانوي في قصة "جورية الجيران":

- عرفناه.. عرفناه هههههههههه اللي حاول يغتصبكْ عرفناه وأش سوينه بيه! كنتُ قد صورت ذعر الصبي الذي عبر سياج البستان من أجل قطف وردة لجارته التي يحبها، والحدث واقعي جرى لي لكن ليس كما صورتهُ بالقصةِ، ذكرتُ اسمه الحقيقي مع وصفه الدقيق، المصيبة أن شكله لم يتغير بقى ناحلاً واحتفظ بنفس الملامح التي وصفتها، أصبح مدرساً ثم أستاذاً جامعياً، كم أسفت لذلك، القصة كتبتها قبل سنوات من الاحتلال وقتها لم أتخيل أبداً أني سأعود وأجده حياً، لم يزرني، يصادفني أحياناً في شارع أو مقهى فيتمتم حانقاً ويشيح بوجهه إلى الجهة الأخرى، سألت "جواد المراقب"عن سبب جفائه فحكى لي التفاصيل:

- تعرف الجديدة كلها قَرَتْ القصة، والأستاذ يمرْ يوميه بهذا الشارعْ بطريقه لمدرسته، كنا نگوف على الرصيفين ننتظره ولمن يصير بيننا نصيح بالتناوب من الرصيفين (ها ولك ألزمه ألزمه أنگطعت التچه)

(والتچه "حزام البلاستيك يشد اللباس إلى الجسم"تنقطع في القصة وسط حقل الورد بسبب انتصاب قضيبه مما يعقيه عن القبض على الصبي فيستغل تشربك قدميه ويبتعد هارباً) يوگف وسط الشارع يلتفت يمنةً ويسرةً إلى الرصيفين فنمثل انقطاعها ونزول اللباس الداخلي تحت الدشداشة وننحني مادين أذرعنا لإيقاف الانزلاق، يتلفت، تشحب قسماته، يصاب بالخرس، ثم

منشورات «الفياء» AlFyaa

يبتعد مسرعاً تلاحقه ضجة الضحك العاصف، غيَّرَ مساره، لكنه ينسى بحكم العادة فيجد نفسه وسط المشهد نفسه. غرقتُ بضحكٍ عاصفٍ من تصويره مردداً:

- لا.. جواد.. لا!

بالرغم من ضحكي كنتُ متأسفاً حزيناً لتطور الأمر إلى هذا الحد، سألني "جواد":

- القصة حقيقية لو من خيالك؟

سؤال أوقعني في حيرة، كيف أشرح الفرق بين الواقع والفن، الحدث في القصة والحدث في الواقع، وفيما كنت أفكر بجواب معقول ذهبتْ عيناي الضاحكتان إلى الحائط المقابل، سقط أستكان الشاي متناثراً على البلاط وعينا "فليح حسن الشيخ كاظم"كاتب المواويل، تبحران في قسماتي المذهولة من صورته الملصوقة بالحائط، يبحر بعينيه الضاحكتين كأنه جواري نتحاور حول مدينتنا الفاضلة التي كنا نعتقد أنها بمتناول اليد لا عقبة أمامنا سوى إزاحة الدكتاتور، يسمعني موالاً جديداً كتبه، ويطلب مني إسماعه جديد "علي الشيباني"، نجلس منتظرين الدهشة الدائمة تتدفق من باب إعدادية البنات، نصمت وجموع الصبايا بملابسهن المدرسية الزرقاء والبيضاء يقتربن، يسألني ضاحكاً:

- سلومي دليني بحبك الجديد؟

يعرف بأني أهيم كل فترة بواحدة، أنتقى الأجمل والأكثر إثارة، أيأس منها، أتعلق بأخرى، لا يذهب القارئ بعيداً ويتخيل أن علاقة الحب بحق وحقيقي، كلا، فالقصة كلها مجرد بسمات متبادلة، نظرات فيها كلام وضحك خفي يجعلني أكتب رسائل

منشورات «الفياء» «AlFYaa»

هيام وغزل، وأحيانا تبادل حوار خاطف في زقاق خال مع لمس أصابع على عجل في مساء لا أكثر، كنتُ أسرح بالخيال وأستمتع عكس أقراني يحوّلونَ العلاقة إلى جحيم من القبل واللمس والدسِ في غرفٍ وخلوات وسطوح فتجول الأصابع في اللحم الحار، يحكون لي فأهتاج وأسقط في الذهول والتساؤل؛ كيف يحققون ذلك؟ فبالرغم من تجاربي المبكرة في الجنس، سأرويها في الفصول القادمة، كنتُ شديد الخجل أتضرج وأصير قطعة من الدم كلما واجهت امرأة، وقتها لم أعرف السبب، سأحاول الوقوع على العلة التي قسمت عالمي إلى قسمين: علني خجول مؤدب، وسري لا تقف أمامه موانع.

أغمز له عند مرور الجديدة أو يخمن بنفسه أحياناً حينما يلاحظ اهتمامها. سمعتُ أنفاسه حيةً، وشعرتُ بحرارته وهو يعانقني في كلِ مرةٍ نلتقي بها. بقيتُ على حالي متناثراً تناثر أستكان الشاي، بينما لزم "جواد"الصمت إلى أن التفتُ إليه وذراعي يشير نحو ملصق النعي:

- راح هو الآخر؟

أومأ برأسه وقال بخفوت:

- مثل "جهاد"

فانفجرتُ بنحيبٍ خافتٍ مكتوم.

منشورات «الفياء» AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

الفصل الثامن

أستاذ "جبار"

منشورات «ألف ياء» «AlifYaa»

أتمشى على رصيفِ الطفولةِ، تحف حولي أطياف استيقظت من روح الشارع، أصواتهم، خطواتهم، حرارة أكفهم المصافحة، ألق عيونهم، أتَمَهَّل عند موضع جلستكَ فتنبثق بهياً مقهقهاً غير مبالٍ مهما ساءت الظروف وَتَدارَكَتْ، تعيش لحظتكَ بعنفوانٍ وهذا ما أورثتني إياه، تلعن السلطة تارة، وتعلق ساخراً بما يجلب الضحك في أخرى، جلستُ بِمكانكَ سارحاً فرأيتك في عصر يومٍ حارٍ قوياً فتياً تنصب طاولتك جوار سريركما المشترك وسط الدار الفسيحة، مسروراً لانقلاب "عبد السلام عارف"على البعث وحرسهم القومي وزجهم بالسجون، يومها كان جسدي وارماً يوجعني من كل ناحية، أصابع يدي مجرحّة، منتفخة، كدمات في وجهي، في عظم ساقيّ، ظهري، رأسي. تجننت وأنت تتفحصني بالرغم من قسوةِ ضربك كلما أتيت ذنباً، تجننت حتى أني رأيتُ الهلعَ في عينيك سألتني:

- منو ضربك.. منو؟

- أستاذ جبار!

كم مرة أخبرتكَ أن المعلم ضربني، فتستفهم عن السبب وتكتفي بالقول بعد معرفته:

- تستأهل أعرفك مُؤذي وَحَرِكْ!

لكن تلك المرة لم تقل جملتك التي تزيد من ألمي، كنتُ كخارجٍ للتو من غرفةِ تعذيبٍ، سأذوق ذلك لاحقاً وأنا أتدله بفكرة وطن حر وعراق سعيد، لم يذهبْ هلع وغضب عينيك، طلبتَ مني نزع الدشداشة، بقيتُ بالسروال الداخلي، أدرتني بكفك وتفحصت ظهري، ازدادَ جحوظ عينيك، مررت أصابعك على الكدمات الداكنة وأشواك الخشب الداخلة تحت الجلد، كنتُ

منشورات «الفيل» «AlFiyaa»

أتماسك بعناء حابساً عبرتي المهضومة، فأكثر ما يزعجكَ رؤيتي باكياً، سألتني عن السببِ، أخبرتُكَ، فهببتَ من سريرك، أفرغَتَ كأس العرق في جوفك، حملتَ فأس النجارة وهرعتَ نحو مجاز البيت قاصداً بابها الخارجي وقبل أن تعبر العتبة التفت، فوجدتني أتبعك قلت بلهجةٍ قاطعةٍ:

- لا تِجِي وَراي!

* * *

بالرغم من أدبهِ الجم فهو لا يرفع عينيه نحو امرأة في الشارع، ولم يبادل أحداً من الجيران حديثاً إلا فيما ندر، إلا أنه في المدرسة يتحول إلى كابوسٍ يجثم علينا، كان مرشدنا في الثالث الابتدائي يدرس مادة العربية والدين، لم يكن بهذه السطوة، لا في زمن "قاسم"ولا عقب انقلاب 8شباط 1963إذ كان أغلب معلمي المدرسة شيوعيين أودعوا موقف "العصري"الذي نستطيع من الشباك الواقع على يسار مقاعدنا رؤية جداره العالي، بالعكس صار أكثر وداعةً مع ارتداء عدة معلمين بزة الحرس القومي الخاكية ورشاشة "بور سعيد"تتأرجح من على أكتافهم، يعلقونها بمسمار في الحائط جوار السبورة، ويبدؤون بالتدريس. مباشرةً بعد انقلاب "عبد السلام عارف"على البعث، وحلّ الحرس القومي في تشرين من نفس العام وَدَعَّ وداعته وتنمّرَ فراح يضرب التلاميذ لأوهى الأسباب، وقتها لم أدرك سر هذه التقلبات، لكن لاحقاً خضتُ معترك السياسة فتوضحَ الأمرّ؛ إذ تبدى نشاطه السياسي كشيعي متعصب يود دمج الجميع في طائفتهِ بالقوةِ، وكان حزب الدعوة قد تأسس كما سأعلم لاحقاً، قبل سنوات ست أو سبع من

منشورات «الفيا» «AlfYaa»

تاريخ الأحداث التي سأرويها. أبدى حينما خلا جو المدرسة من المعلمين الشيوعيين والبعثيين ضرباً من القسوة أرعبنا، لا أنسى ما حييتْ ذلك الصباح الشتوي البارد. أعتقد أن زملائي الطلبة الأحياء يتذكرون تلك الحصة التي حولها أستاذ "جبار"إلى مجزرةٍ، سأزور مدرستي الابتدائية "الثقافة"في الأيام التالية أي بعد واحد وأربعين عاماً، وأجلس على مقعدي القديم في الصف نفسه، الغريب والمحزن أني وجدتُ البناء هرماً رثاً ومقاعد الدرس الخشبية قديمة، وسخة، وجدرانه رطبة، حائلة، مليئة بالخطوط، والأوساخ، وبحضور معلم ومعلمة الفنية رويت للتلاميذ ما جرى؛ كنتُ في الثالث الابتدائي وكانَ البردُ قارصاً، لا تدفئة ولا مدافئ في الصفوف، فكّنا في الحصة الأولى نضرب بأيدينا خَشبَ المقعد أمامنا، وبكعب أقدامنا البلاط، بسرعةٍ وعنفٍ صارخين كي نتدفأ قليلاً ويسكن ارتعاش أجسادنا، فغالبيتنا ننحدر من أسرٍ فقيرة بالكاد توفر الخبز.

كان ذلك الصباح بارداً متوتراً، حالَ فضّ الاصطفاف توجهنا في طوابير كلٌّ إلى صفهِ، سرنا نَتَلَفت متوجسين مذعورين كأننا مقبلون على يومِ الحسابِ، فقد توعّدنا أستاذ "جبار"يوم أمس قائلاً:

- أسمعوا باچر تقرون الدرس واحِدْ.. وَاحِدْ، كل غلطة بعصا، يعني اللي يغلط عشرين مرة راح يأكل عشرين عصا.

جلسنا على مقاعدنا نرتجف من البرد والذعر، وقف وسط الفسحة الأمامية فأَطّرَتهُ السبورة السوداء العريضة، تَفَحَصّنا بعينين لامعتين من خلفِ نظارته الطبية السميكة، ترتسم قسماته السمراء الحجرية أمامي الآن وأنا أكتب، تنتأ وجنتاه البارزتان عند الغضب ويدكن لونهما متحولاً إلى سواد ناصع يَلْمَع

منشورات «الفـيـاء» «AlfYaa»

بحبيباتِ العرق، أطال التحديق ثم طلبَ منا ضرب المقاعد والبلاط والصراخ، فعلنا ذلك لدقائق، أمرنا الكف والهدوء، فعاودتنا الرعشة عاصفةً فأخذتْ أسناننا تصطك بصوتٍ مسموعٍ، فقال بصوته الجهوري ساخراً:

- ماذا بكم ترتجفون من البردِ أم من الخوفِ؟

كان ينطق أحياناً بالفصحى، وابتدأت المحنة، فتحنا كُتُب المطالعة على الدرس المطلوب بأصابعٍ مرتجفةٍ، الصمت والبرد والخوف جعل لنبرة صوته وقعاً مرعباً:

- نبدي بسره الشطار

الصف مقسم وقتها إلى ثلاثة أقسام، الشطار في صف المقاعد على اليمين قرب الباب، و"المُطْرْ"متوسطي المستوى في الوسط، والكسالى في صف المقاعد المجاورة للشبابيك المطلة على الحديقة الخلفية، بدأ بالقراءة أشطر طالبٍ يجلس على أول مقعد، كان مرتبكاً يرفع رأسه بين سطرٍ وسطرٍ وينظر نحو أستاذ "جبار"الذي يهزُّ بعصاه الغليظة، إلى أن غلط بلفظ كلمتين، فصرخَ به:

- قُمْ.. قُمْ يا شاطر قُمْ وتعال.

نهض التلميذُ من المقعد وتقدم بخطى وجلةٍ، أمره بمدّ ذراعه وبسط كفه، فانصاع ببطء، رفع عصاه عالياً وهوى بضربةٍ أرعبنا صداها، ضمّ ذراعيه غريزياً، أمره ببسطها بجرس صوته المخيف:

- أفتح أيدك!

كنتُ أحملقُ مقبوضَ القلبِ بعينين مفتوحتين من مقعدي في

منشورات «الفيـاء» «AlFyaa»

أول صف "المُطَرْ"براحةِ كف التلميذ الصغيرة الناعمة وهي تنبسط ببطء والعصا ترتفع، فيرّن صدى الضربة، مثل صوتِ لفح سوطٍ، الضربة الثانية على راحة الكف الأخرى جعلت الشاطر المسكين ينهنه بصوتٍ خافتٍ ضاماً راحتيه تحتَ إبطيه ووجهه يتلوى ألماً في طريق عودته إلى مقعده.

لم يعمد كشأنه اليومي إلى الاختيارِ العشوائي بل الواحد بعد الآخر، كانتْ تلك الصبيحة كالقدرِ عَصَفَتْ بنا جميعاً.

توالت القراءات وتوالت الأخطاء وتوالى مشهد الضرب المرعب.

كان الهولُ على المنتظرين أكبرَ بينما تنفرج قسمات المضروبين ويخف الألم قليلا.. قليلا. لم أكن أفكر في نفسي، كنتُ متمكناً من القراءةِ، لكني كنتُ أفكر بزميلي "سعد حمد البو جمعة"الذي يشاركني المقعد، من عائلةٍ ميسورةٍ تمتلك دارين من دورِ السينما الثلاثة في ذلك الوقت، سينما الجمهورية الشتوي والصيفي، كان رقيقاً ترفاً يأتي به والده إلى دكان عمي ليحلق، شديد الأدب لا يتكلم إلا عند الضرورة بالعكس مني تماماً. لا ادري لِمَ وضعتهُ عائلته في مدرسة "الثقافة"التي يختلطُ فيها أبناء المحلاتِ الفقيرة بأبناء المهاجرين من أرياف الكوت إلى الديوانية من "أهل الشط"، بأبناء رعاية الأيتام الذين يعيشون في دار الرعاية القريب في حياة شبه عسكرية. كنتُ أحميه بمساعدةِ أبناء محلتي وسط معارك الاستراحات، كانَ مسالماً، لم يدخل في عراكٍ مع أحدٍ ولا يخرج إلى الشارع إلا نادراً، فلدارهم المجاورة للسينما حديقة غناء وسياج عالٍ وتشغل مساحة تجاوز الألفين متر، كنتُ أفكر بمصيبته، فدوره سيأتي قبلي في اختبار القراءة الجهنمي، فهو بطيء النطق يجد صعوبة أصلاً في لفظ

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

بعض الحروف، لا يستوعب بسهولة، يأخذ دقيقة حتى يتمكن من نطق مفردة كثيرة الحروف، بالأمس جاءني إلى محل "عمي"حاملاً كتاب المطالعة فذاكرت معه كي يضبط لفظ الحروف والكلمات، بعد ساعة أمسى قادراً على قراءة الدرس لكن بتلكؤ.

الآخر هو "حامد"جاري مربي الطيور طيب القلب، أبن "عزره"فلاح الحدائق الذي مات باكراً، فتكفلتْ أمه بإعالتهم، تَصنع اللبن الرائب في بيتها، توزعه بطوسٍ معدنية تحملها في صينية على رأسها وتدور في الشوارع لبيعها، خطفه وَلَه الطيورِ فَصَعب عليه التعلم، كنا نجلس أحيانا في الشارع نذاكر فينظر نحوي بدهشةٍ حينما يجدني أقرأ بسلاسةٍ فيقول:

- عجيب "سلام"أشلون تگدر تقره.. والله عجيب!

أنتهز الفرص وألتفت إليه بين الفينة والفنية فأراه ينظر نحوي بعينين مستنجدتين مرعوبتين وكتلته من شدة انكماشها بدتْ وكأنها صغرتْ، كان الجميع يظنُ أني سأنجو من المجزرة لقدرتي على القراءةِ بسهولةٍ، إذ كنتُ أتباهي بها، وما جلوسي في مقاعد "المُطَرْ إلا عقوبة لشكسي وشيطنتي، بلغنا السيلُ فطلبَ من "سعد"القراءة وسط عويل التلاميذ المكتوم المنفلت لأعشار الثواني، كانوا يكتمون ألمهم متلّوينَ على مقاعدهم بصمتٍ ووجوه محتقنه، البعض انهار تحت المقاعد حابساً نشيجه، كان يلاحق من يَعول بصوتٍ مسموعٍ إلى مقعدهِ ويضربهُ على أم رأسه صارخاً:

- أخرسْ حمار!

ويعود ليصبح قريباً مني في الفسحة أمام السبورة، فيتجسّد

منشورات «الفيـاء» «AlFyaa»

متحولاً إلى كائنٍ هائل الثقل، كتلةٍ من الصخرِ، صلب النظرات، صلب الحركة، صلب الأصابع، حجري الملامح، فأختض متحاشياً عينيه اللامعتين خلف زجاج نظارته الثخين، مقارناً بين قساوة الحجر ورقة أصابع "سعد"النحيفة شديدة البياض المهتزة وهو يؤشر بسبابة اليمنى إلى الكلمة، أصابه خرس فالتفتَ نحوي بعينين مستنجدتين، نهره زاعِقاً:

- عينكْ على الكتاب، أقره!

فانصاعَ مرتعداً. وبدأ القراءة، وأية قراءة! لم يضبط كلمةً واحدةً، كان يعيدها أربع أو خمس مرات حتى يضبط لفظها، لم يوقفه حتى نهاية القطعة وحينما فَرِغَ، طلبَ منهُ مغادرة مقعدنا وقال:

- أنتَ ضاعْ العدْ معكْ يا أغبى حمار في العالم!

تناوب على ضرب راحة كفيه المبسوطتين الواحدة بعد الآخر، كان يشهق غير قادرٍ على البكاء من شدة الألم، كاد أن يختنق، لاعَ رافعاً رأسه نحو السقف كمن أنقطع نفسه ثم انفجر بعويلٍ طويل وراح يتوسل أذ لم يعد بمستطاعه بسط ذراعيه، فضمهما تحت إبطيه متكتفاً وتكور غير آبهٍ بأوامر بسط الذراعين، تجنن "جبار"وانهال ضرباً على كتفيه المضمومين، على رأسه، أسفل رجيله، فأستدار المسكين من حلاوة روحه معطياً قفاه، فضربه على ظهره فأستدار ثانية ليواجه ضربات جديدة على رأسه وكتفيه، إلى أن تراجع وسقط في برميل القمامة بزاوية الصف تحتَ النافذة، في تلك اللحظة رنَّ جرس الاستراحة، فتوقف وَعَدّلَ سترته وقال:

- نكملْ بعد الاستراحة!

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

هرعتُ إليه، أسندته من تحت كتفيه، كان مهدود القوى مختنقاً يلوع، لا يستطيع البكاء من شدة الوجع، ساعدتهُ على النهوض، فوجدته قد بَالَ بسروالهِ، تَجّمَعَ التلاميذ حولنا وفي وجوههم ذعر، أحطتُهُ بذراعيَّ وخطوتُ به وهو يتلوى إلى المرافق الصحية، غسّلتُ وجهه ويديه فتمكن بعد دقائق من البكاء بكاءَ مسكينٍ يمزق القلب، عانقته رابتاً على ظهرهِ بحنان، وقدتهُ من ذراعه إلى الصفِ والجرس تعالى نذيراً مرعباً أطفأ ضجيج التلاميذ، رأيت "حامد"يركض حاملاً كتبه متجهاً نحو طرف الساحة الواسعة نادى عليَّ بصوت مذعور:

- سلوم بَطَلِتْ.. زُوُجْ اللي يبقى بالمدرسة!

من يومها ترك المدرسة، سيقتل هو الآخر في جبهة الحرب مع إيران، سيعلمني أخي الصغير في رسالة: رفيق طفولتك "حامد عزرة"أتوه به ملفوفاً بالعلم، أمهما الكادحة ماتت كمداً.

"سعد"نجح من الإعدادية بمعدلٍ ضعيف، أرسله والدهُ إلى لندن لإكمال دراسته ففشل، وعملَ سائق تكسى حتى الآن.

لم أسلم يومها، ذهبتْ ثقتي بنفسي، ارتبكتُ متعثراً، فارتكبتُ عدة أخطاء أذاقتني جحيم عصاه، عاندتُ، لم أبسطَ كفي بعد أن تورّم، فضربني بكل ناحية من جسدي.

في المساء لاحظَ أبي أثارَ الضربِ المبرحِ، فسألني عن ذنبي، شرحت له، فقهقه معلقاً دون مبالاةٍ:

- تستأهل ليش تغلط؟

لكنهُ هذه المرة هرَعَ حاملا فأسه وتوجه نحو باب البيتِ.

* * *

منشورات «الفيـاء» «AlYaa»

في الأيام التالية لذلك الصباح المرعب صرنا نرتعد من مجرد مرآه، دخل في صبيحة باردة أخرى بأناقته المعهودة، حلة رسمية، سترة سوداء وقميص ناصع البياض مشدوداً عند الرقبة بربطةِ عنقٍ سوداء، وسروال أسود أيضا.

صاح مراقب الصف:

- قيام

فنهضنا مرددين:

- صباح الخير سيدي

- جلوس

جلسنا فغمرنا صمتٌ ثقيلٌ، كان الدرس "دين"وكنا قد حفظنا العديد من آيات "جزء عمّ"المكية القصيرة ذات السجع المحبب، تفرس بنا من خلف نظارته السميكة الزجاج لدقائق بدتْ دهراً قبل أن يسأل:

- من منكم يعرف يصلي؟

لم ينبس أحدٌ بكلمةٍ.

فعلقَ: سأعلمكم الصلاة!

بدأ بشرح ماهية الصلاة ومعناها بشكلٍ مكثفٍ، كتبَ الخطوات على السبورة، المطلوب منا حفظ الشهادة فقط والتدريب على دمجها بطقس الصلاة وكنا قد حفظنا آيتي "الحمدُ"و "قل هو الله أَحد"، في اليوم الثالث أمرنا بالخروج من الصف في رتلٍ منظمٍ، قادنا حتى نهاية بناية المدرسة ليستدير إلى حديقة خلفية محصورة بين السياج الخارجي من جهة موقف

منشورات «الفيا» AlfYaa«

"العصري"وجدار الصفوف، وانهمك يعلّمنا الصلاة لساعةٍ كاملةٍ.

ما أثقل تلك الساعة؟! لم أضبطها ولا أدري لماذا؟، كان بعضنا يختلس النظر كي يعرف متى يركع، يسجد، يقوم، يبسمل، بعد مرور عشرة أيام من التعليم، طلبَ منا ممارسة الصلاة بصمتٍ أي دونَ أن نردد بصوت عالٍ الشهادة والآيتين، نؤدي الطقس مرعوبين من خطأ ما، كنتُ أحفظ الشهادة والآيات، لكن أخربط في ترتيبها لأنني أشطح بعيدا وأردد مثل ببغاء ما حفظته ولم تترتب لدي لا وقتها ولا لاحقاً؛ متى أركع، متى أسجد، متى أقف، فأختلسُ النظر لزميلي المجاور ملاحقاً حركتهِ بالركوع والسجود والنهوض، لكن في مرةٍ سهوت فتأخرت عنه بشكلٍ مفضوح أنا واثنان، أوقف الصلاة وأمرنا بالخروج بنبرةٍ اهتّزت لها أبداننا، تلفتُّ تحت غيومٍ دانيةٍ تطبق على سماءِ ذلك اليوم، الكل بركَ بصمتٍ وتحاشى النظر نحونا، ألمَّ بي الغضبُ بالرغم من خوفي، افترسني بنظراتهِ، زالت رعدتي واتتني شجاعة لا أعرف من أين؟ تنمّر وراح يدور حولنا كمن يكاد يخرج من جلده، توقف أمامي مشمراً ساعديه، قابلته بلا مبالاة وقلت مع نفسي:

- في كل الأحوال سيضربني.. سيضربني!

أقترب مني، أدنى وجهه من وجهي منحنياً ولفظ مفرداته وكأنها وَعيدٌ:

- صلِ وحدكَ بصوتٍ عالٍ!

وجدتني أجيب وفي صوتي وقاحة:

- ليشْ مو جايْ أصلي وَياهمْ.

منشورات «الفيــاء AlFiyaa»

تَجَننَ. جعلَ يدور حول نفسه. صفعني على وجهي بشدة، وَهبَّ إلى عصاه المركونة إلى الحافة السفلية لسياج المدرسة. لوحَ بها مكرراً:

- وقح.. ما مؤدب صلِ و إلا سأكسرْ العصا على راسكْ.

واجهته بلا اهتمام حابساً رعدتي الخفية الساحبة جسدي إلى حافة الانهيار، هذه التجربة ستتكرر مراراً في اعتقالاتي العديدة، فأتأرجح في كل مرة في عالمِ الرعبِ والفزعِ ذاك بين الانهيار والصمود، شرعتُ في الصلاةِ مردداً بخفوتٍ شديدٍ الشهادةَ فصرخَ بيّ بصوتٍ أقشّعر له جسدي:

- بصوت عالٍ يا وقح.. بصوت عالٍ يا حمار!

فتعالى صوتي وجلاً متردداً فاختلطتْ عليّ الصلاة وضاع ترتيب الركوع والسجود والقيام والقعود، قدمتُ وأخرتُ، أخرتُ وقدمتُ في الآياتِ، كنت أختلس النظر نحوه خطفاً، فرأيتهُ يرتعد ويهتز غضباً، انتظرَ حتى أتممتها كما عنّتْ لي، أوقفني جانباً وطلب من التلميذين الآخرين الصلاة، فعبثا بها عبثاً شديداً حتى أن بعض الطلبة أفلتوا ضحكات وكتموها، صفنا لصق جدار المدرسة. وضع العصا تحت إبطه، فركَ كفيه فركاً شديداً، أمسكها بقبضةٍ قويةٍ وطلب منا نزع سترنا الرثة وقمصاننا، ألقيتُ قميصي وسترتي على الأرض غير مهتمٍ، بدأ الضرب بقوةٍ على باطنِ أكفنا المبسوطة نحو السماء، فتصاعد بعد عبور الضربة العاشرة عويل التلميذين، لم أبكِ، كنتُ أشعر بالغضبِ والحقدِ، تمنيتُ في تلك اللحظةِ قَتله، تخيلتُ ذلك كأنني في فلمٍ، أرفع سيفي وأهوي على هامته شاطراً قسماته الصخرية قسمين. لم يعد بمستطاعنا بسط الذراعين فجعل يهوي بعصاه على

منشورات «الفـ ياء» «AlYaa»

جلودنا شبه العارية إلى أن سقط التلميذان على عشبِ الحديقةِ يتلويان ألماً، قاومتُ ضاماً كفيّ تحت إبطي متخيلاً سيفي، ومثبتاً عيني في عينيه اللتين تجننتا حتى رأيتُ الشررَ يتطاير منها؟

كان يصرخ بجنون:

- صلفْ

- كلبْ..

- ناقصْ تربية

- أمزقكَ.. أحطمكَ!

وكنت أتلقى ضرباته بجلدٍ، بقيت منتصباً، لم أنحنِ، لم أسقط على عشبِ الحديقة، أحدقُ في عينيه محتقن الوجه أكاد أنفجر إلى أن كَلَّ من الضربِ. وأمرني صارخاً:

- أغربْ عن وجهي.. أغرب!

حملتُ سترتي وقميصي، ركضتُ نحوَ المغاسلِ، ما أن دخلتها وصرتُ وحدي حتى انتحبتُ بألمٍ شاعراً بجسدي يحترق من كلِ ناحيةٍ.

في عصر ذلك اليوم المشهود هبَّ أبي من سريره وسط الحوش بعد أن عبَّ كأسه دفعةً واحدةً، حملَ الفأس وتوجه نحو مجاز البيت بعد أن أمرني:

- لا تجي وراي!

انتظرتُ قليلاً ريثما غيبتهُ عتمة المجاز، ركضتُ على أطرافِ أصابعي، لم أجده كان قد خرجَ إلى شمسِ العصرِ. قطعتُ المجاز مسرعاً، وكمنتُ خلف باب البيت الخشبي، تابعتهُ

منشورات «الفياء» «AlYaa»

وهو يقطع الشارع المكتظ بالأطفال والنسوة اللواتي يقعدن أمام بيبان بيوتهن يتفرجنَّ على المارة، مقترباً بقامتهِ القصيرةِ من باب بيت معلم "جبار"الحديدي المغلق دوماً، في اللحظةِ التي بدأ فيها بقرعِ الباب شعرتُ بنشوةٍ بالغةٍ خففتْ ألمَ جسدي الوارم، لم يَفتَح أحد، راح يضربها بخشبة الفأس ضربات شديد جعلتْ أولاد الشارع والنسوة يتجمعون حلقة كبيرة حوله. تسللتُ راكضاً لأضيع وسط الجيران والمارة المتجمهرين، لم ينفرج الباب بالرغم من أن الجميع يعلم أنه موجود في بيته بهذا الوقت من النهار، أدرك أبي أنه سوف لا يفتح الباب، ألقى خطبته عن التربية والأخلاق بصوتٍ عالٍ وهو يهز فأسه مخاطباً الجمع المتجمهر:

- ما تگلي أنتَ أشْلونْ معلمْ. تجْبرْ التلاميذْ على الصلاة، أحنه مودينْ أطفالنا لجامعْ لو لمدرسةْ، يا ذكيْ أنتَ كرّهتهمْ بالصلاةْ، راح ما يصلون بسببكْ، يا أش أگولْ عنكَ أش أگولْ. أنتَ مربي أجيالْ لو جلادْ أجيالْ.. اطلعْ.. اطلعْ إذا كنتْ رجلْ اطلعْ خلي نتفاهمْ أمامَ الجيرانْ والعالمْ.

كم شعرتُ بالفخرِ يومها، ركضتُ مسرعاً نحو بيتنا حينما رأيتهُ يصمت ويستدير عائداً بينما الجمع يتفرق.

بعد أيام أنتقل أستاذ "جبار"من البيت المقابل إلى مكان مجهول، وفي المدرسة تحاشاني تماماً، لا بل لَآنَ ولم يعد يضرب أحداً إلى أن اختفى ليحلّ محلهُ معلمٌ جديدٌ فتنفسنا الصعداء.

* * *

منشورات «الفياء» AlfYaa

التقيتُ به مرات ثلاث؛

الأولى نهاية 1972كنتُ طالباً في السادس إعدادي أتردد على مكتبة "الحكيم"الدينية وسط سوق الديوانية للمطالعة واستعارة الكتب، وقتها كان حزب البعث ضعيفاً ومحاصراً، وحزب الدعوة"في ذروة نشاطه وخصوصاً في عاشوراء إذ حوّل قسماً من مواكب العزاء إلى تظاهرات دون لطمٍ تسير مجاميع بملابسها الكاملة وتردد أناشيد تروج للفكر الشيعي، ومكتبة "الحكيم"كانت بمثابة مركز من مراكز نشاطاتهم.

في ذلك الوقت كنتُ ماركسياً متحمساً. شعلة متوقدة متمردة. قصدتها ناوياً استعارة كتاب يتهم الشيوعيين بارتكاب "مذابح الموصل وكركوك في "زمن الزعيم عبد الكريم، موثق بصور جثثٍ معلقة على الأشجار، وأخرى تسحبها الجموع بالحبال في عرض الشوارع، عازماً على إتلافه، كونه ملفقاً لتشويه نضال رفاقي، استعرته وألقيتهُ في الليلة نفسها من سياج الجسر الخشبي فابتلعه مجرى النهر والظلام. أتذكر إحساسي والكتاب يهوي من يدي؛ نشوة مطلقة وكأنني صححتُ التاريخ!

في الفسحة الكبيرة بين الباب الخارجي والداخلي التقينا وجهاً لوجهٍ فابتسم ابتسامة عريضة، بوغتُ من المفاجأةِ فتسمرتُ للحظة، ثم تمالكت نفسي وبادرته بالتحية فأجابني:

- هله بولدي سلام!

وأضاف:

- تجي للمكتبة تستعير كتب؟

نبرة صوته الجهوري نفسها أخذتني إلى ذلك الصباح البارد،

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

فاستيقظ وجع عصاه في مواضعها على جسدي، تماسكت متجاوزاً الحاجز القديم، كان بمزاج رائق:

- هل تقرأ الكتب الدينية؟

أعتقد أن عصاه هدتني إلى سبيل الإيمان وجعلتني ألجأ إلى الله والكتاب،

احتدمتُ بكل ما بيّ من تمردٍ وقلت بنبرةٍ ساخرةٍ:

- نعم أستاذ!

- عفيه أبني هذا درب الله سينير قلبك!

حينها طفح كيلي، حدقتُ في عينيه بقوة وقلت بوقاحةٍ:

- لكن لم أتعلم الصلاة أبداً ولا أريد!

تركته في ذهولٍ.

المرة الثانية 1980لم أتعرف عليه إلا بصعوبة. أشبعوني ركلاً، علقوني بالمقلوب معصوب العينين، يتدلى رأسي في الهواء، ضربوني على كعب قدميّ العاريتين ضرباً أراني الألم مُقَطَرَاً، لم أكن متلبساً بل مشتبهاً به، اعتقلتُ خطأً من بارٍ، كنت منهكاً لا أقوى على الوقوف فسحبني اثنان من تحت كتفيّ، أخطُ بساقيّ البائدتين بلاط الله حتى سمعت أزيز بابٍ حديدي يفتح ويد رفعتْ عصابة عيني ودُفعتُ إلى جوف غرفةٍ شديدة العتمة عَطِنة الرائحة، لبثتُ ساكناً أتحسس بأصابعي لحماً حاراً، لفحتني أنفاسٌ قريبةٌ، تعودت عيني على ضوء الزنزانة الشحيح فوجدتني محشوراً بين أجسادٍ هزيلةٍ رثة الملبس، صامتة تشخص نحوي في ريب وتهرب بعيونها إلى الجدران السميكة، ومشبك الحديد وخشب الباب خلفه، وفتحتي التهوية في السقف

منشورات «الفياء AlYaa»

العالي.

كنتُ خائفاً من مجهولٍ يتربص بيّ، أحلمُ برؤية الشارع والناس الذي بدا مستحيلاً بالرغم من أن لا شيء أُثْبِتَ ضدي، وندماء كأسي الذين خطفوا معي لم أرهم ما أن هبطوا بنا إلى هذا العالم السفلي، في الأيام التالية سألني البعض عن سبب القبض عليّ فأجهرت بقصتي؛

- أشرب في بارٍ مع أشخاص لا أعرفهم واعتقلت معهم!

أقولها وأبحرُ في وجوههم المحيطة بي، وجوه متشابهة بلحاهم الطويلة، وملابسهم التي تَيَبّسَ العرق والدم عليها، يصمتون طوال الوقت منشغلين بحك جلدوهم وصيد القمل من تحت الآباط وشعر العانة، يلتهمون وجبة الطعام المكونة من خبز يابس وشوربة عدس بنهم، جلود بعضهم عليها أثار تعذيب حديثة، جروح وحروق بعضها اندملت والأخرى مازالت تَنِزُّ قيحاً، وبالرغم من ضيق المكان والظلمة كانوا يضبطون أوقات الصلاة، كنت الوحيد الذي يجلس جانبا ينصت إلى لغط الآيات والأدعية، ويتأمل رجاءَ العيونِ المنكسرةِ الدامعةِ والأصواتِ المتهدجةِ، في اليوم الثالث أقترب مني أحدهم وطلب مني تقريب أذني منه ففعلتُ فضولاً، همس ما جعلني أرتد بصدري مصعوقاً:

- صحيح ما قلته لم تتعلم الصلاة!

- ...!

- الذنب ذنبي ابني سلام أنا أستاذ جبار!

أخبرني بأن قلبه رَفّ ما أن دفعوني وسطهم، لكن الظلمة

منشورات «الفياء» «AlfYaa»

وتكسّر زجاج نظارته حال دون معرفتي أول الأمر، لكن عرفني من نبرة صوتي وأنا أروي قصة اعتقالي، ثلاثة أيام قضيتها جواره لم نكف عن الحديث الخافت عن الحياة ومعانيها ومصيرنا، نشأت مودةٌ بيننا محت كل جروح الماضي، تمنى لو تغيّرت الظروف لنصبح صديقين نلتقي ونسهر، لكن في اليومِ الثالث نادوا عليّ لأُنقل إلى موقفٍ أخر ويطلق سراحي بعدها.

الثالثة والأخيرة قبل أيام: سأراجع مؤسسة الشهداء في الديوانية حول أخي الصغير الشهيد "كفاح"الذي ضاع في أقبية البعث، فرحلتُ في وجوه الشهداء اليافعة الشاخصة بعيونها الباسمة من إطارات الصور الفوتوغرافية المعلقة بجدران الممرات والغرف، اجتذبني وجهٌ أسمر فتي بنظاراتٍ طبيةٍ سمكيةٍ وعينين ضاحكتين، أمعنتُ النظر طويلاً فقام من الإطار حياً يكتب على سبورة ويهمس بأذني في عتمة الزنزانة، حالماً بالشارع والمقهى وفلسفة التسامح.

انتحبتُ بغتةً وسط الناس، فسحبني أخي الصغير من زحمةِ الممر إلى الشارعِ.

منشورات «الفياء» AlFyaa«

الفصل التاسع

الحالم

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

غالباً ما يتركني في الدكانِ وحيداً، فأبقى طوال الصباح أسير دكته العالية، أراقب بعيني ابن الثامنة الشارع العام، الذي يحفل بالقادمينَ من الريفِ، والمتصل بمداخل أزقة "الجديدة"الضيقة المؤدية إلى الجامع فعَلاوي الحنطة التي تفضي بدورها إلى السوق المسقوف.

الشارع يغلي، مزاد لبيع الحمير، قرويون يترجلون من لوريات خشبية مصطحبين نسوة هزيلات، صفراوات، رجال ينعلون حوافر الخيل، باعة متجولون، حدادون، مقاه، عربات، أقفاص عصافير، وشمس صيف لاهبة.

أحملق بالمارةِ مبحراً عن سجني بين أكداس الخشب المتراصة إلى جوانب الدكان لاعناً اللحظة التي قادتني فيها أمي ورمتني وسط هذا الضجيج قائلة لأخيها الصغير "مهدي":

- مَرْمَرني خليه يَمَّكْ بلكي يوعه لزمانه!

لم أدرك ما جنيته من ذنبٍ، سوى ارتباكي من سؤالها الصعب كلما عدتُ متأخراً إلى البيتِ:

- وين چنت؟

أصابُ بالبلهِ، فأنطوي في صمتي خائفاً، إذ لم أكن مع أحدٍ، ولم أتعود أعذاراً كاذبةً، وإذا صدقتها الإجابة سوف تكذبني، فغالباً ما تأسرني أشياء غريبة، تنسيني نفسي والبيت والوقت، يشغلني مصير طائر يحلق في السماء، أو نملة تلج ثقباً في الأرض، أو اهتزاز سعف نخلة. فأرحل مع الطائر إلى البعيد، وأدخل مع النملةِ إلى ثقب الأرض، ويخدرني اهتزاز السعف وأفياء البساتين.

منشورات «الفياء» AlFyaa«

- وين چنت؟ جاوبْ!

- .....

- شبيك أخرس؟

أخرس، أخرس، تخرسني شبابيك البيوت، وما تزخر به من دفءٍ وأسرارٍ، فأخلد إزاءها ساعات، أتخيلها تجنبني كف أبي، ونواح أمي على حظها العاثر، وزحمة غرفتنا المكتظة بعشرة أنفار، أيأس في صمتٍ، وأبددُ قنوطي بالتيهانِ في برارٍ شاسعةٍ تحيط بالمدينةِ، ألاحقُ عصافيرَ برية تدور حولي، أجولُ بين سواقي الحقول، أجمع أعشاب الريحان والخباز، وأسكن مسحوراً بزرقة السماء، إلى أن يوقظني الجوع وغياب الشمس، فأهرع فزعاً إلى المدينة، مرة أخرى أكون قد تأخرتُ عن موعد العشاء، أو قضاء حاجة أرسلوني من أجلها، فأتسلل خلسةً إلى باحةِ الدارِ ميت الأطرافِ، لتستقبلني أمي بوجهها العاصف وسؤالها المريع:

- وين چنت؟

المحنة اليومية نفسها، إيغالي بالصمتِ يزيد غضبها، ويجعلها تنقضُ عليّ بصفعاتٍ تصيرني أكثر عناداً، وأشدّدَ تعلقاً بأحلامي، فألوذ لصق الجدارِ باكياً بخفوت من يشعر بأنهُ مظلوم والآخرون مذنبون بحقه، ظللتُ هكذا إلى أن سمعتها في ليلةٍ صيفيةٍ ساطعةِ النجومِ تهمس لأبي:

- أش لون بسلام؟

- خير؟

- خايفه عليه، يطلعْ للشارعْ ويغيبْ ساعاتْ طويلةْ، اطلعْ

منشورات «الفيا» «AlYaa»

أدورْ عليه ما له أثرْ!

- وين يروح؟

- ما ادري، أسأله يسكتْ، أشبعه ضرب يظلْ ساكتْ!

- والحل؟

- بالعطلة لازم ما يبقى بالشارع!

تصمت قليلاً، ثم تقترح:

- ما تخليه عندك بالدكان؟!

- لا.. ما أريده يتعلم أشياء موزينة!

يصمت بدوره لحظةً ثم يهمس:

- خليه عند أخوچ "مهدي"دكانه بعيد بالـگرفت، بطرف "الجديدة"!

في الصبيحةِ التاليةِ قادتني من يدي وسلمتني إلى خالي بهذا الدكان الصغير الموحش، حيث يتركني فيه يومياً ليذهب حاملاً أدوات عمله في حقيبةٍ من القماش، فأبقى شارداً ضجراً محاصراً بالجدران إلى أن فُتِحَ لي باب سري إلى مباهج المكان المحيط بيّ.

* * *

حدثَ ذلك صدفةً، شأن الكثير من الأشياءِ، فأخذتني أحلام من نوعٍ آخر، أكثر جنوناً وحلاوة، أوحشني صمت الخشب. خنقتني نشارته، ووحدتي وسط ضجيج الشارع، فانسللتُ تائقاً لمعرفةِ ما يدور حولي في الأزقة القريبة. احتوتني رطوبتها وبيوتها

منشورات «الفـياء» «AlYaa»

القديمة المتعانقة الشرفات، وأفياؤها الباردة. توغلتُ متأملاً جدراناً شائخه، وأبواباً خشبية مقوسة، وسلالم حجرية تصعد إلى عتبات عالية وأخرى تنزل إلى باحات فسيحة، وفي ظلال تزهر بصبية حفاة يلعبون، تنفستُ بعمق هواء خالياً من رائحة الخشب، وفي قاع زقاق لا مخرج له، حدثت تلك الصدفة، رمتني صبية بيضاء فأسرتني، رمتني من بين أهدابٍ سوداء مقوسة إلى أعلى وأسفل قليلاً، بنظرةٍ ناعسةٍ من عينين بنيتين كأنهما تهمان بالبكاء، انجذبتُ نحوهما، قرفصتُ أمامهما مفتوناً مستكيناً، يفصل بيننا قدر باقلاء وحفنة صمت. ثغرها البالغ الصغر انفرج عن صف أسنان منضودة بدقة. انهمكتْ كفاها الناعمتان بكيل حبوب الباقلاء. تدلتْ خصلة بحلكةِ أدكنِ ليلٍ، وتأرجحتْ حاجبةً عينيها. ردتها بنفضةٍ أفزعتني. مدتْ ذراعها العارية اللدنة، ووضعتْ الصحنَ المليء أمامي. تاهتْ عيناي، واختفت أصابعي في الترابِ وهي تفتش عن الصحنِ، شملتني بنظرةٍ ماكرةٍ، كانتْ تكبرني قليلاً، رأيتُ في لمعةِ عينيها الصافيتين بلل الأزقة، ولعب الصبيان، والجدران القديمة، والفيء وذهول وجهي.

- يا... يا.. شبيكْ؟

انبعثَ من صوتها الهامسِ باضطرابٍ، طيبٌ غريب الرائحةِ، ملأ نفسي بخلاصةِ أعشابٍ بريةٍ، رافقني عطرها إلى هذه اللحظة، أكلتُ صحناً وثانياً وثالثاً حتى نَفَدَ ما لدي من نقودٍ، ورابطتُ حولها، أَلعبُ مع الصبيةِ، وعيناي مشدوهتان بين اللعب وبلل سماوات عينيها الموشكتين على البكاء. نسيتُ الدكان وخالي والدنيا، ولم ينتزعني من استغراقي إلا صوت "الله أكبر"يؤذن لصلاة الظهر، فزلزلَ بيَّ الأرض، تجمدتُ لحظةً

منشورات «الفيـاء» «AlFyaa

ملتصقاً بالجدار، قبل أن أنطلق راكضاً بجنون، وعيناها المتسائلتان تغيبان في خوفي.. و يا لتلك المسافة بين قاع أحلامي ودكان خالي، وما ينتابني فيها من أحاسيس فظيعة، لم أشعر بمثيلٍ لها إلا حينما تولهتُ بأحلام السياسة فذقت ذل الزنازين وقسوة الجلاد، بلغتُ الدكان لاهث الأنفاس فطالعني خالي مكفهراً، وألقى السؤال المخيف ذاته:

- وين چنت؟

ويـ...ن ....، ويـــ...ن .. كـ.. نـــ.. تـــ.. و... يـــ... أطفأت ضجيجَ الشارع في روحي، وجعلت رأسي يصفر بفراغِ الصمت الذي يسبق الصفعة العاصفة، لذتُ خلفَ خزانةٍ خشبيةٍ، انتحبُ بخفوتٍ وأحلم بالاختباءِ خلفَ حيطان قديمة تستدير بقيعان عيون سماوات بنية، وبين أصابعي وردة.

* * *

في الصبيحةِ التاليةِ كانتْ وردة تعطر طيات جيبي، غادرني مكفهراً، مكرراً تهديدات باقتلاع أذنيَّ إذا تركت الدكان. لم يكد يختفي في الضجيجِ حتى حوصرتُ بصمتِ الخشبِ الميتِ، وسكونِ الجدرانِ، ونداءات الباعةِ، ووقعِ حوافر الخيل، ووجوه القرويات الشاحبة المترجلات، الصاعدات، من وإلى لوريات خشبية تذهب وتجيء. ضاقتْ أنفاسي، فانسللتُ إلى عمقِ الأزقةِ ناوياً رؤيتها وإعطاءها وردة.

- دقائق وأعود!

قلت لنفسي، وأنا أقترب من مدخل زقاقها العتيق، وعندما انزلقتُ إلى قاعهِ المسحورِ، انزويتُ في أفياءِ عينيها الموشكتين

منشورات «الفيـاء» «AlFyaa

على البكاءِ.

- يا... يا... أش بيك؟

قالتها، بغنج صبية أدركت معنى الصمت في عيني الحالمتين، المختلفتين، الضائعتين بين خشب الأبواب المتداعية، ومقابضها الحديدية الصدئة، وأقواس الشبابيك المتقابلة الغارقة في قعرها البعيد. اقتربتُ وابتعدتُ، عزمتُ وترددتُ، وأصابعي تلتفُ حول عنق الوردة النائمة في جيبي، تلكأتُ محتدماً بهواجسي. عزمتُ فدنوت، كدت ألاصقها، خدرني عطرها الخفي، فأخرجت بعناء كفي المنتفضة، ورميتُ الوردةَ إلى حضنها. أسرعتُ خافق القلب مبتعداً، التفتُ.. كانت تشم وردتي وعيناها تفيضان بدفقٍ هادئ أغرقني، فبقيتُ راقداً بالودادِ المائجِ في نهرِ بشرتها البيضاء، ولم أصحُ إلا و"الله أكبر"تصب نيران جهنم على رأسي، لتحيل هناءتي فحماً. هببتُ مرتعداً من انخساف العالم بي. جريتُ مذعوراً. استقبلني خالي على الرصيف ممسكاً عصا غليظة، أربد وأرعد زافراً حريق السؤال:

- وين چنت؟

المحنة نفسها، لعثمة وصمت، ثم أضلاعي المتورمة، وخلف الخشب أنشج، وتتراءى لي في غشاوة الدمع الرقيقة، ذات العينين البنيتين تشم وردتي، وترش فيض رذاذها الناعم على ثيابي.

لم أكف عن الانسلال الهادئ وفي جيبي وردة... وعودتي اللاهثة وفي روحي هول.

في آخر مرة قابلَ اضطرابي ولهاثي دون اكتراثٍ، انتظرتُ ريثما أتمَ نشر قطعة الخشبِ، أسندها إلى الحائطِ، التفتَ إليّ،

منشورات «الفـياء» AlfYaa»

تأملني طويلاً، ثم أقفل الدكان، وقادني بصمت متوتر إلى أمي، سلمها ذراعي قائلاً بصوت أسفٍ:

- ابنك لا يصلح لشيء!

كم أشعرتني جملته بالضعفِ، فبتُ غير واثقٍ من نفسي إلى فترةٍ متقدمةٍ من عمري، لم تعلق أمي بشيء، استدارَ بقامتهِ الفارعةِ المشدودةِ ليغيب في أفقِ الشارعِ، رمتني طويلاً بعينين شارفتا على البكاءِ، وتحسرتْ بألم.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الفصل العاشر

سحر السينما

منشورات «ألف ياء» «AlifYaa»

أركبني أمامه على دراجته الهوائية وقادها باتجاه المدينة، كنتُ أتَلَفّت مُلاحِقاً بعينين كسيرتين رفاق طفولتي وزملائي في المدرسةِ يلعبون وسط شارعنا الترابي العريض راكضين خلف كرة من البلاستك، أَتَلَفّت وقلبي يهبط إلى قدميّ المتدليتين بشكل جانبي والمحصورتين بساقيه القويتين المنهمكتين في تحريك

الدواستين، وكأنهُ يذهب بي إلى الجحيم.

ظللتُ محاصراً منذ اللحظة التي أعادني بها خالي إلى أمي بعد أن يئس من لامبالاتي وشرودي وتركي دكانه، بتُ أُحَاسَبْ على كل دقيقةٍ أقضيها في الشارعِ، وأشعر طوال الوقت بأمي تراقبني أثناء اللعب، فكلما ابتعدتُ عن شارعنا، ارتدت عباءتها ولحقت بيّ دون أمهات رفاقي، كنتُ أتضايق وأعود صاغراً معها أول الأمر، ثم عدتُ أعاند أو أهرب بعيداً إلى الشوارع المجاورة كي لا تعثر عليّ، فتخبره في المساء قبل أن يبدأ الشرب، لِأَنال عقابي؛ ضرباً بالعصا على ظهري وساقي وذراعي يجعلني ألوذُ بجدار الغرفةِ باكياً.

ابتعدنا عن شارع أحلامي، لندخل شوارع مكتظة بعربات تجرها حمير وخيول، وسيارات خشبية قديمة، وباعة متجولين يحملون الصواني على رؤوسهم منادين ببضائعهم، وجِمَال محملة بأكياس القمح. كان يتفادى بدراجته المارة والعربات والحيوانات ببراعة، وكنتُ مذهولاً بالضجيج والزحام، أتخيل المكان الذي يقودني إليه، إذ سمعتهم البارحة يتحاوران وهما في سرير النوم وسط باحة الدار الكبيرة. كنتُ تحت الغطاء أتصنع النوم وأمي تقول:

- أبو سلام ليش تضربه على رأسه، ألف مرة گلتْ لكْ لا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

تضربه على رأسه، كافي ضربْ ما دام صارْ يومية معناه ما ينْفَعْ!

- شنو المطلوب مني؟

- لازمْ تِلگي حلّْ، سلام حلو وما يبقى بالشارعْ والمنطقة لَمْلّومْ!

- يعنى وَينْ أوديه؟

- أخذه بالدكانْ يمّكْ عَلِّمه النِجارةْ!

- لا..لا يا أمْ سَلامْ لا.. أولاً ما أريدْ يعيشْ عُمْرَه بمِهْنَة مُتعِبة هذا واحدْ، واثنينْ يَمّي أَشْكالْ وأَلوانْ مِنْ البَشَرْ، يرْوحْ يِفْسَدْ!

وَسادَ صمتٌ جعلني أسمع حفيف النجوم المدلاة دانيةً من وجهي الذي أظهرتهُ من تحت الغطاء منتظراً بلهفةٍ تقريرَ مصيري.

- المشكلة "سلام"طيبْ القلبْ.. فَقيرْ يَصدگ بكلْ شيْ!. والأكبرْ منه بالشارِعْ اللي ما نعرفْ أَصلهُمْ وَفَصلهُمْ راحْ ما يتركوه!

- والحَلْ؟

طالَ الصمتُ هذه المرة فَجَمَدَني تماماً. تحولتُ إلى كيانٍ من سمعٍ أَماتَ صوت الليل والنجوم والحفيف وأصوات الجيران الخافِتة، مُجَسِماً ما يصدر من زفراتٍ وآهاتٍ ضعيفةٍ تأتي من سريرهم تبعها صوتُ أمي واضحاً وحاسماً:

- مو أنتَ گلتْ: كلْ مثقفي المدينة وشخصياتها يلتقون بدكان "خليل".

منشورات «الفيحاء» AlFyaa«

- صحيح كل أكابر المدينة تحلّقْ عنده!

- خليه عنده!

- خوش فكرة بكرى أخذه، حتى نطمئن وينزاح الهمّْ!

ليلتها مادت بيّ الأفكار والأحاسيس المتناقضة بين رغبتي الشديدة بالبقاءِ حراً للعب في الشارع، وفضول لمعرفة وسط المدينة.

في الواقع لا خيار لي ولا أحد يسمع ما أقول كحال أي طفل عراقي، ما عليه سوى التنفيذ وإلا ستكون العصا أو النعال أو الكف جاهزة للسع جلده.

أقبلنا من عمقِ شارع علاوي الحنطة نحو الجسر الخشبي القديم، عبرناه إلى مدخل شارع الأطباء، قطع قرابة عشرين متراً أو أقل، أوقفَ دراجته مستنداً بقدمه اليمنى على حافةِ الرصيفِ العالي وأمرني:

- أنزل!

لم يترجل، بل نادى بصوته القوي:

- خليل.. خليل!

فظهر "عمي"من باب الدكان وبيده المشط والمقص، أكملَ أبي:

- هذا سلام ديرْ بالكْ عليه!

قالها واندفعَ بدراجتهِ إلى دكانهِ في الفرع القريب، ناداني:

- تعالْ!

منشورات «الفياء» «AlYaa»

جلستُ في زاويةِ المحل مذهولاً من هيأتي المعكوسة في المرايا المعلقة على جدرانه الثلاثة ما عدا الواجهة الزجاجية الشفافة. أَنصِتُ لوقع صوت المقص الرتيب وضجيج الشارع متسائلاً:

- ماذا عليّ فعله؟

ما أن فرغ المحل من الزبائنِ، حتى لخّصَ لي مهامي بعباراتٍ قليلةٍ، فهمتُ منها؛ أن أكون خادماً للجميع، أجلب طلبات "عمي"والزبائن وأكنسْ الشعر المتساقط، وأنظف أدوات الحلاقة، أقول نعيماً لمن يكمل الحلاقة، أمسح بِوَزْرةٍ كتفَه من الشعر العالق، قد يعطيني "حلاوة"وهذا ما يحصل غالباً، قطعة نقد صغيرة من فئة الخمسة فلوس أو العشرة، وأحرس المحل في غيابه.

في ظهيرة ذلك اليوم القائظ تركني وحيداً، نظفتُ المحل وجلستُ على كرسي الحلاقة وأطلتُ النظر في وجهي المعكوس في عمقها، هذه عادة ستلازمني بقية العمر؛ حملقة فارغة بقسماتي في المرآة كأنني أنظر نحو وجه غريب، أدرت الكرسي الدوار ورحت أتأمل المارة في الشارع المكتظ بالعربات والسيارات القديمة المتهالكة، وحركة الناس التي لا تهدأ لحظةً واحدةً. أخرجتُ كرسياً إلى ناصيةِ الشارع، ورحتُ أتتبع مسحوراً حركة أجساد البشر المقبلين المدبرين، الدكاكين، الفيء المنحسر نحو الجدران. وجوه لا أعرفها، وجوه كأنها طلاسم، تبتسم لي، تمازحني، تعرفني دون أن أعرفها، عشرات منها تقترب وتبتسم وتقول:

- أنت "سلام"أبن أخو خليل!

منشورات «الفـيـاء» AlFyaa«

أقابلها بابتسامةٍ بلهاء دون أن أقول شيئاً، كل وجهٍ، وكل دكانٍ، وكل حركةٍ ستنكشف لي لاحقاً عن أسرار وتفاصيل دفعتني دفعاً عنيفاً وسريعاً إلى ناصية وعيٍ مبكرٍ بددَ براءة الطفل فيَّ.

المحل يقع وسط أكثر الأماكن حيوية في "الديوانية"التي كانت صغيرة وقتها أوائل ستينيات القرن الماضي، لا يبعد عن الجسر سوى أمتار معدودة، على الرصيف المقابل مقهى "اللواء"من أكبر مقاهي المدينة، روادها معلمون وموظفون وتجار، ومن تلك النافذة الواسعة ولجتُ باطنها فرأيتُ عهرها وشرفها، تزمتها وانفلاتها، كان كل شيء يمر أمام عيني وسمعي وشمي ولمسي وأنا جالس في دكان عمي.

عالمٌ متسعٌ انفتحَ أمامي فنفذتُ إلى أسرارٍ قلبتْ مفاهيمي عن المحيطِ والبشرِ والدنيا فاختلفتْ رؤيتي للحياة.

أول تلك الأسرار هي السينما، كانت سينما الجهورية الصيفي قريبة، تقع على شاطئ النهر في الشارع المقابل مالكها "حمد البو جمعة،"عمي يحلقه، وأقوم بخدمته، ابنه "سعد"زميلي سردتُ محنته مع أستاذ "جبار"يجلس جواري على مقعد الدرس كما بينت، هذا ما وفّر لي دخول صالة العرض مجاناً كل ليلة، شاهدتُ أفلاماً عربية وأجنبية حلَّقتْ بيَّ بعيداً صوبَ أحلامٍ مستحيلةٍ، عمقتْ شرودي وجعلتْني ساهياً منفصلاً عن المحيط، أعيش مع فريد شوقي، ومحمود المليجي، وعمر الشريف وفاتن حمامة، وهند رستم، وهرقل الجبار، وسبارتكوس، وهرقل، وطرزان، أتقمص الشخصيات وأنسج مساراً مختلفاً للأحداث، فدخلتُ في مشاكل لا حصرَ لها، أصبحتُ مشوشاً أنسى ما بعثوني لأجله، أو يضيعني حلم الشاشة البيضاء فأتأخر أو أعيش

منشورات «الفيـاء» AlFyaa

وأنا جالسٌ وسط الزبائن مع أحداث فِلْمٍ رأيته البارحة، فلا أسمع ما يُطْلَبْ مني، شبعتُ زجراً وتأنيباً، كان "عمي"ينعتني بقبيح الألفاظ ولكثرة ما يعيدها لم تعد تهمني:

- غبي، أثول، مطي، أطرش، أعمى، حمار!

وغيرها من قاموس الآباء والأعمام والأخوال ومعلمي المدارس الثري في باب تحقير الطفل، عدا الصفعات والركلات حال خلو المحل من الزبائن، لكن كل هذا "حلاوة"على حد تعبير العراقي، بالمقارنة مع محنة السينما كل ليلة، ففي المساء حينما يعتقني وأتوجه نحو البيت، ما أن أعبر الجسر الخشبي القديم وأصبح أمام بناية المحكمة القديمة حتى تجتذبني أضواء سينما "الجمهورية"الشتوي المشعة في عمق الشارع، فأحثُ الخطى صوبها ناسياً رعدة هلع الأمس التي تلازمني حال انتهاء العرض وذهاب نشوة الفلم، فأهرول خافق القلب إلى بيتنا البعيد، أكيل اللوم لنفسي العنيدة المنقادة لسحر السينما كل ليلة، فأحاصَرْ بوجه أبي المحتقن وعصاه الغليظة. فلم عنف واقعي يتكرر ويسقط بيّ من رحاب رحلتي الخيالية، مكسراً الأجنحة التي حلقت بها في سماء زرقاء تنبسط تحتها حقول خضراء وأنهار وتلال وأرياف ساكنة ووجوه وقصص حب عنيفة متدفقة في نهرٍ من النورِ يمر أمام عيون المشاهدين المسحورين الصامتين، تضج غرفة البيت الوحيدة بصراخه، تموت أطرافي وهو يتناول عصاه الغليظة المخبأة تحت الوسادة وينهال عليّ ضرباً، كان ذلك غير مفهوم بالنسبة لي، أجده سلوكاً أحمق، لكن سأدرك حينما أصبحت أباً، أية هواجس ومخاوف ينبعثُ منها صياح أب مرعوب من ابنٍ عنيد، يتأخر كل ليلة ساعاتٍ ثلاث بمسافة لا تتطلب أكثر من عشرين دقيقة ضارباً الوصايا والنصائح

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

بعرض الحائط، كنتُ أتلقى لسع العصا المبرح متسائلاً مع نفسي:

- لِمَ يا ربي لِمَ؟

* * *

حاولتُ وَلمْ أستطع، حاولتُ وحاولت دون جدوى، ماذا أفعل لنفسي؟ قوةٌ مجنونةٌ تجذبني بالرغم من عزمي الشديد على عدم عبور الباب العريضة المفتوحة المضيئة بالصور والوجوه والمجسمات في إعلاناتٍ تزين جدران المدخل والواجهات، حسناوات يقطرن حلاوة، مسدسات تدور بين الأصابع، حقول مشتعلة بالخضرة تعانق الأفق، عشاق يتعانقون في الخلوات، دخان معارك، وغابات وأغاني ومعارك بالسيوف، بالدبابات. بابٌ يؤدي إلى ظلمةٍ وعالمٍ يجعلني أحلم لأيام وليالٍ، عالمٌ ساحرٌ ينسيني عقاب الأمس، يتداخل مع عالم دكان الحلاقة الساحر الذي يلقيني آخر النهار مخدراً بقصص المدينة وما يحدث في الخفاءِ، أهوال أسمعها من أفواه الزبائن.

أنسى كل شيء وأجدني أخطو لتحتويني الباحة المضيئة وصوت أم كلثوم الصادح قبيل العرض، أسير على مهلٍ نحو بوابةِ الصالةِ مخدراً بروائح السينما وعيون الممثلين المحدقة نحوي والمنبثقة من خلف زجاج صناديق العرض الدعائية التي تملأ الباحة العريضة. لا أحتاج إلى قطع تذكرة، فجميع العاملين يعرفونني فقد أوصاهم "حمد"صاحب السينما وهو يقودني من يدي ويطلقني في فضاء صالة العرض قائلا للبواب "حسين":

- سلام يدخل، وقت ما يريد، مفهوم!

منشورات «الفيـاء» «AlFyaa»

- صار عمي.

عبرتُ العتبة. تلمستُ أقرب كرسي وجلست، فالصالة أعتمت حال دخولي، لأغوص في بحر الشاشة الغاصة ببشرٍ يبغون مقاصدهم، يحبون ويتباغضون، يولدون ويموتون في الحقولِ، على ضفافِ الأنهار، في الأحياءِ الفقيرةِ، في الثلجِ، والحرّ والجبال وعلى البغال، في الحرب والسلام. أغوص حالماً وكأنني أعيش معهم إلى لحظة انفجار الضوء الصلد المعلن نهاية العرض، الضوء الطارد أحلام المخيلة، الكاشف كذبة حائط القماش الأبيض المؤطر بحاشية سوداء رفيعة. الضوء الملعون الذي يدفعني إلى الممر الذي يرتفع حتى باب الخروج، إلى الرعدة، إلى رعبٍ مركّبٍ من مخاوف وتحذيرات أمي وأبي من رجالٍ كبار قد يسخّمونَ وجهي. أهرع حذراً متوجساً أبتعد عن رواد السينما، أسلكُ فروعاً تفضي بي إلى منافذ يسكنها الظلام والصمت وظلال مصابيح أعمدة عالية باهتة الإضاءة، أعيش هذه المخاوف طوال الطريق الممتد حتى شارعنا. وما أن أطأ بقدميّ المرتعدتين ترابه حتى تهجم عليّ مخاوف مختلفة، مخاوف كل ليلة تزداد وتتوحش كلما اقتربتُ من باب دارنا الخشبي العتيق الواطئ، فخلفهُ تكمن محنة الليلة، سيستيقظ أبي رغم سكره، سيحتد غضباً، سيخرج عصاه من مخبئها، ستلسعني ضرباته الكاوية، التي تشتد كلما أمعنتُ بصمتي، إذ لم يعد يصدق بأني كل ليلة أتأخر بسبب السينما كما أدعي، بات عذري يُسَعِّرْ غضبه فيشدد ضرباته مكرراً:

- وين چنتْ، كل ليلة تتأخر، هم گول بالسينما.. گول يا أبن الكلب.. گُولْ؟!

- ...!

منشورات «الفباء» «AlifYaa»

ماذا سأقول.. ماذا وهو سلفاً لا يصدق المكان الذي كنتُ فيه؟

وقفتُ طويلاً تلكَ الليلة في سكونِ الشارعِ أمام بابنا المسدود، كان الشهر رمضان وجارنا نائب الضباط الورع "أبو محمد"بدأ بصوته الرخيم يردد أدعية انسابتْ في العتمة والسكون صاعدة نحو مصابيح السماء وروحي، أدعيةً جعلتني ألبثُ في وقفتي أمام الباب متخيلاً وجهه بلحيته الشيباء وقسماته المسالمة، وعينيه الحزينتين المناقضتين لعيني أبي الجاحظتين، الواسعتين، اللتين تقدحان ناراً عند الغضب. صوته الخاشع هدّأ قلبي وجعلني أختصر المحنة ولا أبالي بشيء، وكان تلك الليلة أول بادرة لتمردي اللاحق الذي قادني من تشرد إلى تشرد حتى وجدت نفسي في بقعة أرض غريبة تجاور القطب دون أهلي وأحبابي وأمكنتي الحارة، فكرتُ وأنا أتأرجح على حافةِ الغفوةِ من تعب النهار الطويل:

- ما حاجتي إلى الدخول، فالليلة صيفية رائقة، سوف يستيقظ أبي حتماً ويذيقني عصاه في غرفتنا الوحيدة كي لا يوقظ أخوتي، وستنقذني أمي في آخر لحظة، سوف لا يفهم أبداً سحر الشاشة البيضاء ولا يصدق أنها تجذبني كل ليلة، لا يصدق وأنا لم أعد أستطيع التحمل!

تحسستُ ظهري المتورم من عقوبةِ الأمس، ورجعتُ من حيث أتيت مفتشاً عن موضعٍ صالحٍ للنومِ. في منحدر جوار فلكة مدورة بمدخل الحي ينتهي عندها التبليط وقتها وجدت فراشاً ترابياً ناعماً أسفل المنحدر. سويت مكانا بكفيّ يسع لطولي واستلقيتُ محدقاً بالنجومِ المنثورةِ بكثافة في عمق السواد العظيم، وعلى إيقاع غمزات مصابيح الله غفوت حالماً بـ"عنتر بن شداد"يخوض الصعاب والحروب في تيه الصحراء ويقتل

منشورات «الفيـاء» AlFyaa«

أشرس الأعداء لينال حبيبته "عبلة"الضاحكة دوماً. كانتْ لحظةً فريدةً لن أنساها طوال العمر، لذة ما بعدها لذة، النوم في سريرٍ من تراب دون عصا، دون تقريع وإذلال، حتى الآن لم أجد فراشاً أنعم من ذلك الفراش المبذول، ولم أجد لذةً كلذةِ تلك الغفوة في شارع ومنحدرٍ يشكل ما يشبه المخبأ، ترابٌ ناعمٌ وأحلامٌ وخيالٌ وغفوةٌ لا مبالية كانت عتبة لحياة المغامرة والتشرد التي خضتها لاحقاً.

كأنني في حلمٍ انحنتْ على غفوتي امرأةٌ جليلةٌ بثيابها السوداء ورائحتها الأليفة المسكرة، جعلت تربت على خدي بأصابعها الحانية ربتاً رفيقاً، ثم هزتني من كتفي وهي تنادي همساً في الظلمةِ والسكونِ:

- يمه.. يمه، أگعد.. ليش نايم هنا، ما عندك بيتْ.. ليش؟

كتائهٍ في قفرٍ موحشٍ شديد الوطأة ارتميتُ بين اليقظة والمنام إلى حضنها، غاطاً في عبق رائحتها المعجونة بكياني، تعلقتُ برقبتها باكياً، أردد مفردة واحدة بمرارة:

- يمه.. يمه!

أرددها مختنقاً بعبراتي. أتذكر بوضوح عباءتها شديدة السواد التي لفتني فيها، فشعرتُ وكأنني طيرٌ ضائعٌ وجد ملاذه، أتذكر شكل السماء الضاحكة النجوم قبيل الالتئام بحضنها ودفق الأمان من كلامها الرقيق.

الشيء الذي استوقفني وكان مفتاحاً حرضني على الثورة والتمرد هو رد فعلهم الضعيف على ترك البيت والنوم في الشارع، ردة فعل لا تتناسب مع تقاليد العائلة الصارمة، بالعكس فبدلا من التقريع واللوم والشدة وجدتُ رقةً وتوسلاً وحنواً:

منشورات «الف ياء» «AlfYaa»

- تعال يمه.. تعال!

تمنعتُ على مقربة من الباب متخيلا أبي يقف منتظراً بعصاه فقلت لها متوسلاً:

- يمه أخاف، اتركيني أنام بالشارع!

- لا تخاف يمه.. أبوك يحبك ويخاف عليك، ما راح يضربك!

سحبتني. سرتُ بعناء. أكاد أتهاوى من شدّة النعاس.

كم بَحَثَت في الزوايا والبيوت والشوارع المجاورة حتى عثرت عليّ؟

حينها اكتشفتُ مبلغ ضعف الأب والأم إزاء مظاهر التمرد التي يبديها طفلهم، فعند دخولنا ساحة البيت تَصَنّعَ أبي النوم فتعالى شخيره. قادتني إلى فراشي المبسوط جنب أخوتي وأخواتي. دثرتني بغطاء خفيف وأسرت بأذني بهمس:

- لا تخف، نم ابني نم، أبوك نايم!

لم أنم، لبثتُ أتتبعها وهي تندس جواره، أرهفتُ السمع، كان الصمت مطبقاً، وفيما كنت أشرع في النوم سمعتُ أبي يسألها:

- وين لگيتيه؟

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

الفصل الحادي عشر

صبي الظهيرة

منشورات «ألف ياء» «AlifYaa»

أتاني العالم من داخلِ المحل المكتظ طوال النهار، فتعرفتُ على خفايا المدينة، سمعتُ قصصاً وحكاياتٍ غريبة عجيبة عما يحدث فيها سراً وعلناً، لازلتُ أتحسس طعمها ورسمها في مخيلتي وأتذكر تفاصيلها مثل روايةٍ لا تنسى أو حلمٍ لا يتبدد.

جعلتني تلك الروايات أرى المدينةَ كساحةِ صراعٍ غير مرئي، فثمة قتل واغتصاب واحتيال، وسخرية، وخيانات، عالم سري بذيء كنت أسمعه من أفواه الزبائن. كان عمي يَقْلِبُ المأساة إلى حكاية ساخرة أو نكتة تجعلهم ينفجرون ضحكاً، ظللتُ مسحوراً تشْتعلُ مخيلتي كل يوم بقصصٍ جديدةٍ، متنوعةٍ تكشف لي أشياء لا أعرفها، كانوا يتكلمون بكل شيء غير منتبهين للخادم الصغير المنسي الذين لا يتذكرونه إلا حينما يعطشون أو يريدون شيئاً، كنتُ أخزّن الحكايات والوجوه من عمق المرايا المعلقة، متفحصاً قسماتها المنفعلة أثناء الروي والإصغاء دون الحاجة إلى التحديق المباشر.

كان وقت الظهيرة أشّد الأوقات إزعاجاً، وخصوصاً في الصيف، إذ يختفي "عمي"لا أدري أين؟، فأبقى حبيس المحل حتى العصر، وقبيل المساء يتحول الدكان إلى نادٍ للضحكِ، يجتمع فيه رواة النكت وَخالِقوها في المدينة، "جعفر"كاتب طابعة في الري، "علي جاسم الحمد"موظف في البريد وشاعر شعبي، ويأتي أحياناً "سيد بدر"بعمامته الخضراء وملابسه السوداء الفضفاضة، يخفي في جيب بدلته الداخلي زجاجة عرق صغيرة مفلطحة، و"حسين شاني"الأسمر الضخم الطويل صاحب الصوت المميز والضحكة العاصفة، والعديد ممن لا أتذكر أسمائهم الآن. أما بعد الثامنة مساءً فتسدل الستائر على الواجهةِ الأمامية، ويبدؤون في الشربِ ورواية النكات البذيئة

منشورات «الفيا» AlYaa«

جداً الأكثر إثارةً للضحك،

في الأيام الأولى كانتْ مهمتي تقتصر على توفير مستلزمات الجلسة والذهاب، لكن مع تعودهم على وجودي حيث كنت أتصنع البلاهة وعدم الفهم حتى أنّي لا أضحك إلا نادراً، مما جعلهم يستطيبون حضوري خادماً يوفر طلبات جلسة السمر الليلية؛ أجلب قناني العرق المسيّح من دكان "كامل حنا"بائع الخمور المجاور لدكان والدي. أشتري المزة؛ ليمون، باقلاء مسلوقة، حمص مسلوق، تفاح، زيتون، طرشي، سلاطة، حينما يكملون شربهم ويشبعون ضحكاً يتوجب عليَّ الذهاب إلى مطعمٍ قريب لجلب العشاء، وهذا حرمني من السينما في دورها الأخير الذي يبدأ في الثامنة.

أمسى تأخري ضرورياً، إذ يوفر لهم جلسة مستمرة، ومن هنا بدأت النكات والقصص تفتح لي عالم الكبار، كيف يفكرون، كيف يتصرفون، كيف ينظرون إلى الجنس المحور الجوهري لقصصهم وأحاديثهم. أسرار.. وأسرار قَلَبَتْ الحياة بنظري رأساً على عقب، فعدتُ أرى ما تحت الظاهر علاقات سرية تناقض المرئي تجري في الخفاء حيث لا أحد يرى أو يسمع، تشابك جعل من الجسد طلسماً معقداً ساحراً، نبعاً أبدياً لا تنضبُ أسراره، فَحَولَهُ تدور النكات والقصص، والأعضاء الحميمة التي لم أسمع اسمها في البيت صارت تلعب على الشفاه بأشكال وترتيب يختلف في كل نكتة أو حكاية فتجلب ضحكاً صاخباً مسكراً يهز الأبدان حتى تكاد تسقط من كراسيها وأحياناً تقع على بلاط الدكان، تفتّحت عيني، بتُ أشك بما يدور حولي، مثل من أمسكَ بمفتاحِ عالمٍ خفي يحيط بيّ دون أن أراه، سأخبركم كيف، أسمعوا هذه القصة:

منشورات «الفياء» AlFyaa

كما أسلفتُ كان يتركني وقت الظهيرة وحيداً، وبدلاً من الذهول الذي أصابني أول أيام، عدتُ أراقب ما يدور حولي بعينين تَشيطَنَتا، جوار المحل إلى اليمين باب خشبية قديمة تنفتح على فسحة صغيرة ثم سلم يصعد إلى سطح البناء المتروك وقتها، سأجد السطح بعد أربعين عاماً من الأحداث التي أرويها، في زيارتي الأولى تحول إلى مقهى يجلس فيها "عمي"مع أصحابه كل مساء، فسحة السلم كان يشغلها مصلِّح دراجات هوائية يدعى "كاظم"بعينيه الجاحظتين اللتين تبدوان كبيرتين جداً، مخيفتين وهو ينظر لمن حوله عبر نظارة طبية سمكية الزجاج، يرتفع تحتها أنف مكور ضخم وسط قسماتٍ منتفخةٍ كأنهُ يعاني من مرضٍ مزمنٍ، قصير القامة، يرتدي ثوباً طويلاً أسودَ يظهر من تحته سروال أبيض عند رفعه أثناء العمل، يلف رأسه بكوفية مرقطة لفاً مختلفاً يأخذ شكل مثلث، كان قليل الكلام، كثير التحديق، يعمل بصمت، كنتُ أقضي وقتاً طويلاً بمراقبته وهو منهمك بتصليح الدراجات العاطلة، متحاشياً الكلام معه فـ"عمي"أوصاني منذ اليوم الأول بالابتعاد عنه، وإذا تكلم معي أي كلام يتوجب عليَّ أخباره فوراً، سألتَهُ:

- ليشْ عمي؟

زجرني بجملةٍ قاطعةٍ:

- بلا سؤال، مثل ما وصيتكْ أي كلمة تخبّرْني!

الرجل لم يحاول، لكني رصدتهُ ينتهز الفرص ليحدق نحوي مبتسماً بسمة خفيفة وأنا في غفلةٍ وحينما انتبهُ يهرب بعينيه إلى جهة أخرى، في ظهيرةِ صيفٍ كانَ الشارع خاوياً تماماً والشمس تصبُ لهيباً يكاد يذيب إسفلت الشارع، أخرجتُ كرسياً ووضعته

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

في الفيء أمام واجهة المحل بعد أن مللتُ من التحديق في وجهي بالمرايا، ومن تصفح المجلات التي يزجي فيها الزبائن وقت الانتظار، رحتُ أتابع الأطفال العراة وهم يلقون بأنفسهم وسط النهر من حافة الجسر الخشبي، وقتها لم أتجرأ بعد على ترك المحل للسباحةِ، وفيما كنت مستغرقاً بحلم الغطس في الماءِ انتبهت إلى حركةٍ خلف ظهري، التفت فرأيت صبياً يكبرني قليلا يقترب بوجلٍ من بابِ السلمِ المردود، وما أن حاذاه حتى ظهرت ذراع ممتلئة سحبته وانغلقت الباب دون صوت. شغلني الأمر:

- من يكون؟ لماذا يُغْلَق الباب؟ وَماذا يجرِي في الخفاء؟

تركتُ النهر والأطفال ورابطتُ منتظراً خروج الداخلين، ليس هناك منفذ أخر للدرج المغلق. لم أجزع أو أملّ بالرغم من مرور أكثر من ساعةٍ، إلى أن ظهر "كاظم"وهو يعدل بثوبه ويرمقني بطرفٍ خفي راداً الباب ومبقياً فتحةً ضيقةً يستحيل رؤية شيء منها. حَرَنْتُ أكثر من ربع ساعة أراقبه فشرعَ يراوح في وقفته ماسكاً درفة الباب بأصابع متشنجةٍ وعلامات ضيق ظهرت على نظراته التي بدأت تنصب عليّ وكأنها تستحثني على التواري من المشهد، وبكل شيطنه دخلتُ المحل وأسدلتُ الستائرَ وكمنتُ خلفَ حافتها البعيدة التي تسيطر على الفسحة الضيقة أمام باب السلم وانتظرتُ على نارٍ. تحركَ بخطى بطيئة قاطعاً واجهة المحل متفحصاً حافات الستائر، كنت أنسحب مليما.. مليماً مع حركته إلى أن أتوارى تماماً، فيستمر مواصلاً السير حتى حافة الشارع المُحاذي للنهر ويعود وعيناه لا تفارق الستائر. أسكن في موقعي بين المرايا ملتهباً بفضولٍ شديدٍ، أنصت لصياح الأولاد القافزين إلى الماء وعيناي جامدتان

منشورات «الفيـاء» «AlfYaa»

على المساحة التي كانت مشغولة دائما بدراجةٍ مقلوبةٍ بين يديه، منتظراً الخارج من عتمة السلالم، و ظهر أخيراً أكثر من شخص يحيطون بالصبي الجميل، يتلفتون بخشية قبل أن يسرعوا نحو الجسر الخشبي ويعم السكون من جديد، وقتها لم أدرك السر، أو ما يحدث بالضبط، ولِمَ يحدث؟، لكنني دأبتُ على التخفي كلما شعرت بحركةٍ غير طبيعية في الظهيرة، فرأيت رجالاً بعمر مصلِّح الدراجات يأتون بصبيةٍ صغار على دراجاتٍ هوائية يقفلونها قرب الرصيفِ ويدخلون بهم من باب السلم المعتم ويخرجون بعد ساعة يتلفتون متفرقين نحو الجهتين.

حفظت الوجوه والقامات ونسيتها لاحقا إلا شكل صبي يميل إلى الامتلاء، بمؤخرة بارزة ووجه آسيوي وعينين واسعتين سيبقى في ذاكرتي واضحاً، سيكون زميلي في إعدادية الزراعة، وجلس معي زميلاً في حلقة سرية من حلقات اتحاد الطلبة العام واجهة الحزب الشيوعي العراقي الطلابية.

لم أدرك ما كان يجري خلف باب السلم الحجري القديم، لكن تولد لدي إحساس بأن ما يجري يتعلق بالجسد وأسراره و إلا لِمَ يدخلون في الظهيرة عند خلو الشارع وهم يتلفتون، ويظهرون حذرين كمن ارتكب شيئاً، لم ينجلِ الأمر إلا حينما أتى "عمي"بصبيٍ من أقربائي يشاركني في الخدمة بعد أن لاحظ ضيقي من ضغط العمل، خففَ عليّ الكثير، كان يصغرني بعام، بوجهٍ دائم الابتسام يميل للاحمرار، وبعينين عسليتين واسعتين ينظر من تحت أهدابهِ بخجلٍ، أقصر مني قليلاً، ممتلئ ناعم البشرة بأصابع رقيقة كأنها أصابع فتاة صغيرة، جلبهُ والده النجار أيضاً على دراجته الهوائية بنفس طريقة والدي، أنزله على الرصيف وسلمه لعمي، فعرّفتهُ على طبيعةِ عملنا:

منشورات «الف ياء» «AlfYaa»

- آني ما مشتغل!

أخبرني بصوتٍ خافتٍ، كان ودوداً أحببته من أول يوم، صرنا أصدقاء، ويوماً بعد أخر أطلعته على الأسرار المحيطة بنا، شاركني لعبة الاختباء والتلصص من خلف الستائر على "كاظم"وصحبه، وفي ظهيرة وكنا وحدنا في المحل جلس لصقي وراح ينظر نحوي بعينين حانيتين متوسلتين مبللتين بغشاوة دمع، لم أفطن للأمر، كنتُ أحدثه كقريبٍ بحبٍ، تناول كفي القريب وأحاطه بكفيه وراح يُمَسّحْ بأطراف أصابعه أظافري بحركةٍ ناعمةٍ وبطيئةٍ، حاولتُ سحب يدي، تشبثَ بها بقوة، استولى عليَّ الفضول فأرخيتُ كفي بالرغم من اقشعرار بدني، كان ينظر أثناء التمسيد بعينيَّ مباشرة وفي عينيه شيء غريب وجديد، تكرر ذلك أكثر من مرة، وفي إحدى الظهائر تطور الأمر فجأة إذ قال لي:

- سلام أحبك وأريد أعطيك شيء!

قلت له:

- شنو هوه؟

قال بصوتٍ خافتٍ وهو ينظر من تحت أهدابهِ الطويلةِ شبه المنسدلة:

- ستعرف، خلي نقفل الدكان وأخذك لمكان راح تعرف!

أدركت أن في الأمر سراً، فتحمستُ وقلت له:

- هيا بنا!

قفلتُ الدكان، لم أأبه باحتمال عودة "عمي"المفاجئة، كنت تواقاً لمعرفة السر والشيء والمكان، تبين أنه رتبَّ كل شيء،

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

كانت الشوارع فارغة تماما والشمس حارقة، سار أمامي عابراً الجادة إلى الرصيف المقابل، تبعتهُ ملاحقاً حركة مؤخرته البارزة من تحت ثوبه الأبيض الطويل أثناء خطوه القصير القافز، وشعور يخامرني بأن السر يتعلق بها. كان يخطو واثقاً على شاطئ النهر باتجاه سينما "الجمهورية الصيفي"المغلقة في ذلك الوقت من النهار، إلى يسارنا يضج الأطفال السابحون والمنتشرون على ضفة النهر العريضة المقابلة، جاوزنا بناية السينما، وخلاء واسع تتجمع فيه النفايات والأشياء المتروكة، ثم قصر "جلعاوي". تلك المنطقة خالية من الناس تقريبا، فبعد القصر بناية مدرسة وخلفها يبدأ معسكر الفرقة الأولى حيث يمنع اقتراب المدنيين، دخل شارعاً ضيقاً بين بناية المدرسة وبناية قديمة مهملة سياجها واطئ، تسلقه دون عناء ونزل إلى فناء صغير مبلط، بقيتُ واقفاً أَمّدُ عنقي وأنظر إليه، فأشّرَ لي وهمس:

- يله.. يله بسرعة قبل ما يجي أحد!

استحثني مكرراً النداء بهمسٍ وارتباك، تلفّتُ حولي كان الشارع مقفراً صامتاً، تسلقتُ السياجَ وهبطتُ جواره، خفتتْ الأصوات، وقفتُ لصقه مرتبكاً، أحملق في نوافذ البناء القديمة المتربة، المكسرة الزجاج والتي لا يبان من خلفها شيء، وفيما كنت أقف منتظراً كالأبله لا أعرف ماذا أفعل أو أقول، بادر بمدّ يده ليأخذ عضوي بأصابعه ويضغط عليه ضغطات خفيفة، فرفع رأسه متوتراً، استدار ودفع بمؤخرته إلى حضني، وجدتني أتشبث به كي لا أقع، التفت ينظر نحوي بوجه تضرّج وصار قطعةً من دمٍ، انفصل عني، خرط لباسه الداخلي، رفع ثوبه العريض وتمدد على بطنهِ بظلِ السياج وهمس:

«منشورات «الفـيـاء» AlFyaa»

- يله.. بسرعه.. بسرعه لا يجيء أحد، أنزع لباسك!

- يله حتى نكمل ونرجع!.

بالرغم من مرور قرابة خمسين عاماً، أراه كأنه البارحة، وقفته المرتبكة ثم طوله الممدود على بطنه ومؤخرته البارزة تلهث تحت وهج الشمس، يلتفت بين اللحظة والأخرى بوجهٍ منفعلٍ مرتبكٍ معيداً النداء كي أسرع بنزع لباسي ورفع ثوبي والنوم فوقه، صحيح أني لم أبلغ سن الحلم بعد إلا أنني أحسست برغبةٍ جارفة بالارتماء على الجسد المطالب الناعم العاري المسفوح تحتي، فعلتُ ما طلب مني، هبطت على طوله، ضغطتُ بثقلي على لحمه الساخن الطري، فتأوه رافعاً مؤخرته، وفيما كنت ملتصقاً به أحسست بعينين تنبتان بظهري العاري، التفتُ فرأيتُ وجه امرأة جميلة جداً تطل من خلف السياج وتحملق بنا بعينيها الواسعتين، التفت هو الآخر، لم يدم الأمر إلا ثوانٍ، نهضنا، عدلنا ملبسنا مسرعين، عبرنا السياج إلى الشارع، رأيناها تبتعد بعباءتها السوداء وتتلفت بين خطوة وأخرى، هرعنا فزعين نركض إلى الدكان، لم يتكرر الأمر، إذ بعد أيام طرده عمي لا أعرف لماذا؟، لم أهتم لغيابه بل شعرت بالارتياح إذ أصبحت علاقتنا مرتبكة متوترة، أضحيتُ أتحاشى الخلوة معه بتصنع شاغلا ما بعيدا عنه.

التجربة هذه كشفتْ لي المستور فعدتُ أعرف ماذا يجري خلفَ باب سلم مصلح الدراجات. وبتُّ أشِك في العلاقات والروابط، وأدركت لِمَ أوصاني عمي بعدم الاحتكاك بـ "كاظم"، سأكتشف لاحقاً قصة أخرى، ففي يوم من الأيام بعثني عمي إلى محل حدادة كبير في الشارع المجاور كي أنادى على صاحبه ليأتي للحلاقة، كان الوقت أول المساء، لم أجد أحداً فرحت أبحث

منشورات «الفـياء» AlYaa«

في أرجائه، وخلف صفوف الحديد سمعت حركة في العتمة. اقتربت فظهر صاحب المحل مرتبكا يعدل ثيابه، ومن خلفه لمحت وجه شابٍ يدعى "صباح"يعمل صباغاً ويصغره كثيراً، جميل القسمات ناعمها، لديه وَشم بين حواجبه، نقطة زرقاء، كنت أراه دائما بملابس ملطخة بالأصباغ، انسحبت خارج المحل وصاحبه يقول:

- جاي عمي.. جاي!

صرتُ مرتاباً، شكاكاً، وأنا أكتشف أن العديد من أصحاب المهن يمارسون فعل اللواط بالخفاء مع أنهم متزوجون ولديهم أولاد بعمري، وذلك ما جعلني حذراً أضع مسافة بيني وبين الآخرين.

سيصاحبني شعور الشك إلى مراحل متأخرة من عمري.

منشورات «الفياء» AlfYaa«

الفصل الثاني عشر

فتاة البرميل

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

لم أنتبه لها إلا مؤخراً، كانتْ تقفُ أمامَ الدكانِ في أولِ المساء بثوبٍ رثٍ ممزقٍ في أكثر من موضعٍ، بقامتها القصيرة، وعينيها الداكنتين الضاحكتين، وتقاطيعها المتناسقة، أنف مصقول كماسة، وجنتان شاحبتان بالرغم من سواد البشرة، شفتان مكتنزتان، ووجه مستدير بشعرٍ أشعث لم يذق طعم المشط، كانت تقف لدقيقةٍ تنظر نحوي وأنا داخل المحل أو خارجه تبتسم وتستدير راكضةً تعبر الشارع باتجاه سينما "الجمهورية الصيفي"لتختفي في عتمة الشاطئ.

انغمرتُ في العالم الجديد المُتَكَشّف قليلاً.. قليلاً، لم أكن أخدم عمي وزبائنه فقط، بل يحق لجيرانه إرسالي لجلب ما يحتاجونه أحياناً، لذا كنت مشغولاً طوال الوقت، أكاد لا أجلس إلا لدقائق أسمعُ فيها قصصاً عن نساءٍ ورجالٍ يمارسون الفضائل والرذائل بقدرٍ متساوٍ، وغالباً ما تبقى نهايات القصص مجهولة إذ يبعثوني لجلب الشاي أو الماء أو أي شيء آخر، فأعود مسرعاً لأجد أنّ قصة جديدة بلغت المنتصف، فأنصت محاولاً نسج الأحداث السابقة وربطها دون جدوى، فتضيع القصة عليَّ. أدور كل اليوم في دوامة قصصٍ لها بداية دون نهاية أو بالعكس، أنصاف وأرباع وأثلاث قصص وحكايات تفرزني في نهاية النهار حائراً أفكر فيها مخمناً النهايات والبدايات، ومنذ ذلك الوقت بدأت أَزيد وأحوّر قليلاً أو كثيراً أحداثاً تجرى أمامي بما يجعل السامع يصغي مشدوداً متعجباً في لعبةٍ أديرها وأجد فيها لذةً خالصةً.

إلى جانب الدكان من جهة الجسر كاتب طابعة يدعى "رحيم الدهان"رجل مسالم، قصير القامة، كبير السن، أبيض البشرة، يرتدي دوماً نظارة كبيرة العدسات وينزوي بزاوية المحل الكبير الخالي إلا من كراسٍ موزعةٍ قرب الجدران العارية، يضرب

منشورات «الفيـاء» «AlFyaa»

بأطراف أصابعه على أزار الحروف المعدنية، أتابع حركته البطيئة وهو يُدوّر بكرةَ الطابعةِ لينتقل إلى سطرٍ جديدٍ، أسرح منصتاً إلى صوت الضرب الرتيب المنتهي بصوت سحب سكتها، ثم معاودة الضرب بإيقاع رتيب لا يتوقف إلا مع المساء، كنتُ أستغرقُ مسحوراً بالأصواتِ وشكلهِ وهو ينحني على طابعته ويضرب ليدقق قليلاً بالورق المحصور بين صفائحها. وقتها لم أكن أعلم أنني سأجلس في منتصفِ عمري الثاني كلَ يومٍ أمامَ لوحة الحروف في المنفى محاولا تخليق أمكنة وبشرٍ وحوادث هي خليط من مخيلتي والواقع كما كنتُ أفعل حينما أحاول أن أروي قصة لأصحابي في المحلةِ، من القصصِ المهشمةِ التي أسمع نتفاً منها.

جواره في ركن الشارع المواجه للجسر الخشبي يقف "عبد الكروي"وسط محله لبيع عصير الزبيب الأسود، أنيقاً ببزته الرسمية، لم يستمر طويلاً، سَيُشطَب ويحل محله إسكافي كردي طويل القامة، ضخم الجسم، بشاربين كَثّين مع ولده الوسيم الناعم، كان طيب القلب محبوباً، يصلّح أحذية الفقراء بالمجان، سأراه يتطوح ويرقص على إيقاع طبولٍ رتيب وترديد "الله حي.. الله حي.. مددددددددددددد.. مددددددد"وسط باحة بيتٍ مهجورٍ، مكشوفةٍ في محلة "الجديدة"، محاطة بجمهرة من الناس المحدقة بعيونٍ مفتوحة لا تطرف إلى الغرباء الراقصين على إيقاع الطبول إلى أن يبدؤوا بقرطِ ولَوكِ وَبَلْعِ زجاج المصابيح، وغرز بطونهم بأسياخٍ مدببةٍ رفيعةٍ في عرضٍ لم يتكرر لدراويش الطريقة "القادرية".

أمست البنت السوداء تظهر مع نزول المساء، تقف على مسافةِ خطواتٍ مني عند حافة الرصيف بثوبها الخرق نفسه،

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

تحدق نحوي بعينين لامعتين، تنفرج شفتاها قليلاً.. قليلاً عن بسمة تتحول إلى ضحكةٍ عريضةٍ ثم تستدير لتركض بين العربات عابرةً إلى الرصيف المقابل وتختفي في الزحام أمام السينما.

بالرغم من انشغالي كل الوقت بالخدمة باتت لا تبارح مخيلتي بملامحها الجميلة ولون بشرتها الأسمر القاتم كأنه خليط من لون التراب والليل، وعينيها الضاحكتين المبتهجتين، وبسمتها الخجولة التي تنفجر لطول تحديقي فيها.

ذهولي كان يتزايد مع كل مساء تُقبِل فيه من جهة الجسر الخشبي القديم، تصعد الرصيف، تقف على بعد خطوات، تضحك ثم تمضي هاربة، فأتساءل مع نفسي:

- ماذا تريد مني؟

أقرر كل ليلة سؤالها لكن أجدني ألزم الصمت مرتبكاً، أبادلها النظرات والبسمة والضحكة، كنتُ شديد الخجل، غير واثقٍ من نفسي، متردداً إلى أن اقتربتْ مني في مساءٍ صيفي حار، وَمَدَتْ يدها لتعدل قميصي قائلةً:

- اسمي "كوكا"أنت شِسمك؟

سحبتْ ذراعها وتركتها تسقط إلى جنبها، كنتُ أتابع حركة جسمها، اهتزاز ثوبها، البقع الظاهرة من فخذيها في الأماكن الممزقة، لمعة أضواء محلنا القوية في عينيها وعلى بشرتها، فتلكأتُ، لكن نطقتُ أخيراً:

- سلام.

مَسّحَتْ على شعري الناعم بأصابعها الصغيرة وقالت بحنان:

منشورات «الفيا» AlYaa«

- عيني "سلومي"أشتري لي "لفة"وراحْ أعطيكْ شيْ حلوْ ما راحْ تنساه!

كانت جيوبي مليئةً بالقطعِ النقديةِ من فئة عشرة وخمسة فلوس التي يدسها في راحة يدي من أَكمَلَ حلاقته، ارتبكتُ متحسساً جيبي، ومتحمساً كي أذهب لأشتري لها وأعرف ذلك الشيء الحلو التي تخبئه لي. قلتُ لها:

- هيا بنا!

وأمسكت بكفها الصغيرة عازماً على سحبها والركض بها إلى عربة البائع على الرصيف المقابل جوار مدخل الجسر، وقبل أن أخطو خطوة واحدة، تعالى صوت "عمي"يناديني، التفتُ فرأيتهُ يُخرج رأسه من باب المحل وبيده المقص والمشط وينظر نحوي بعينين غاضبتين جعلتني أسحب كفي من بين أصابعها التي حاولت أن تستبقيها وركضتُ له، فبادرني:

- أسمع شعندك ويه هذي السايْبَه، لا تتقرب إلها أبد.

أهتّزَ جسدي من كلامهِ الباتر فرجعتُ خطوة وهو يكرر بصوتٍ لهُ وقع الطبلِ في نفسي:

- أَبَدْ ما تحْتَكْ بِها.. أَبَدْ.. أفْهَمِتْ؟

فهززت رأسي قائلاً:

- أفهمتْ!

وبعثني لأشتري أمواس حلاقة من دكانٍ قريبٍ، ما أن استدار عائداً إلى الدكان حتى التفتُ باحثاً عنها، لم أجدها كانت قد اختفتْ.

منشورات «الفيــاء» AlFyaa«

لولاه لعرفتُ الشيء الحلو الذي تخبئه لي، كم كرهتُ "عمي"في لحظاتٍ مثل هذه، حتى عدتُ أراه شيطاناً ينقض عليّ في مواقفٍ تتكرر في بحر اليوم، أجد نفسي فيها ملاماً فأطرق رأسي منصتاً لكلماتِ التقريع العراقية القاسية دون أن يوضح لي لمَ وكيف؟

انشغلتُ طوالَ تلك الليلة والنهار التالي بالسر المنتظر، فجعلت أقوم بأعمال الخدمة ساهياً، يراودني شعورٌ بأنها ستأخذني إلى أمكنةٍ وعالمٍ غير هذا العالم، عالمٍ يشبه عالم مجلات الرسوم المتحركة التي كنت أجمّعها تلك الأيام، تخيلتها تأخذني إلى بيتٍ ناءٍ من بيوتِ الرسومِ جوار بحرٍ أو في غابةٍ، أما ماذا سنفعل؟ فذلك ما لم أستطع تخيلهُ قط.

لم يكن لدي أحدٌ أَسرّهُ بالأمر، ولم أفكر بذلك ولا حتى رفاق الطفولة في الشارع، أحسست أن في الأمر سراً من غير الصحيح البوح به، ما أطول ذلك النهار القائظ وما أشدّه عليّ، لم يأتِ المساء إلا وروحي على وشك الطلوع، فالبنت لا تظهر أبداً ولا أدري أين تختفي في النهار، لكن مع الغروب ونزول الظلام أجدها بغتة جوار الجسر، ظللتُ أبحث بعيني منذ أول المساء حتى هدوء الحركة دون جدوى، فأخذتني هواجس وأخيلة بأني لن أراها بعد ذلك اليوم، وشطحَ خيالي المشبوب بعيداً، فتخيلتها تغرق في النهر، أو يقتلها احدٌ، أو انتقلت مع أهلها إلى مكانٍ آخر، أو.. أو.. عشرات القصص التي تشحذها قصص المحل والسينما والمجلات وَجَدَتي، قصص أسكنتني بين أماكنها الغريبة وحوادثها العنيفة والبنت السوداء هي محورها، حتى أنني لم أستطع النوم ليلتها وحنقي يزداد على "عمي"الذي حرمني من السرِ في اللحظةِ الأخيرةِ فكنتُ أهتف بصوتٍ

منشورات «ألفياء» AlfYaa»

مسموع:

- لو متأخر خمس دقائق، خمس دقائق!

حتى أن أمي انتبهت ليّ، فأمسكتني من ذراعي وطلبت مني النظر في عينيها قائلة:

- أشبيك يمه تحچي ويه نفسك.. أشبيك، سولف لي؟

أشحتُ بوجهي خائفاً من نظراتها الفاحصة مردداً:

- ما بيه شي.. ما بيه شيْ!.

ظهرتْ أخيراً مع المساء الذي نزل منذ حين، رأيتها تَهم بالعبور من الرصيف المقابل، الثوب الممزق الخلق نفسه، ابتعدتُ من أمام دكاننا ووقفتُ في الركن البعيد لمحل الدهان "كاتب الطابعة"المغلق، أسرعتْ صاعدةً الرصيف وركضتْ نحوي. وقفت مبتسمة وقالت:

- ها تشتري لي!

أمسكتها من كفها الصغيرة وركضنا صوبَ صاحب عربة خشبية جوار الجسر القديم، يبيع نصف رغيف يلف به قطعاً مسلوقة من البطاطا والطماطم ويرش عليها قليلاً من العنبة. ناولتها الرغيف، فالتهمَتها بشراهة دون أن تنظر إليّ، بل رأيتُ عينيها الواسعتين تكفان عن الرمش وتحملقان في اللفة، ثم تعاود القضم والمضغ بسرعةٍ إلى أن أتت عليها، مسحت فمها بظاهر كفها ونظرت نحوي بعينين ممتنتين وشبّكَتْ أصابعها بأصابع كفي الأيسر وسحبتني قائلة:

- يله بينه، راح أنطيكْ شيْ ما تنساه!

منشورات «الفيـاء» «AlFyaa»

بعد مرور أكثر من نصف قرن لا زلتُ أرى ذلك المساء بوضوح، كان الشاطئ مكتظاً، ومضاء بأضواء المحلات القوية ومصابيح أعمدة الشارع العالية المدلاة في ذلك الظلام الخفيف. كانت تقودني على مهلٍ جوار النهر وتتجه بيّ صوبَ التجمهر العابر من باب سينما "الجمهورية الصيفي"حتى رصيف الشاطئ الذي نسير عليه، تنظر نحوي بين الحين والحين بعينين لامعتين تطفو فيها بسمة خفية وتعاود التحديق نحو الأمام، أسير مسحوراً باللغز القادم، مخدراً مستسلماً لقيادها مثل مُنوَّمٍ. اخترقنا رواد السينما مبتعدين في الظلام الذي أشتّدَ. أصبح الشارع خالياً، هادئاً معتماً، فعلى يسارنا تصاعدَ هدير النهر يجري بصخبٍ، وعلى يميننا في الجهة المقابلة ساحة واسعة متروكة مظلمة تلقى فيها النفايات والأشياء القديمة تمتد عميقاً حتى البيوت القديمة خلف شارع الصيدليات وتنتهي بقصر "جلعاوي"الكبير المنار بمصابيح خافتة، قبل أن نبلغ باب القصر عبرتْ بي الشارع طالبةً مني الإسراع، توقفت جوار سوره الخارجي المجاور للساحة وتلفتت للتأكد من خلو الشارع. كنت مذهولاً من الجو والظلام وما تخبئه هذه الفتاة وكفها الحارة المتشبثة بأصابعي بقوة، توغلت بيّ في عمق الساحة، سادَ صمتٌ مضطربٌ جعلني أنظر نحو نجوم السماء العالية اللامعة الغامزة شديدة الوضوح، تخطو بثقةٍ ومعرفةٍ بالرغم من شدة الحلكة، وكأنها تعرف المكان جيداً، لم تنطق حرفاً واحداً منذ أن غمرتنا الظلمة والصمت، بغتةً ضجَّ قلبي بضرباتٍ عدتُ أسمعها سريعة متلاحقةً. اصطخبتُ وانتابني خوفٌ وخشية، لا أدري ممَ؟. أمنَ المكان أم الظلام أم الصمت أم من القادم، لم يستمر الصخب والضجيج إلا ثوانٍ إذ سحبتني لندخل برميلاً كبيراً من المعدن فوهته ملتصقة بالأرض فأصبحت الحلكة مثل

منشورات «الفيلـ» AlFyaa«

جدارٍ، لم أعد أرى شيئاً، ضاعت في الظلام وبقيتْ أصابعها المعشقة بأصابعي دليلي الوحيد على وجودها الحي، شعرتُ بيدها الأخرى تمسك بذراعي الثاني، وتهبط إلى وسطي وتداعب عضوي الذي دبتْ فيه الحرارة من ملمس أصابعها فبدأ بالانتصاب، رفعتْ ثوبي هامسة وهي تفتح كفي:

- ألزمْ!

قبضته بين أصابعي بينما شعرت بها تنزل لباسي الداخلي فسقط بين ساقي، سحبتني نحو أرضية البرميل المرتبة كفراشٍ فنزلت على ركبتي. ثم همست:

- تعاااااااااال!

كنت لا أرى شيئاً، أخذتني من ذراعي فوقعت فوقها، صارت تحتي فراشاً من اللحم الساخن مفتوحة الساقين، عارية، راحت تضغط على وسطي المتوتر الملامس لحمها العاري الحار وتسحب بكفيها كفليّ لاهثة، شعرتُ بلذةٍ فائقةٍ وبساقيّ تلتهبان من حرارة فخذيها المفتوحين، وهي تلهث وتفح في أذنيّ، تلمستُ وجهها بأصابعي فعضتني، وفي كفي الأخرى مسحتُ فخذيها الناعمين الملتهبين، غبتُ عن العالم تماما وجعلت أدفع بوسطي أريد الولوج في أحشائها إلى أن باستني قائلة بصوت خافتٍ:

- كافي اليوم!

نهضنا نعدل ملابسنا، وخرجنا من البرميل إلى ظلام الساحة، حثتني على الإسراع خوف أن يكتشفنا أحدٌ، فركضنا حتى رصيف الشاطئ، وجدنا الشارع خاوياً، قال ضاحكةً:

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

- سلومي إذا تشتري لي مرة ثانية راح أخذك للبرميل!. بس لا تگول لأحد!

تركتني راكضةً نحو شارع جانبي واختفتْ في الظلام، وقفتُ مذهولاً بمكاني أستعيد لذة جسدها، حرارته، عريه، تنفسها اللاهث، أنينها الذي تحبسه بعناءٍ متخيلاً شكلها كأنني أراه بالرغم من ظلام البرميل. رجعتُ نحو الدكان بخطى حالمة وباباً جديداً انفتح أمامي كان مخفياً أو غافلا عنه، لم أأبه بالعقاب لغيابي ليلتها، بل لم أتوجع من كف "عمي"الثقيلة.

لم تتكرر التجربة إذ اختفتْ تلك البنت تماماً، لكنها أورثتني رغبة مجنونة ومبكرة في الالتصاق بفخذين حارين مفتوحين، وسماع لهاث الأنفاس وصرخات الألم الخافت، عدتُ أدرك مقاصد القصص والنكات البذيئة التي يَضج فيها المحل طوالَ اليومِ، وجعلتُ أحدق بنهمٍ إلى أجسادِ النساءِ وأفخاذهن وأتخيلها عاريةً مفتوحةً، قبل أن أبلغ سن الحلم بسنوات.

لم أزل بالرغم من كل التجارب والحياة والزواج والشبع الجنسي أحدق بنهمٍ إلى جسدِ المرأة في الشارعِ، في الأسواقِ، في الكنائسِ، في المسابحِ، في الصورِ راغباً فيه، في عِلّةٍ ستعاشرني كل العمر زرعتها بيَّ فتاةُ البرميل واختفتْ.

منشورات «الفياء» AlfYaa»

الفصل الثالث عشر

رجلٌ معلقٌ على شجرة

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

- تبقى بالمحلْ، ما تتركه دقيقهْ!

أوصاني "عمي"بلهجةٍ حاسمةٍ وهو يهز سبابةَ يدهِ اليمنى المنتصبة بتوترٍ والموجهة نحوي كفوهةِ بندقيةٍ قبلَ أن يتناول من شماعةِ الملابسِ سترته، كنتُ مرتبكاً مشوشاً أتابع ذراعه الأيسر يدخله بكُمِ السترةِ والمذياع الذي رفعَ مؤشر الصوت إلى أعلى درجةٍ يَضج بالأناشيدِ الوطنيةِ الحماسيةِ منذ وصولي إلى المحلِ.

الله أكبر.. الله أكبر

الله فوق كيد المعتدي

والله للمظلوم خير مؤيد

أنا باليمين والسلاح سأقتدي

ونور الحق يسطع في يدي

قولوا معي

قولوا معي

الله.. الله.. الله أكبر

يتكرر النشيد ما أن ينتهي، المحلات المجاورة والمقاهي جميعها تَضج بـ"الله وأكبر"بأعلى ما بمذياعها من صوتٍ كأن القيامة ستنهض والجميع ينتظرها، هكذا شعرتُ و "عمي"يتوجه نحو باب المحل قائلاً:

- ما تترك المحل أبدْ، راح يصير هرج ومرج!

هَبَّ راكضاً ما أن أصبح على الرصيف باتجاه عمق شارع الأطباء المؤدي إلى محطة القطار القديمة ونصب الجندي

منشورات «الفياء» AlFyaa»

المجهول في مدخل الفرقة الأولى، لم أفهم شيئاً، حملتُ كرسياً إلى الرصيف وجلستُ أراقب الجسر والشوارع التي تلتقي عنده، حشودٌ قدمت من الصوب الكبير راكضةً، عبرت الجسر الخشبي، وواصلت طريقها صوب الجهة التي قصدها "عمي". وجوه منفعلة، محتقنه، لاهثة تركض بأقدامٍ حافية، أو تمسك نعلها بيديها وتعض على طرف ثوبها المرفوع فتظهر سيقانها الطويلة الهزيلة وألبستها الداخلية البيضاء الطويلة القذرة، سيل بشري يندفع من الجسر يعبر جلستي على إيقاع الأناشيد المتوعدة التي لا تستيقظ من نومها في مخازن الإذاعة العراقية إلا وتأتي بالمصائب والمذابح في كل مرة، جموع تعقبها جموع كأن البشر أصابتهم عدوى جعلت المدينة تَهب عن بكرة أبيها، بينما العديد من المحلات المجاورة أقفلت أبوابها خشيةً من القادم خصوصاً باعة المواد الغذائية. وبغتة أنقطع السيل وأقفرتْ الشوارع فتلألأت الشمس في سمت السماء ساطعةً لتضفي وضوحاً شديداً على ذلك اليوم المضطرب، عمَّ هدوء مخيف، هدوء سأخبرهُ لاحقاً وسأذوق جحيمه بعد عقدين ونيف من ذلك التاريخ حينما سأساق جندياً إلى جبهة الحرب العراقية الإيرانية، لأعيش مذبحة من نوعٍ آخر، كان هدوء الجبهة وسكونها التام يأتي بعاصفة هجومٍ إيراني جديد فتقوم القيامة، وأرى الله بعينيّ.

أفحمني قِفر الشارع والهدوء المباغت، هممتُ اللحاق بالحشود، أردتُ معرفة أين اختفوا، لكنني ترددتُ إذ داخلني شعور بالخشيةِ والخوفِ، لم أعرف ممن؟

لزمتُ مكاني تحت الشمس الحارقة، أحملق شارداً في كراسي مقهى "اللواء"المقابلة الفارغة، وعاملها الأسمر الواقف على الرصيف المقابل والناظر مثلي صوب الجهة التي ابتلعت

منشورات «الفياء» AlFyaa»

الجموع المهرولة، كأن المدينة أصابها مَسٌ، لعنة، سحر كمدينة في حكاية من حكايات الليالي الألف، لم يستمر الهدوء طويلاً إذ تمزقَ بضجيج هتافاتٍ بدت خافتةً أول الأمر ثم راحت تقوى وتتوضح مصحوبة بوقع أقدام تقترب لحظةً بعد لحظةٍ، لم يزل امتداد الشارع المرئي خاوياً، تركت الكرسي مقترباً من حافة الرصيف دون جدوى، نزلتُ إلى الجادة لأجاور عامل المقهى القادم من الرصيف المقابل، لحظة أخرى وظهرتْ كتلةٌ بشريةٌ متراصةٌ سدتْ أفق الشارع فأشعلتْ الظهيرة والسماء، الجدران والرصيف، البيوت والدكاكين، الدنيا ورأسي، بصراخها وهتافها الواضح المنغم بوقعه المرعب:

"ما كو مؤامرة تصير.. والحبال موجودة

ما كو مؤامرة تصير.. والحبال موجودة"

تقدمتْ الجموعُ الراكضة هاتفةً عاصفةً، مخيفةً ترعد فجعلتني أرتجفُ وأركض عائداً إلى باب الدكان، خرج من تبقى من المحلات ولا أدري من أين ظهر الناس فامتلأت الأرصفة بالمتفرجين، كانوا يلزمون الصمت ويتطلعون إلى الحشد المقترب وفي وجوههم أسئلة، فلا أحد يدرك أو يعلم بما جرى ويجرى، وجود المارة على الأرصفة أعاد لي توازني، فتمالكت جأشي، قَفَلتُ الباب على عجلٍ، ونفذت من بين الأجسادِ المكتظةِ على الرصيفِ إلى الشارعِ كي أرى بوضوح، على مسافة عشرة أمتار رأيتهم، أربعة يسحبون شيئاً بحبال غليظة، والبقية يهزجون ويهزون بأيديهم حبالاً مهيأة:

"ماكو مؤامرة تصير والحبال موجودة"

وجوه سمراء قاسية منحوتة من الصخر الصلد الحي، عيونهم

منشورات «الفياء» AlfYaa

تلمع مفتوحةً إلى أقصاها، متصلبةً لا ترمش، رأيتُ شرراً يتطاير منها، هل ما رأيت تخيلته أم كان حقيقياً؟ لا أدري، ما زلتُ أتذكر ذلك الشرر الأحمر المتطاير يختلط برذاذ أفواههم الهاتفة المزبدة، الهتاف توحد مصحوباً بتصفيقٍ يأتي من الكتلةِ المتدفقةِ من عمقِ الشارع وكأنها بلا نهاية، أصواتٌ تصعد إلى عنانِ السماءِ اللاهثةِ بشمسها، هتاف مختلف جاء من خلف المجموعة الأولى مصحوباً بتصفيقٍ عاصفٍ:

"أحمر خطر.. لا تجيسه يكهرب

أحمر خطر.. لا تجيسه يكهرب"

وقتها لم أفهم شيئاً لكن سأدرك لاحقاً أنهم يعنون بالأحمر الحزب الشيوعي، والهتاف به وعيد لمن يمسه بسوء، كنتُ أحبُ الشيوعي، فأبي وأمي وعائلتي، أعمامي وأخوالي، والجيران وزبائن "عمي"، الجميع يمدحهُ، ويعتقد أنه سينقذ العراق ويقضي على الفقر ويساوي بين البشر.

اقتربتْ المجموعة الأولى من حاملي الحبال تسحل شيئاً، عادتْ على مبعدة خمسة أمتار، جهدتُ لتبين ما هو؟ ومن بين حركة الأجساد الراكضة المحيطة لمحتُ جسد رجلٍ مكبلٍ من تحت كتفيه بالحبال يمسح الإسفلت بملابسه العسكرية الممزقة والمحيطين به ينهالون عليه ضرباً بالحجر والعصي والنعل، اندفعتُ من فرجة بين أجساد الرجال المعروقة فحاذيتهُ، لا يزل حياً مفتوح العينين، دامي الوجه، ينزف من أخمص رأسه حتى قدميه، ينظر إلى قامات الرجال ووجوههم بعينين مستسلمتين كأنه خُدِّرَ، رَكزتُ النظر في عينيه فرأيتُ دموعاً تنزل لتتبدد بنزف الوجنتين على إيقاع صراخ وحشي يتردد:

منشورات «الفـيـاء» AlFyaa«

- خائن.. خائن.. خائن.. خائن!

خارت قواي بغتة فانسحبت، وحزنٌ غامض استولى عليَّ ممزوجاً بيأسٍ وخوفٍ، شعور سيترسخ مع تقدم العمر وتوسع العنف والمأساة في مخاض رحمي الدامي، لفظتني الحلقةُ فوقفتُ بمكاني أتتبع ما خلف الجسد المسحول من بقع دمٍ متناثرةٍ على الإسفلت وقطعٍ من بدلته العسكرية، كنت وسط الجسر الخشبي، جرفني الحشد الصاخب المتجه نحو ساحةٍ كبيرةٍ أمام القلعة القديمة مقر المتصرفية ومركز الشرطة، الساحة غَصّتْ بالبشرِ المتدفقين من الشوارع الفرعية، من سوق التجار المسقف، من جهة المستشفى الملكي القديم، من شارع السراي، من الأزقة الجانبية الضيقة، من خلف القلعة، تلاحمت الأجساد وأختلط المتفرجون بالراكضين في كتلةٍ متراصةٍ عبأتْ الساحة، ضفتي النهر، الأفرع. لم يعد بمستطاعي رؤية شيء، اندفعتُ من بين الأجساد قاصداً الجسر القريب الرابط بين شارع السراي وشارع الثورة، فوصلتهُ بعد أن تقطّعتْ أنفاسي. كانَ الزحام عليه أقل بحيث أتاحَ لي المشي بيسرٍ، انتقيتُ مكاناً وسطه أستطيع منه رؤية الحشد بانتظار ما سيحدث، دقائق وتعالت هتافات أتت من عمق شارع سينما "الثورة"، رميتُ بصري فرأيتُ جمعاً يركض مقبلاً ويقترب بسرعةٍ من الجسرِ، وتكرر المشهد؛ رجال يحملون الحبال ويصرخون بوجوه صلبة مثل وجوه المجانين تنقط عرقاً، عيونهم تقدحُ شرراً، يرددون شعاراً قصيراً يطالب الزعيم الأوحد "عبد الكريم قاسم":

"اعدم.. اشنق.. علق..

اعدمْ.. اشنق.. ارمي!."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

كان الزحام حول المسحول أقل من الأول الذي مرّ من أمام دكان "عمي"فرأيته من وقفتي، كان أيضاً بملابس عسكرية ممزقة تماما، وحبلٌ معقود حول رقبته مضافاً للآخر المعقود حول كتفيه، ممزق الجسد، مشوه الوجه، مطفأ العينين، مسحوق الأنف، يركض حوله شبان حفاة يركلونه بأقدامهم وفي عيونهم اللامعة لذة، هل يلتذ الإنسان لحظة قتله لأخيه؟ هل هي شهوة خفية نتوارثها من دم أسلافنا ساكني الكهوف، تعابير نشوة أسرتها الحضارة وقننتها في حروبٍ محسوبةٍ يشعلها البشر طوال التاريخ، بثُ وأنا أستعيد ما رأيت متأكداً أن ذلك التعبير هو لذة وغبطة تنبثق من أعماق القاتل وهو يشرع الإجهاض على أخيه، رأيتها في تلك العيون تومض للحظات، وقتها لم أفهم، ولم أجد لها تفسيراً، كانت مخيفةً تبعث الهول، سوف أراها في وجوه زملائي الجنود وقت المعارك لحظة الإجهاز على جندي إيراني، في وجوه رفاقي الثوار وهم ينفذون حكماً بالإعدام على أسيرٍ أو خائن.

كانوا يرفسون الجسد الممزق هاتفين:

- خائن.. خائن.. خائن

أختلطَ موكبهم بزحامِ الساحةِ، بغتةً رحتُ أرتعشُ وأسناني تصطلك وأنا أتخيلهم ينقضون على واحدٍ آخر قد يكون "عمّي"أو أحد أصدقائه ويسحقوه، تخيلته ممزق الملابس محطم الجسد ينزف مسحولاً، شعرتُ بدوار، ترنحتُ، أوشكت على السقوط فتمسكتُ بسياج الجسر، أخذت نفساً عميقاً، نفضتُ رأسي طارداً الأخيلة المُفزعةِ منتظراً ما سيأتي، لم أمكث بمكاني، عبرتُ إلى الجهة الأخرى من الجسر، نجحتُ في الوصول إلى حافة السياج الحديدي المرتفع، تحتي الماء يتدفق مسرعاً ويصطدم بمثلث من

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الإسمنت يتوسط النهر مرتكزاً على ثلاثة أعمدة تنزل حتى قاع النهر، يغطيه المجرى أحياناً ويعريه في أخرى، سرحتُ عن الهتافات والجموع متأملاً المثلث المشؤوم، كنتُ أقف في نفس المكان قبل شهرٍ حينما ضَجَتْ المدينة أيضاً وَهَبَّ الناس راكضين محتشدين على الجسر وعلى ضفتي النهر، فركضت أيضاً ووقفت حيث أقف الآن، كانَ الوقتُ صباحاً، الجمع يؤشر نحو شيءٍ عالقٍ بين أعمدة المثلثِ صارخاً:

- هناك.. هناك!

شَخصتُ ببصري صَوبَه، رأيتُ جسداً طافياً لا تظهر ملامحه، محصوراً بين المثلث وثلاثة رجال عراة سبحوا من الضفة حتى الجثةِ العالقةِ، سحبوها، أصبحوا تحتي تماماً، ما زلتُ أتذكر ألوان ملابسها حتى الآن؛ ثوبها الأبيض المطبع بالورد وفوقه بلوز أخضر برز منه نهداها الكبيران، ظهرَ ساقاها عاريان من بين الثوب الممزق، أما وجهها فقد كان منتفخاً مشوه الملامح. أخرجوها من الماء، وضعوها على الجرف، ألقوا عليها بطانيةٍ قديمةٍ بانتظارِ نقلها إلى المستشفى القريبة، سيروون في "المحل"قصصاً مختلفةً عنها، رواية تقول إنها من قرية بعيدة، قتلتها عائلتها غسلاً للعار لإقامتها علاقة حب مع غريب فض بكارتها، أخرى تقول إنها هربت مع حبيبها إلى البصرة، لكن بعد شهر تركها، اضطرتْ إلى الرجوع إلى أهلها طالبةً الصفح، فأغرقوها في النهر، وفي أخرى إنها أغرقت نفسها بعد أن هَجَرَها حبيبها الذي منحته جسدها.

لم أكف عن التفكير فيها، شغلتني، فلازمني خيالهم وهم ينزلون بها إلى النهر سراً في ليلة مقمرةٍ، تتوسل باكيةً، لكن قلوبهم من حجرٍ، أبصرتهم بعين خيالي كيف سحبوها بقسوةٍ

منشورات «الفيلاء» «AlYaa»

وصمتٍ حتى الماء العميق، وكيفَ ضغط أخوتها أكفهم القوية كتفيها حتى غَطَّ رأسها في الماءِ، كيف قاومت رافسةً بصمت دون جدوى، لاحقتني أيديهم متصلبةً ثابتةً تلمع على سطحِ الماء تمنعها من الظهور إلى أن همدتْ حركتها فاستسلمتْ ساكنةً بين أذرعهم، تراءتْ لي أشباحهم تسبح بها حتى منتصف النهر حيث تركوها تهبطْ إلى القاعِ الطيني في صمتٍ تامٍ، كل مرة أرسم مشهداً مختلفاً، فعذبني خيالي الملتهب طوال النهار، عدتُ إلى البيتِ حزيناً وشكل جسدها المنتهك الهامد المكشوف في الماء لا يغادر عيني، بتُ أراه بوجوه أخواتي الثلاث، فأخاف عليهن من مصيرٍ مشابهٍ إذ كنتُ شديد التعلق بهنَّ، فانطويتُ ليلتها خامداً، لم أقرب الأكل، ولم أتكلم، فلمن أفضي بتلك المشاعر الدفينة، ومن أين أأتي بالجرأة؟

حاصرتني أمي بالأسئلة وحينما أمعنت في صمتي مكررا:

- ما بيّ شي!

غيّرتْ لهجتها متوسلةً، ألحتْ فأخبرتها، كنتُ محاطاً بأخواتي الجالسات، كنَّ ينصتن فاغرات الأفواه وفي عيونهنّ رعبٌ، وما أن أنهيتُ وَصف المشهد وما سَمعتهُ في المحلِ من قصصٍ حتى حدقتْ أمي بهنَّ واحدةً.. واحدةً ثم قالت وفي لهجتها وعيد مبطن:

- حيلْ.. بالجهنم هذا مصيرْ كلْ وحده تطْلَعْ عنْ الطَرِيقْ!

أفقتُ على وقعِ هتافٍ مدوٍ أنطلقَ من الحشد لحظة رفعهم شاباً بَدَا من مكاني؛ طويل القامة، مفتول العضلات، عاري جذعه الأعلى بصدرٍ كثيف الشعر، تمسكَ بغصنٍ متين لشجرةٍ كثيفةٍ شاهقةٍ يمتد مسافةً فوق مجرى النهر، ثبّتَ قدميه وانحنى

منشورات «الفيلاء» «AlIYaa»

للجموع التي رفعت جثة الضابط الممزقة، ضغطها بذراعه القوية إلى جنبه الأيسر وراح ينقل قدميه بحذر متقدماً حتى أصبح في منتصف الغصن الذي مال قليلاً على الماء من ثقل الجسدين، أسنده إلى غصن يعلوه، حاول نزع خاتم الزواج الذهبي من القتيل لكنه عَصى عليه، أدخل إصبعين في فمه وَصَفّرَ فصفق له الحشد، دَسَّ يده في حزامه، وأخرج سكينةً رفعها عالياً فلهثتْ تحت وهجِ الظهيرةِ، دورها ليريها للكتلة المبتهجة التي راحت تصفق وهو يقطع الإصبع من منبته، أمسكهُ بين سبابته وإبهامه، وشهره عالياَ ليريه للحشدِ الذي أشتعلَ حماسه فصفّر وصفق مبتهجاً. نزع الخاتم، وضعهُ في جيبه، عقدَ الحبل حول رقبة الميتِ، شّدَ طرف الحبلِ الآخر بالغصن الأعلى وركل الجثة الممزقة بقدمهِ اليمنى فهوت متأرجحةً بين الماء والشجرة وسط هتاف الجموع الذي صار مجنوناً، غريباً عدتُ أسمعه كأنه صراخ حيوانات برية جائعة هائمة في أرضٍ قفرٍ. لم ترجع الأصوات من بهمتها إلى هتافها المفهوم "أعدم.. أشنق.. علگ"إلا بعد أن قفز بطلهم من الغصن إلى مجرى النهر، فهدأ تأرجح الجثة في وهجِ الشمسِ. عرفتُ لاحقاً من كان البطل في ذلك المساء وأصحاب "عمي"يتفاخرون بجرأته وشجاعته بإقدامه على تسلق الشجرة وقص الإصبع معتبرين أن فعلته ألهبت حماس الجماهير المؤيدة للثورة والزعيم الأوحد، أسموه بكنيةٍ معروف بها "أبو الحبو"كان يعمل سائق شاحنة، سيشتهر لاحقاً كلوطي محترف عقب انحسار مدّ اليسار في الستينات، سيصبح مخيفاً، يُحذر الأهل أولادهم منه، كنتُ أصادفه في السوقِ أحياناً بقسماتهِ المنحوتةِ القويةِ وعينيه الثعلبيتين اللامعتين، فأبتعد عن طريقه، سأجده حياً حينما عدتُ من منفاي، سينبهني صديقي الشاعر "علي الشباني"، فيما كنا

منشورات «الفيــاء» AlFyaa«

نسير على رصيف شارع السراي المكتظ، يلكزني بكوعه قائلاً:

- سلام شوف هذا "أبو الحبو"!

توقفتُ فوراً متسائلاً:

- وينه.. وينه؟

فأشار نحو شيخ هرم رث الملبس يسير بعناء:

أسرعتُ إليه، أمسكتهُ من ذراعه وناولتُ "علي"كاميرتي ليلتقط لنا صورة، تأملته عن قربٍ شديد، قسمات كالحة مهدمة، مطعونة بوهج شمسٍ أحالتها إلى لونِ ترابٍ محروقٍ، بعينين مستسلمتين، تتوسل نظراتها الوجوه، سألته عن أحواله فأخبرني بسوء وضعه، بلا بيت، راتب تقاعدي ضئيل، عائلة كبيرة، يسكن بيوت تجاوز بطرف المدينة، دسست في راحته مبلغاً بسيطاً من المال.

انفصلتُ عن ضجيجِ الهتافات تماماً، ورحتُ أتتبع تأرجح الجسد المعلق فوق الماء، متشبثاً بسياجِ الجسرِ بكفيَّ المتشنجين، متسائلاً بصمتٍ:

- لم قتلوه؟، ما معنى خائن، وما معنى مؤامرة؟

رأيته مسكيناً مستسلماً يحملق بقتلته وهم يسحلونه ويركلونه ويضربونه متوسلاً لا يستطع الكلام، ومن يسمع في ذلك الجنون.

سأفهم في الأيام التالية من أحاديث المحل بأن ثمة مؤامرة قام بها ضباط من الجيش في الموصل قائدهم "الشواف"، فقامت الجماهير بسحقها وسحل المشاركين فيها بشوارع "الموصل"، الرجلان اللذان سُحِلا لهما علاقة بالمتآمرين، هكذا أشيع أول

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الأمر، لكن سيتبين لاحقاً أن الضابط الشاب ونائب الضابط لم يكن لهما أية علاقة بالمؤامرة، القصة الحقيقية التي بدأ يرويها ضباط كبار يأتون للحلاقة تقول إن بعض جنود الوحدة الضائقين ذرعاً بالعسكرية كانوا يناصبون الرجلين العداء، فاستغلوا أحداث المؤامرة وصرخوا في ذلك الصباح الصيفي المشؤوم وسط ساحة التدريب مؤشرين بأيديهم نحوهما:

- خونة متآمرين.. خونة!

فهبتْ جموع الجنود التي كانت تسمع وقتها البيانات القصيرة التي تذاع بين الأناشيد من راديو الإذاعة العراقية المجسم بمكبرات صوت وسط المعسكر، هبت نحو الرجلين لتربطهم وتضربهم وسط الهتافات التي سُمِعَتْ في المدينة، المعسكر يقع وسطها، فهرعت المدينة راكضةً لدعمهم مما خلط الأمور وجرى ما جرى.

زادتْ هذه الأحداث من حزني وشرودي، عمقت خوفي وخشيتي من الناس لحظة هياجها، من تحولها إلى كتلة صماء تسحق من يقف أمامها، من بشرها الهاتفين الراكضين القساة.

سأراهم في مطلع شبابي يهتفون للبعث بالجنون ذاته:

"شعب.. شعب كله بعث موتوا يا رجعية"

بعد أن كانوا يهتفون زمن عبد الكريم قاسم:

"والما يصفق عفلقي"

وبحياة الدكتاتور:

"بالروح بالدم نفديك يا صدام"

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الجموع المتشنجة نفسها ستهجم وقت انتفاضة 1991عقب احتلال الكويت وحرب طرد القوات العراقية، لتسرق دوائر الدولة ومدارسها وتحرق البنايات لتساهم بتخريب وطنها.

ستفعل ذلك بشكل أوسع وقت الاحتلال الأمريكي 2003الذي رحبت به واستقبلته بالورود، ستسرق متاحف بلدها، مدارسها، دوائرها، تخرب وتحرق ما تبقى، سأشاهدهم من مصحتي في الدنمرك يسرقون الدوائر فرحين حاملين كراسٍ ومناضد ومصابيح ومقاعد الدروس وكل شيء.

الجموع نفسها تهتف هذه الأيام بحماس وهستيريا:

- علي وياك علي.. علي وياك علي!

وفيما كنتُ مستغرقاً، أحملق بالجثة التي عادت حركتها خفيفة، شعرتُ بكفٍ تمسكني من ذراعي، أجفلتُ، حاولت سحبها دون أن أنظر من يكون، خاطبني باسمي:

- لا تخفْ عمو سلام لا تخفْ!

التفتُ إليه كان "حسين شاني"أقرب أصدقاء "عمي"والذي أحبه جدا، أمرني بحزم:

- أرجع للدكان!

حرنتُ كان فضولي طاغياً، فسحبني سحباً حتى نهاية الجسر، أفلتَ ذراعي قائلا:

- أركض للمحل.. أركضْ!

أحسسته غير راضٍ إذ بَدَا على وجهه السخط، لكن "من يستطيع الكلام والحبال موجودة"، جملةٌ ظلتْ تَرِنُ في ذاكرتي،

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

أسمعها مدويةً ترتعد لها الأبدان، كانتْ فاتحةً لمذابح متلاحقةٍ مستمرةٍ حتى الآن.

منشورات «الف ياء AlfYaa»

الفصل الرابع عشر

جيران وحرمان

منشورات «ألف ياء» «AlifYaa»

كان "حسين شـاني"الأقـرب إلى نفسـي، كاتبـاً في ثانويـة الديوانية، طويل القامة، ضخم الجسد، أسمر، فاحماً، لا تغادر البسمة قسماته القوية المتناسقة الصلبة،

يقضي معظم أوقاته بعد العمل بين دكان "عمي"ومقهى قريب مجاور لدائرة البريد في مواجهة النهر، يلعب الـدومينو مـع مجموعة من الشباب حول طاولة محددة محجوزة في زاوية المقهى، أبرزهم كان شاباً جميلاً مفتول العضلات، يلف كمّ قميصه وينظر بعينين قويتين ساخرتين إلى من يحيط به، ويتكلم بصوتٍ عالٍ آمراً دون اعتراضٍ من أحدٍ، كان "حسين"يوصيني بجلب علبة سجائر، أتحايل لأقف خلف طاولتهم المنزوية أتفرج على اللعب وأتسّمع لما يحكون به، فلاحظتُ أن الشاب القوي ذا السـطوة صـديق حميـم لـــ "حسـين"واسـمه "عـلـي البصراوي"سأعرف لاحقاً أنه من أشقياء المدينة المشهورين الذين لا يهابون شيئاً، شهم يدافع عن الفقير وينصر الضعيف، ماهر في العراك، قوي الجسد، خفيف الحركة، يندر أن يهزم في مشاجرة.

ينتبه "حسين"إلى وقفتي فيقول:

- أرجعْ للدكان، أرجعْ عمك يحتاجك!

فأفيء إلى نفسي، أهبُ راكضاً إلى المحل متحسساً وَقع الصفعة القادمة.

كنت أخدمه بسرور إذ كان يعتني بيّ، يسألني ويسمع ما أقول، يحميني من كف "عمي"، يكيل اللوم لهُ ويدعوه لاستخدام اللسان بدلاً من اليد.

كم تمنيتُ أن يسمع كلامه، لكن هيهات، العنـف والزجـر

منشورات «الفيـاء» AlFyaa»

متأصلان في دمه، فأحيانا لا أعرف لمَ ودون أي شرح أو كلام تأتيني الصفعة العاصفة، وبعد

الضرب سأعرف السبب لا بلهجة المربي بل اللائم الممزوجة بنعوت الاحتقار مما يجعلني أكثر عناداً وَأُكرر ما نهاني عنه رغبةً في إغاظتهِ، فالضرب لم يعد يهمني، تعودتُ عليه وانتهى الأمر.

جوار مصلح الدرجات الهوائية حلاقة "حمدي"واحد من خمسة محلات حلاقة في الديوانية وقتها، مضاف للحلاق الأشهر "علي طبعاً"الذي يدور في السوق بحقيبته السوداء القديمة، ويقوم بقص شعر الزبائن على الأرصفةِ وبأسعار زهيدة يستطيع الفقير دفعها، أو دفعها لاحقا، "حمدي"نزح حديثاً مع أخوته منذر وزكي من البصرة، فأحتل القلوب بهدوئهِ وأدبه الجم وبراعته في الحلاقة وطلاوته الاجتماعية، كنتُ أجد في دكانه حريةً أفتقدها في محل عمي بالرغم من تشابه أجواء السخرية ورواية الأسرار وترتيب المقالب المضحكة، كان مسالماً يتكلم بصوتٍ خافتٍ، لم يرفع صوته أبداً، ولم أره غاضباً في يومٍ، كان فخوراً بقدرتي المبكرة على القراءة فهو لا يقرأ ولا يكتب، ليس هو فحسب بل نسبة كبيرة جدا من الزبائن، كانت مناضده الصغيرة مليئة بالصحف والمجلات فكانَ يناولني جريدة ويطلب مني القراءة فأقف وسط المحل بين كرسي الحلاقة والزبائن و أبدأ بالقراءة بصوتٍ عالٍ منتشياً من دهشةِ الوجوه المنصتة التي تهب بالتصفيق حال توقفي فأحلق في سماء الدكان مرفرفاً، كان يشاركني المشهد الاحتفالي متشرد اسمه "سيد عليوي"يجوب شوارع الديوانية طوال النهار، حافي القديمين بثوبٍ ممزقٍ وسخٍ، كنتُ أسرع إلى "حمدي"كلما رأيتهُ

منشورات «الفياء» AlFyaa

قادماً من جهة الجسر وأقول:

- سيد عليوي أجه! سيد عليوي أجه.

يضع المشط والمقص على المنضدة ويهرع إلى الرصيف، يمسكه من رسغه النحيف بحنان ويدخل به المحل المبرد، يوسطهُ في الفسحة بين مقعد الحلاقة ومقاعد الزبائن في المكان الذي أقف فيه وأقرأ، يقف ناضحاً من التجوال في وهج الظهيرة ينظر بشرود إلى الوجوه، يناوله صحيفة ذلك اليوم ويقول له:

- عليوي أقره!

كنت أحملق مدهوشاً، أتتبع حبيبات العرق السائحة على جبينه، ينكب بعينين زائغتين على الحروف المفرودة بين يديه، يتلكأ قليلاً، يحاول التهجي قبل أن يربط المفردة الأولى، ثم ينهمر مثل مسجلٍ في قراءةٍ مضبوطةٍ وسريعةٍ، وما أن يتوقف حتى يتعالى التصفيق فتنتشي ملامحه محلقةً في عالمٍ أخر لا هّمَ فيه.

كنتُ أحسه قريباً إلى نفسي، لم أفهم لماذا؟ لكني سأدرك السر بعد أكثر من أربعين عاماً فقد تذوقتُ سعادة من يلقي المجتمع وقيمه وقوانينه وأعرافه خلف ظهره ويكتفي بقطعة خبز وجرعة ماء وتجوال مثل ما فعلَ "عليوي"حتى مماته، فعلتُ مثله حال نضجي فشبعتُ سجناً، وتشرداً، مقاوماً أحملُ بندقية، ثم ضائعاً في بلدان المنافي، وما زلتُ لا أعير لقيمِ وأعرافِ مجتمعي اعتباراً وأجدُ بها علّة التخلف والخراب، فاحتقرتها سلوكاً وعريتها كتابةً.

سأظلُ من الرصيف على شخصيات غريبة ظهرت وسجلت حضوراً يومياً لفترةٍ وجيزةٍ ثم اختفت دون أن تترك أثراً، منها

منشورات «الفيـاء» AlFyaa«

ما لا يمكن نسيانها، تقبل يومياً قادمةً من عمق شارع الصيدليات وقت الظهر متجهة نحو الجسر والصوب الكبير أو بالعكس، منها رجل قصير القامةِ يرتدي ملابس قيّمي مراقد الأئمـة، عمامة أسطوانية حمراء طويلة وجُبّة وعباءة سوداء، أبيض الوجـه يبتسم طـوال الـوقت بوجـوه المـارة والـواقفين علـى الرصيف، تقاطيعه جميلة ولحيته محددة بعناية، يتجول في الشوارع الرئيسية، يقطع سوق التجار ويرجع إلى محطة القطار القديمة، لم تمر أيام على ظهوره حتى لاحقه أصحاب الدكاكين الذين يخرجون من محلاتهم من الجهتين وينـادون بالتنـاوب ضاحكين:

- شَكر أحمر.. شكر أحمر.. شكر أحمر!

ويختبئون، فيتوقف، يستدير، لا يجد أحداً، يعاود المسير، يتكرر الأمر، إلى أن ينفجر مثل مجنونٍ، ينزع عمامته ويرميها إلى السماء فتتبعثر على الرصيف وينهد شتماً بذيئاً، فيضـّج الشارع بالضحك الهادر والرجل المسكين يكاد يتعرى من ثيابه، كنتُ لا أضحك بل أشعر بالحزن في أعماقي وأتمنى مساعدته لكن كيف؟ والجميع يهزأ ويسخر منه، ولا أعرف ولم أعرف لاحقاً لِمَ كان ينفعل من جملة "شكر أحمر"أبداً.

الأخر رجل ضخم البدن، فارع الطول، سمين جداً، يلبس ثوباً رثاً كان يظهر أياماً ويختفي ثم يظهر ويختفي ليظهر مـرة أخرى، يدور حافي القدمين في شوارع المدينة، يمد ذراعه بكفٍ مفتوح مردداً عبارة واحدة فقط:

- عمي جوعان!

حتى كُنيَّ بهذا الاسم، وكلما أعطي قطعة خبز أو قطعة فاكهة

منشورات «الفـيـاء» AlFyaa»

أو أي شيء يأكله على الفور، كان يظهر قبيل الغروب لمدة شهر أو أكثر ويختفي، سيخبرني زملاء جنود من الناصرية حينما خدمتُ العسكرية أنه كان يستقل القطار إلى مدينتهم ليدور في أسواقها.

يجاور حلاقة "حمدي"بائع المكسرات "أبو زهرة"بوجهه الحيوي وعينيه النشطتين المتحركتين طوال الوقت يراقب بضاعته المعروضة على صوانٍ كبيرة منتشرة على مناضد خشبية تبرز قليلا على الرصيف، حب أحمر وأبيض، فستق، جوز، لوز، بندق يتناوب هو وزوجته التي لا تفارق فمها السيجارة بعصابتها السوداء وعباءتها.

بالرغم من يقظتهما الشديدة أنتهز أي غفلة أو انشغال مع زبون لأقتنص كفاً من الحَب أو الفستق أو أي شيء قريب من يدي أثناء مروري، في مرةٍ ضبطني فاشتكاني لعمي، أكلت صفعتين وخرطوش شتائم.

ثم دكان "خليل إبراهيم"الخياط بملابسه الأنيقة وشريط القياس يتدلى من رقبته بعينيه الجاحظتين وقسماته السمراء الجميلة، مات باكراً فأورثني حزناً أتلمس أساه حتى الآن فالموت كان حدثاً نادراً في المدينة، ثم "خضير"بائع شربت العنب، قصير القامة بعينين زرقاوين وقسمات ناعمة، المبتسم طوال الوقت.

في ركن شارع بائعي الخمر والنجارين يشغل محل "محسن الطبل"بائع الفواكه مساحة كبيرة رصيف الشارعين عارضاً سلال فواكه طرية منوعة ونادرة غالية الثمن، تضاء ليلاً بمصابيح مدلاة فوقها فتلمع وتغري العيون، يتسوق منه أغنياء المدينة وموظفوها الكبار، كنتُ أقتنص بخفةٍ ما أن يغفل تفاحة

منشورات «الفيا» «AlYaa»

أو برتقالة، حبة كمثرى أو عنقود عنبٍ، أو ما يقع قرب يدي في اللحظة السانحة ولم يضبطني أبداً.

على الرصيف المقابل تمتد محلات مختلفة، لخياطين، ومصورين، وعطارين، ومطعم كبير سيشتهر باسم مطعم "كريم"، أولاده مؤيد وعماد خاضا تجربة النضال المسلح في ثمانينات القرن الماضي وتشردا مثل حالي في المنافي، المطعم أشهر إفلاسه بعد سنتين فصاحبه الشيوعي كان يُطعِم العمال بالنسيئة على أمل التسديد لاحقاً.

مقابل المطعم محلات صغيرة أصحابها من المسيحيين، يعدون أكلات لم تكن منتشرة في البيوت وقتها، مخلمة، چلفراي، باصطرمه، أجلب كل مساء أطباقا منها عشاءً لعمي حال فراغه من آخر كأس فيلتهمها دون أن يعطيني لقمة واحدة، كانتْ رائحة اللحم تذهب بعقلي إذ كنا وقتها لا نذوق اللحم في البيت إلا نادراً، وهذه الرائحة خلّفَت في نفسي لوعةً و نهماً لا يُشْبَعْ لّلحَمِ صحبني طوال العمر، أتذكر حتى الآن وقفتي في زاوية المحل، نظراتي تنصب على الطبقِ الحار، بخارهُ يرشقني برائحتهِ الشهيةِ، و "عمي"يترنح قبل أن يجلس ليهندس لقماً كبيرةً بقطعة خبزٍ حار يلفها ويدسها بصعوبة في فمه المفتوح على سعته، يتراءى أمامي وأنا أكتب الآن انتفاخ فمه المطبق وهو يدورها أثناء المضغ، في كل مرة أتوقع أن يناولني لقمةً واحدةً، لكنه لم يفعلها ولا مرة طوال الأعوام التي قضيتها في خدمته، ينهمك ولا يرفع رأسه أبداً كأنني غير موجود، لا أدري هل كان يتحاشى النظر نحوي أم ينشغل في الأكل ناسياً ما حوله.. إلى أن يأتي على الصحن تماماً ويمسحه بحواف الرغيف، فأحمل الصينية بصحونها الفارغة لأعود بها.

منشورات «الفيـاء» AlFyaa»

أسلم الأواني وأرجع فأجدهُ قد ملأ المغسلة قيئاً، أقوم بغسلها قاطعاً أنفاسي متأرجحاً على حافة التقيؤ، سيناريو يتكرر كل مساء تقريباً.

حلفت يمين مع نفسي قائلاً:

- إذا شربتُ خمراً وتقيأت فلن أشرب أبداً.

لم أتقيأ مرة واحدة طوال عمري بالرغم من شربي اليومي.

منشورات «الف ياء» «AlfYaa»

الفصل الخامس عشر

جريمة في مقهى

منشورات «ألف ياء» AlifYaa«

على العكس من "عمي"كان "حسين شاني"يعاملني بحنان كأنني أبنه، أحياناً يبعثني لجلب وجبة المساء من المطعم ويدعوني لمشاركته، أمتنعُ، فيلّح، أمعنُ في الممانعةِ، فيلفَ لحمةً في نصفِ رغيف ويحاول فتح كفي المضمومة دون جدوى، أنظر نحو "عمي"وجلاً مقاوماً إلى أن يأمرني:

- أخذْ من عمك أخذْ!

أرخي كفي فتستكين ساخنةً على راحة يدي، أخرج بها مسرعاً إلى الرصيفِ لِألتَهمها بنهمٍ.

كان يعتمد عليَّ بشؤون بيته المستأجر القريب المكون من مطبخٍ صغيرٍ وصالةٍ واسعةٍ وغرفة نومٍ صغيرةٍ والواقع في زقاقٍ بالمحلة القديمة المحصورة بين معسكر الفرقة الأولى وشارع الأطباء، ففي ظهيرة طلب مني حمل أكياس الخضروات والفواكه واللحم إلى بيتهِ، استقبلتنا حال فتحه الباب الخشبي القديم بنتٌ تصغره كثيراً في ثوبٍ بيتي عريضٍ، بادرها قائلاً:

- هذا سلام أبن أخو خليل، مثل أبني!

دخلتُ ووضعتُ الأكياس على منضدةٍ صغيرةٍ في المطبخ، وفيما كان يبالغ في إطرائي أبحرتُ في ملامحها، كانت باهرة الجمال، في قسماتها سحرٌ خفيٌ، سمراء لوّحتها الشمس فخالط سمارها وهجٌ أحمر كحقلِ حنطةٍ ناضجةٍ، كان هذا انطباعي الأول الخاطف، إذ سرعان ما التفتتْ نحوي لتسقط عيناها في عيني مباشرة، بأهدابها الطويلة، شبه المسبلة وكأنها على وشك النوم، فخفضتُ بصري ناظراً إلى الأرض المفروشة بالحجر القديم:

- لا تستحي، لا تستحي هذي زوجتي!

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

قالها مقهقهاً. أسرعتُ نحو الباب، فأوقفني قائلاً:

- دَقِقْ الشارعْ وَشَخّصْ البيتْ!

من يومها أمسيتُ أحمل ما يجلبه من سوقِ الخضار عقب عودته من العمل، يدس براحتي عشرة فلوس، فأحملها مسروراً، ويوماً بعد أخر توطدتْ علاقتي بزوجته الجميلة، ففي اليوم التالي وبعد أن وضعت الأكياس على المنضدة، طلبتْ مني الاقتراب وأفردت لي مكاناً إلى جوارها على قنفه خشبية صغيرة فجلست، ظلتْ تحملق في وجهي طويلاً مرددة:

- الله ومصلي على محمد وال محمد شنو ها الجمال! سبحانك يا ربي! عين الحسود بيها عود. بسم الله الرحمن الرحيم.. بسم الله على هالحسن، الله يحفظك الله يحرسك عيني سلومي!

ثم داعبتني، ممسحةً خصلات شعري الخفيف، بأصابعها الناعمة الطويلة، لفحتني رائحتها المُسكرة فأُصبتُ بما يشبه الخدر، كانتْ تكرر الصلاة على النبي والأولياء وتطلب من ربها أن يرزقها بولدٍ يشبهني.

تطورَ الأمرُ في الأيامِ اللاحقةِ، أخذتْ تقرصني من خدي، أو تحضنني بقوة فأشعر بحرارة جسدها الساخن وطلاوة بشرتها الناعمة من خلف ثوبها المنزلي الناعم الخفيف، ألبث في حضنها مستسلماً مخدراً، أستعيد حرارة فخذيّ فتاة البرميل إلى أن تبعدني لتقبلني من وجنتي قبلاتٍ صاخبةً تَرن في أرجاء البيت وتبتهل للخالق وتترجاه كي يزرع برحمها ولداً حلواً مثلي يسعد أيامها ويخفف وحدتها، فحسين يقضى نهاره بين العمل والمقهى ولا يعود إلا بعد منتصف الليل مخموراً متعباً فينام مثل صخرةٍ ويتركها وحيدة ساهدة مهمومة، كانت تشتكي مع نفسها بصوتٍ

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

مسموعٍ أمامي.

تطور الأمر فباتتْ تستبقيني فترةً أطولَ تحضنني وتبث لي همومها، فتعودتُ عليها وأصبحتْ قريبةً جداً أقرب لي من أخواتي وأمي، إذ صار الاحتكاك الجسدي والحسي يومياً وتشعبتْ الأحاديث فعرفتُ الكثير عن حياتها، كونها من عائلةٍ فقيرةٍ مسحوقةٍ تسكن أطراف الديوانية، والدها مُقْعَدْ بسبب المرض، أمها تدبر شؤون البيت بأجر ابنها الوحيد ومساعدة خالاتها، كانَ زواجها رحمةً لها وللعائلةِ، بيت ومطبخ وزوج، أخبرتني بصوتٍ خفيض بأنها تساعد أهلها سراً، فتطوعتُ بكل سرور لنقلِ أكياس صغيرة من السكر والشاي والرز والخضروات إلى أخيها الذي يعمل حمالاً في السوق.

في إحدى الأيام قَرَعتُ الباب طويلا دون جدوى، فتحتها بالمفتاح الذي زودتني به، سرتُ على أطرافِ أصابعي وصوت ماء يسكب يأتي من جهة الحمام، وضعتُ الأكياسَ على طاولةِ المطبخ، هممتُ بالتسلل إلى الشارعِ، سمعتها تناديني أن أدخل إلى الحمام، توقفتُ متردداً، ألحتْ ساحبةً درفة البابِ المفتوح على الصالة، ومن بين الأبخرة الكثيفة رأيتُها تؤشر بذراعها، تقدمتُ بخطى وجلة مرتبكة وقلبٍ ضجَّ بنبضهِ، أدخلتني وسدتْ الباب، كانَ الحمامُ ضيقاً، والقدر الكبير الحار يتصاعد منه البخار، تحاشيتُ النظرَ إليها، كانت عارية تماماً. نَزَعَتْني دشداشتي وملابسي الداخلية بخفة قائلةً:

- الله جابك لَيّفْ ظهري بالأول، ولو تدري أشگد مشْتَهيه أغسّلكْ!

جلستْ على تختٍ خشبيٍ يرتفع مقدار قدمين، مديرةً ظهرها

منشورات «الفـيـاء» AlFyaa

الناعم، ناولتني الليفة بعد أن نَقَعّتها بالماء ودعكتها بالصابون، قائلة:

- لَيّفْ سلومي لَيّفْ!

كانتْ رشيقةً تميلُ إلى النحافةِ، أضلاعها بارزةً أستطيع عَدَهَا، مصفوفةً بتناسقٍ تحتَ جِلدها الأسمر الأملس، تنزلق كفي المبسوطة من نسيج قماشة الليفة فتسقط عليه لتتيه أصابعي بين الأضلاع هابطةً حتى مرآة الظهر، لا أدري هل كانت تتأوه، أم أنَ ذلك من خيالاتي القادحة، لكن سمعتها تهمس:

- أي عيني سلومي بأيدَكْ حَيلْ.. حَيلْ دَلِكْ!

نضحتُ، فتساقطتْ قطراتي على ظهرها، كانت شبه مخدرةً تكتم آهاتٍ ألقطُ ذيلها، إلى أن نهضتْ قائمةً واستدارتْ بمواجهتي، كنت أصل إلى أسفل نهديها الصغيرين الرامحين بحلمتيهما الداكنتين، لم تكف عن التحديق في وجهي المذهول، فلأول مرة في حياتي أكون مع امرأة عارية عن هذا القرب، صحيح أن أمي أخذتني معها إلى حمام النسوان لكن ما أتذكره مغطى بضبابٍ كثيفٍ، جدالها مع صاحبة الحمام التي أبدت ملاحظة عن كوني كبيراً وأفتهم، ثم دخلنا إلى قاعةٍ كبيرةٍ غارقة في الضباب ومزدحمة بنسوة عاريات مغلفات بالأبخرة، سمينات ورشيقات، طويلات وقصيرات يصدر منهن دوي متصل، أدهشني المشهد دهشةَ طفلٍ بريء لم يبلغ السادسة من عمره، أما الآن فالأمر مختلف، عبرتُ العاشرة وبِتُ أعرف من قصص الزبائن ونكات عمي وصحبه ما يعنيه الجسد، وفتاةُ البرميل فَتَحتْ عيني على عالمٍ كانَ مخبأً وممنوعاً، و"حميدة"زوجة كاتب المدرسة تقفُ عاريةً أمامي على بعد أقل

«AlYaa منشورات «الفيا»

من ربعِ مترٍ تحملق بيّ وفي وجهها نشوة. قالتْ بلهجةٍ طفوليةٍ ومرحةٍ:

- أي هسه أَسَبْحكْ!

واستدرت، صارتْ خلفي، أجلستني على التختِ، صَوبَنَتْ كفيها، غرفتْ بطاسة معدنيةٍ ماءً فاتراً من قدرٍ ثانٍ، صَبتهُ على رأسي وراحتْ تفرك شعري بأصابعها وهي تقول:

- سلومي غَمّض عيونَكْ.

دَلكّتْني قطعةً.. قطعة، غسلتْ جسدي من الرغوة، ثم أستخفها المرح فابتدأت بصب الماء تارةً عليَّ وأخرى على جسدها لتقول في نهايةِ المطافِ ضاحكةً:

- خلص استدر، لنغْسْلْ سوية!

لم توصيني بالكتمان، لكنني لم أبح لأحدٍ، كنتُ في أعماقي خائفاً على هذي العلاقة التي قلبتْ عناءَ الخدمةِ وقسوة "عمي"والأجواء المريبة إلى جنةٍ وعسلٍ ومتعٍ لا أعرف كيف أصفها، كتمتُ الأمر تماماً وغرقتُ بحنانها وبكرم زوجها وحرارة مشاعره وصار البيت الصغير والأحاديث والحمام الذي بتنا نغتسل فيه ونلعب ضاحكين حلمي ومبعث سروري، فبقيتُ طوال النهار أتوق متشوقاً للحظة التي أرى فيها "حسين"قادماً من جهة الجسر الخشبي حاملاً أكياس الخضر والفواكه واللحم.

هذه الجنة الخفية ولحظاتها لم تدم طويلاً، تبخرت في يوم مشهود لا أنساه ما حييت، فعلى أثر ما حدث في ذلك الغروب الموحش العنيف، أمست علاقتي بأقربِ الناس مضطربةً، صرتُ أخاف من الآخرين وأضع مسافة بيني وبينهم كمن على

منشورات «الفـيـاء AlIYaa»

وشك الهرب بأقصى ما يستطيع من قوة، بقيتُ سنوات طوال مهزوزاً مذعوراً فاقد الثقة بنفسي، فقبيل الغروب بَعَثَ بطلبي، جاء صاحب المقهى إلى محلنا حاملاً أقداح شاي وأخبرني بأنه يريدني في المقهى، أسرعتُ مسروراً، وجدته يلعب مع شلته الدومينو، سأعلم لاحقاً أنهم يلعبون القمار وبمبالغ كبيرة يتبادلونها من تحت الطاولة هذا ما سمعتهُ عقب الحادث من أصحابه، كان يمرح ويسخر ويتبادل النكات أثناء اللعب، وقفتُ جوار منضدتهم حتى أنتبه صاحبه الشقي مفتول العضلات "علي البصراوي"إليَّ فنبهه قائلاً:

- أجه سلام!

وضع قطع الدومينو ونهض ليستدير من خلف الطاولة ويختلي بيّ في فسحة قريبة من الموقد، أخرج من جيب ثوبه الأبيض العريض مبلغاً وقال:

- عمو سلام أشتري لي بطل عرق وملاعيبه أنت تعرفها ووديها للبيت!

أسرعت وما أن صرت على رصيف الشارع حتى هببتُ راكضاً لا لم أكن أركض بل أطير، حملتُ ما تسوقتْ، أخبرتُ "عمي"وسرت حالماً متشوقاً للبيت وحميدة، لضحكتها، لعينيها العسليتين الناعستين، لأصابعها الطويلة الناعمة، لقبلاتها الصاخبة، وأحاديثها الساحرة، طرقتُ البابَ، دخلتُ إلى المطبخ، وضعتُ الأكياسَ على المنضدةِ، وفيما كانت تخرج الفاكهة والخضرة وتضعها في حوض المغسلة، سمعنا باب البيت يُدفع بعنفٍ، التفتنا مذعورين فرأيناه يدخل ضارباً الأرضٍ بقوةٍ، تَجاهَلنا تماماً كأنهُ لم يرنا، لا بل لم يرنا، تراجعنا إلى الحائطِ

منشورات «الف ياء» «AlfYaa»

نحملق فيه وهو يبحث في جرارِ المطبخِ مهمهماً بكلامٍ غير مفهوم والشرر يتطاير من عينيهِ، التصقتُ بساقيها الباردتين المرتعشتين، كنا نرتجفُ والرعبُ أخرسنا، أخرجَ سكينة تقطيع لحم طويلةً لاهثةً، خبأها في جيب ثوبه الجانبي الطويل، وأثناء استدارته مرتْ عيناه على وقفتنا خطفاً دون أن يلمحنا كأننا لم نكن، هبَّ شاتماً لاعناً قافزاً نحو الباب الذي تركه مفتوحاً، ضمتني بقوةٍ إلى صدرها المرتجف للحظات ثم دفعتني برفقٍ ناطقةً بصوتٍ لاهث ضعيف:

- سلومي إلحْگه شوف أش صار؟

تماسكتُ وأطلقت ساقيَ في أعقابه، لم أجد له أثراً في الشارع، أسرعتُ في هرولتي فرأيته من بعيد يتجاوز دكان "عمي"في طريقه إلى المقهى، ركضتُ بأقصى طاقتي، ومن حافة محل "الإسكافي"رأيته يدخلها فاندفعتُ حتى بابها المفتوح ملاحقاً بعيني قامَته الطويلة من الخلف تخطو بحزمٍ نحو طاولة اللعب المنزوية، توقفت الشلة عن اللعب، سادَ صمتٌ غريبٌ أَخرَسَ رواد المقهى حينما شَهَرَ السكين عالياً، صرت قريباً منه جداً لكنني عاجزٌ تماماً عن الفعل والقول أو الحركة، موقفٌ سيتكرر في جبهة الحرب مع إيران، وبين الثوار في الجبل، والموت أراه جلياً بسكين، بطلقةٍ، بشظيةٍ، هوى طاعناً رقبة "علي البصراوي"الذي تلقاها بصمتٍ واستسلامٍ، فالمباغتة شلته تماماً هو الشرس الذي لا يجرؤ أحدٌ على الاحتكاكِ بهِ، بعد الطعنه الثانية حاول النهوض لكن خانته قواه فهوى خائراً على التخت بينما قفز اللاعبون من حوله متفرقين، و"حسين"مثل مجنون، يطعن، ويطعن، ويطعن مردداً بصوتٍ مخيفٍ وعلى وجهه ظل ابتسامة أو هكذا خيل لي:

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

- ولك علاوي.. أتهددني.. أتهددني!

يطعن ويعيد الجملة إلى أن همد "علي"ساقطاً على بلاط المقهى سابحاً بدمهِ، كنت قريباً جداً حتى أن سيل الدم المتدفق والسائح بغزارة بَلَغَ قدميّ، فتراجعتُ مذعوراً ونظري مصلوب على المشهدِ، عاد الهدوء إلى قسمات حسين، رمى السكين على الجثةِ، مسحَ كفه الملطخة بالدم بمنديلٍ أبيض أخرجه من جيبه، ثم استدارَ وسطْ ذهول الجميع وخطا بين الكراسي إلى الشارعِ، واتجه نحو مركز شرطة المدينة القريب.

يومها تركتُ كل شيء وعدوتُ من الجسر حتى بيتنا في "العصري"، ارتميتُ في حضن أمي ورويت لها ما رأيته، أبقتني في حضنها حتى تخافتتْ رعشتي، بخرتني بحرق الحرمل وقرأت آيات من القرآن، لم ينفع ذلك، فقد صرتُ مذعوراً، أرتاب من أقرب الناس متوقعاً في أي لحظة يشهر سكيناً ويطعنني، في اليوم التالي ذهبتُ إلى بيتهم فوجدت بابه مقفولة بقفلٍ كبير من الخارج، وسمعت من "عمي"أن "حميدة"عادت إلى بيت أهلها البعيد، بينما "حسين"سيقضي عشرين عاماً في السجنِ.

منشورات «الفياء» «AlFyaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الفصل السادس عشر

ثورة

منشورات «ألف ياء» «AlifYaa»

مثلَ عصف ريح انفجرتُ، هدرتُ بما لا أدري، كيف ومن أين انبثقتْ واصطفتْ الكلمات حارة سريعة تتوالى في جملٍ متماسكةٍ مهذبة أول الأمر ثم سافلةٍ، أقذفها بوجههِ وسط حشد تجمّعَ في عزّ الظهيرة، تخرج من فمي بصوتٍ غَلظ بغتةً كأني كبرت سنيناً في لحظةٍ ما أن ذهبتْ حتى أحسستُ بالهولِ مما فعلتـهُ، هربـتُ مبتعـداً، عـبرتُ الشـارعَ إلى رصـيفِ النهـر وركضتُ تحت الشمس

اللاهبة عكس مجراه حتى غابات النخيل بطرف المدينة، ومن فتحةٍ منزويةٍ بحائطٍ طيني، مغطاةٍ بسيقانِ القصبِ الكثيفِ وَلجتُ بستاناً، غمرتني ظلال الأشجار الكثيفة وأصوات الطيور وحفيف اهتزاز السعف الخفيف، مشيتُ حتى لاحت سقيفة عنبٍ فتهالكتُ في ظلالها، لأترسب عميقاً منفصلاً عن كل شيء، عن الدكان وانفجاري، عمي وأبي، الناس وفعلتي، هربتُ بخيالي كأنني لستُ من هذا العالم و لن أرجع إليه أبداً، فيوم القيامة ينتظرني عند المساء.

وكشأني في المواقف الحرجة التي لا عَدَّ لها، راحت مخيلتي تنسج قصصاً مختلفة النهايات تنجيني من الحساب، أشدتُ كوخاً صغيراً تحت سقيفة الكروم ونسجت قصة وحياة أقضي فيها يومي ألعب وأسبح في الشط القريب وأنام في فراش من سعف النخيل مردداً:

- ما يعثرون عليّ أبداً!

ارتختْ أعصابي، هدأتْ خواطري فجعلتُ أنود من النعاسِ والتعبِ إلى أن سقطتُ في نومٍ عميقٍ، لا أدري كم بقيت غافياً، لكنني استيقظتُ مذعوراً على صراخ أبي الهادر:

منشورات «الفيحاء» AlFyaa«

- أشسويت ولك أشسويت؟

استيقظتُ وشمس العصر تسلقتْ أعالي النخيل، لبثتُ ساكناً بمكاني، مترسباً في الظلالِ أنصت إلى حفيف أجنحة، تغريد بلابل، نباح كلابٍ بعيد وصدى ضجيج يأتي من جهة المدينة، وقليلاً، قليلاً شَحَبَتْ قصص مخيلتي متبددةً مع نهاية النهار، فأعادني الواقع الصلب إلى الظهيرة وانفلات لساني، رِحْتُ أستعيد الأحداث منذ اللحظة التي كلفني فيها "عمي"حتى الكارثة علّني أفهم أي فعلٍ مجنون أتيته، فبدا مسار الأحداث مألوفاً أقومُ به منذ الأيام الأولى والقصة ببساطة كالآتي:

بدأ الأمر في يومٍ من أيام الأسبوع قادني صباحاً من يدي إلى بيتٍ صغير خلف سينما "الجمهورية"الصيفي، فتحَ بابه بمفتاحٍ، عبرنا العتبة فأصبحنا في غرفة كبيرة يشغل جانبها الأيسر طباخٌ ودواليب، وفي ركنها الأيمن فتحة بحجم باب تؤدي إلى باحةٍ ضيقةٍ مكشوفةٍ مستطيلةٍ محصورةٍ بين حائط الجيران العالي تقابله غرفتان متجاورتان، تنتهي بسلالم حجرية تصعد إلى سطحٍ واطئ، الغرفة الأولى مفتوحة فيها أرائك تحيط بمنضدة خشبيةٍ نظيفة يلمع سطحها بالضوء المتسرب من سماء الباحة، والأخرى مسدودة، التفتَ وأمرني محذراً بسبابةٍ رامحه تهتز في وجهي:

- تضع الأكياس على الطاولة وتقفل الباب وترجع للمحل وما تگول لأحد أبدْ.. أبدْ.

وضع مفتاحاً على كفي المبسوطة وطلب أن أضعه بنفسي في درج مزوي من أدراج المحل وكرر سؤاله:

-أفهمتْ؟

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

أجبته متصنعاً الخشوع بينما الفضول أنتشر في حواسي كلها:

- صار!

كان له ما أرادَ، أخطفْ قدميَّ لأشتري البيرة والعرق والويسكي من دكان "كامل حنه"المجاور لنجارة أبي، أمرّ على صاحبِ مطعمٍ صغيرٍ مسيحي أشيب الشعر وديع القسمات يحضّر وجبات لم تكن شائعة: مخلمة، كبة برغل، چلفراي، كبة تمن، لحم روست وسلطات منوعة، يستقبلني بوجهٍ باسمٍ ويناولني كيساً أَعَدَهُ مسبقاً، أحمل العدة الثقيلة وأذهب بها إلى البيت الفارغ، أرتبها على الطاولة، أقفل الباب بالمفتاح وأعود إلى المحل، لكن مع تَكَشِفْ الأسرار المتعلقة بالجسد والشهوات، وما رأيته من مصلح الدراجات وصبيته، من قريبي الصبي الذي استدرجني إلى البناية المهجورة، من صبية برميل القمامة التي أذاقتني لذةً فريدةً لم تمحَ كل العمر، مضاف إلى ما يقصهُ الزبائن من أسرار ونكات عمي البذيئة، كل هذا حَرّكَ فيّ الفضول لمعرفة لمن الأكل والعرق والبيرة والويسكي والمزات المكلف بإيصالها إلى بيتٍ غير مسكون في أيامٍ محددة بالأسبوع، تعمّدتُ في ظهيرةِ التأخرَ، إذ قمتُ بجولةٍ في سوقِ التجارِ المسقف فغمرتني ظلاله الكثيفة التي تحملني إلى أماكن بعيدة غريبة لا يعرفني فيها أحدٌ أتخيلها في أحلام يقظتي وغفوتي، سأبلغها بصدفٍ عجيبةٍ وأقضي نصف حياتي الثاني فيها.

وصلتُ متأخراً، دورتُ المفتاحَ بالقفلِ، أدرتُ مقبضَ البابِ، دفعتها بكتفي عابراً العتبة، رددتُ البابَ بهدوءٍ وببطءٍ فلم تصدر صوتاً، نقلتُ خطواتي بحذرٍ شديدٍ، ساكن الذراعين، أخطو مثلٍ لصٍ كي لا تصدر حمولتي من الأكياس خشخشةً، عبرتُ فتحةَ

منشورات «الف ياء» «AlfYaa»

الباحة المكشوفة، فسمعتُ أصواتاً تأتي من الغرفةِ التي يتوجب أن أضع حملي فيها، لم أكن خائفاً، كنتُ شديد الفضول لمعرفةِ لمن أجلب لأكثر من سنواتٍ ثلاث أكياس الطعام والشرب في الظهائر التي ارتبطت بأسرار الجسد والشهوات المكبوتة، ستتعمق هذه الأحاسيس مع بلوغي سن الحلم واكتوائي بنيرانها وستمسي موطن نشوة وتوهج وذروة من ألذَّ ما يكون.

كان للغرفة شباك يطل على الباحة المكشوفة، لا يستطيع المرء رؤية شيء لقوة ضوء الشمس، تجاوزته مقترباً من الباب فأنفتح بصخب جعلني أجمد متشبثاً بالأكياس بين يديَّ المرتعشتين من المفاجأة، لحظات وتماسكتُ مبتهجاً لمرأى امرأة جميلة بوجهٍ أسمر وعينين واسعتين وشفتين مكتنزتين وأنف مصقول وتقاسيم متناسقة تجعل العين ترقص تُقبل نحوي تحمل عني الأكياس وتعانقني مرددة:

- سبحان الخالق أش لون صبي أنت!

وضعتْ الأكياسَ مكدسةً لا كما أفعلُ عادةً واستدارت بمواجهتي مرددةً:

- الله صَبَكْ من نور مو من طين، من نور، من نور، هو حبك.. الله حبك!

لم أفهم مغزى كلامها، فتفاقم ارتباكي وكأنني سأشرع بقراءة سطور في صحيفة يومية لزبائن "حمدي". أخذتني إلى حضنها، ثم جلست ووضعتني في حجرها وانهالتْ عليَّ بأسئلة تتعلق بحياتي، كنت أجيبها مخدراً بعطر جسدها الأسر، ما زلتُ أشمهُ كأنها جواري الآن، تفاصيلها شبه عارية تحت ثوبها الخفيف الأزرق بلون سماء الشباك المفتوح، أشبعتني عصراً وعضاً

منشورات «الفياء» AlFyaa«

خفيفاً وشماً صَعَدَ بيّ إلى فسحِ لذةٍ مختلفةٍ لم أشعر بمثيلها قط بالرغم من تجربتي لمختلف أنواع اللذة في رحلة العمر، لذةٌ بريئةٌ حيث لا يذهبْ التداخل إلى أقصاه بل يبقي محلقاً في فضاءِ الروحِ، انتزعتُ جسدي من حجرها ووقفتُ قائلا:

- إذا تأخرتْ عمي يضربني، لازم أرجع للدكان!

- يا عيني يا عيني حلو وحبوب، حلو وحبوب!

نَهَضَتْ، رفعتني من تحت إبطيّ عالياً وهبطتْ بيّ لتضمني إلى صدرها بقوةٍ، ثم تلقفتْ شفتيّ البريئتين حتى تلك اللحظة إذ لم تُمَس لا من صبية البرميل، ولا من صبي الظهيرة، أمعنتْ في شدّي والتهمت شفتيَّ فتركزتْ روحي في فمي وذابت في فمها، حدث ذلك في لحظةٍ خاطفةٍ، أنزلتني وقالت:

- أركض حبوب.. أركض!

ومنذ تلك الظهيرة عاد البيت الفارغ يشغلني، فأتخيلهُ بلذةٍ وأضمهُ بصمتي كسرٍ جديدٍ من أسرار مدينتي الوادعة التي تبدو ظاهراً كسولة، يومها رتيباً، ناسها بسطاء، مساكين، لكنها تَبَدّتْ مكتظة بالخفايا، ضاجة بالعنف، غريبة عجيبة.

أضحيتُ أنتظر بلهفةٍ تكليفي بمهمة حمل عِدْة جلسات الظهيرة، تفننتُ في التأخير الذي يضعني غالباً بأحضان امرأة تتبدل باستمرار، والممتع أن طبيعة الاستقبال واحدة من جميعهنَّ، لهفة وعناق وأسئلة عن حياتي تتكرر من أفواه نساء بوجوهٍ فاتنة وأجساد عطرة وأصوات حنونة آسرة سقطنَ في بحر أحلامي. وأنا أستعيد تلك التجارب المندثرة كتابةً فكرت بِسر الاستقبال الحافل من نساء مختلفاتٍ، أراهنَّ مرةً واحدةً، نساء انطبع رسمهنَّ وخيالهن في كياني بكل ما يَحملنهُ من

منشورات «الفياء» «AlfYaa»

روائح وأنفاسٍ وأصابع وشفاهٍ ونبراتِ صوتٍ ووقعِ ضحكٍ،

- هل كنَّ يتبادلن الحديث عني؟

- هل هي لهفة نسوةٍ سَحَقهنَّ المجتمع وجعلهنَّ يتخذنَّ من بيع الجسد مهنةً؟

- هل توقهن إلى براءة المشاعر يدفعهنَّ إلى مداعبتي وملاعبتي بذلك الحنان الدافق؟

يفكر لأول وهله الشريف في داخلي ثم يطغي الآخر السافل فأعزوه إلى شدة شهوتهنّ لبريء يتظاهر بالسذاجة.

حرصتُ على العودةِ دون تأخير بعد إنجاز المهمة مما جعل عمي يثق بيّ ثقةً شديدةً وظّفتها لمباهجي بين أذرعِ وأحضانِ نسوته، لكن في ظهيرةٍ حارقةٍ انتزعتُ جسدي من حضن بنت بيضاء هرعتُ عائداً إلى الدكان فوجدته ينفض قميصه من شعر زبون أمام المرآة، وبعينين تشيطنتا رصدتُ البهجةَ التي انتشرت في تقاطيعه حال سماعه جوابي على سؤاله التقليدي:

- كِلْ شِي تَمامْ؟

- تمام عمي!

قلتُ مع نفسي:

- سأغامر اليوم وليكن ما يكن!

تبعتهُ وقفزتُ لأتوارى في مدخل دهليز أظلم مجاور حال توقفه أمام الباب، تلفتَ قبل أن يدس المفتاح في ثقبهِ، أظهرتُ رأسي، رأيتهُ يدفعها بكتفه الأيمن ويغيب، انتظرتُ ما يقارب ربعَ ساعةٍ، ثم أسرعتُ نحو الباب فتحتها بمفتاحي بهدوءٍ شديدٍ؛

منشورات «ألفياء» «AlfYaa»

صالة المدخل ساكنة خاوية، الحركة تأتي من عمق الدار، لبثت دقيقةً بعد أن رددتُ الباب أصيخ السمع، ثم تسللت إلى حافةِ مدخل الباحة، ومن وقفتي المنزوية رأيتهم يخرجونهن شبه عاريات من الغرفة التي أضع فيها الطعام والشراب إلى الغرفة المجاورة التي سأفتحها في يوم لأكتشف أنها عارية إلا من سرير نومٍ كبير ومناضد صغيرة على الجانبين عليها أوراق كلينكس، يخرج كل واحدٍ مع واحدةٍ، يمكثان وقتاً يتعالى فيه صراخ وآهات وخوار وزئير يستمر وقتاً طربتُ له إلى أن تخفت المعركة متحولة إلى كلامٍ مزيج من الفشار والضحك، يعودان ليخرج الآخر مع واحدة أخرى، رأيت العديد من أقربائي ومن أصدقاء عمي، رجال لديهم أسر وأولاد بعمري ومحلات، بعضهم معلمين في مدرستي، من يومها بتُ أتعاملْ معهم في المحلِ بلا اهتمامٍ وأنفذ ما يطلبونهُ بتثاقلٍ وبطءٍ وتململٍ يظهر بحركتي الكسولة، بينما بلغ داخلي الدرك الأسفل فأبدعتُ في إعداد ترتيب الجلسات، وتفننتُ في التبكير للقاء النسوة اللواتي أضحيتُ محبوبهن الصغير، يداعبنني بودٍ ونعومةٍ، وبتُ أتأخر إلى أن يحضرنَ البقية، صارت الأوقات أحلى والأحاديث أَعْسَلْ، رحنا نلعب ألعاباً فيها الكثير من البراءة والكثير من الجسد وهو يمارس فعله في إثارة لذات تنبثق من أعماقه، كنَّ دافئات حنونات لديهن فيض حب محبوس يغدقنَ به عليَّ فأغرق ناسياً الوقتَ، سأبقى أكنُّ للعاهراتِ مودةً خاصةً وفهماً يشعرن به، ممن كنَّ يَبِتْنَ في غرف الطلبة المستأجرة سنوات الدراسة الجامعية ببغداد، فأستمع إلى قصص حياتهن المأساوية مما يُزعِج أصدقائي الصيادين فيستعجلونني لإنهاء الحديث، فكلٌّ شاهر سلاحهُ ومستعد للرمي، كنَّ يتعلقن بي ويشاركنني فراشي بقية الليل من دونهم.

منشورات «الفيا» AlYaa

يداعبنني وهنَّ لا يعلمنَّ أنَّ صبية البرميل وصبي الظهيرة أفقداني براءتي، أستطيع القول إني بدأت بالتهتكِ منذ تلك الأيام، لم يَعُدْ يَهُمَني التأخير، لم أعد أفكر بالدكان وعمي والواقع، وأنا وسطهنَّ أمير صغير يضحك ويرتعش وتشتعل وجنتاه ويُدَغْدَغ، أضحيت أقضي وقتاً أطول مع الضاحكات الجميلات المعطرات بملابسهن الخفيفة وأرواحهنَّ الطائرة بأجنحةِ الدعابةِ والهزلِ، أحيانا يَكُنَّ أربع، يحطنَ بي ويلعبن بي عضاً وتدليكاً وتقبيلاً وضرباً وضحكاً وقرصاً وشماً، أنسى كل شيء في الدنيا حتى وجودي وأكاد أموت فرط البهجة. وفي لحظةٍ تُشبه القيامةِ دُفِعَتْ الباب كانَ "عمي"، ماتَ الضحك والحراك، خَفَتَ الفُراشُ، وَجَمَدَ الهواءُ، كنتُ بحضنِ شقراء، ضجّ قلبي هلعاً فأمعنتُ في الالتصاقِ بها حتى عدتُ أسمع قلبها يضرب ثوبي المبعثر وجلدي المنكمش.

- يا إلهي.. يا إلهي

- خلصني من ها لشدة!

هتفتُ مع نفسي.

لم تكن عاصفةً. بركانٌ هاجَ وسالتْ حممه أنهاراً، فأن يَعثر عليَّ وسطَهن، وديعة أخيه الكبير هذا ما لا يستطيع تخيلهُ في أسوء الأحلام.

لم يقل سوى جملة واحدة:

- سلام إلحگني للدكان!

قالها بصوت بدا حيادياً واستدار ليغيب في الباحة، أسرعت قافزاً من وسطهن، وجريتُ خلفه، تتبعتُ قامته حتى غيابها في

منشورات «الفياء» «AlYaa»

الشارع المؤدي إلى الدكان.

سقطت في حيرتي.. وأية حيرة!

- ضبطني في أحضان نسوته؟

- كم صفعة أكلتها لذنوبٍ بسيطةٍ فكيفَ بهذي المصيبة؟

- كيف أوضح الأمر له؟

- وأي عقاب ينتظرني؟

غرقتُ بالأسئلة فكياسته أمام نسوته المرحات تخفي بركاناً، أتحرك ببطء شديدٍ مقلباً الأمر، سبعون متراً تفصلني عن ساحة الحشر، مع كل خطوة أقطعها أزداد يقيناً باستحالة مواجهته في هذا الوقت من الظهيرة والشوارع تخلو أو تكاد.

لكن إلى أين أذهب؟ فأينما وَليتُ وجهي فثمة باب قيامة مشرعةً بانتظاري، بيت أهلي، الدكان الذي بتُّ أراه أمامي، محل أبي، فأين المفر يا إلهي؟

لم يبقَ سوى عبور الشارع العريض، عدّتُ أراه خلف الواجهة الزجاجية؛ يقطع الفسحة من الباب حتى كراسي الزبائن، يتوقف في منتصف المسافة، يحملق في مرايا الجدران ويواصل المشي حتى حافة الباب المفتوح كمن يلوب من ألَمٍ.

- أأدخل عليه وهو بهذا الوضع؟

- مستحيل.. مستحيل!

أسأل وأجيب ورأسي يدوّي ويشتعلْ، لكن لم أفقد اتزاني، وصلتُ منتصف الجادة، عشرة أمتار تفصلني عن جهنم المستعرة خلف الزجاج، عشرة لا غير، كنتُ مرعوباً رعباً لا

منشورات «الفيحاء» «AlFyaa»

يوصف وأنا أتخيل لحظة دخولي وأقباله عليّ، أتخيل عينيه الصغيرتين المشتعلتين وكفه المتينة المرفوعة، فانحرفتُ نحو دكان "حمدي"المجاور، توجهي عفوي بادرَ به جسدي الراجف الواهن لتخفيف عنف المواجهة أو هكذا كنتُ أظن، وأنا معتاد على اللجوء إلى دكانه عند اشتداد الحر لوجود مبردة هواء لا نمتلك مثلها، فأقضي وقت ذروة الحر مستمتعاً بالبرودة وأحاديث أصدقائه اللائذين من وهج الظهيرة. جلستُ في زاوية لا يستطيع الناظر من الباب رؤيتي بسهولة، فكرسي الحلاقة الذي يجلس عليه "حمدي"ويديره بمواجهة جلسائه يحجبني قليلاً.

استرخيتُ مستمتعاً بتيار الهواء البارد المنعش ناسياً جهنم المشتعلة في الجوار، أغمضتُ عينيّ فحلمت بلحظة الخلاص من الدكان وعمي والعائلة والعمل الذي يبدأ من أول النهار حتى ساعة متأخرة من الليل، فتخيلتني أسيح في الشوارع والأسواق والبساتين والسواقي دون همٍ، وفيما كنت أبحر على ذلك القارب هبتْ عاصفة هوجاء قذفتني من خشبة أحلامي، استيقظتُ مذعوراً فوجدتُ نفسي ساقطاً على البلاط البارد "وعمي"يصرخ وينحني عليّ يضربني بكفٍ مفتوحةٍ على رأسي تارة ويركلني بحذائه في أخرى، ضربات سريعة قوية مؤلمة مصحوبة بشتائم بذيئة ونعوت نابية غير التي أعتدتُ عليها، فهرعَ جميع من في الدكانِ ليمسك بهِ ويفصلهُ عني، ومن بين كرسي الحلاقةِ ومنضدة المرآة نفذتُ راكضاً إلى لهبِ الظهيرةِ، صرتُ على الرصيفِ، التفتُ خلفي فرأيته يفلت متخلصاً من الأذرعِ التي كانت تعطله، هبَّ نحوي راكضاً، أطلقتُ ساقيَّ للريحِ، عبرتُ الجادةَ العريضة، توقفتُ جوار كومٍ من الأحجارِ الصغيرةِ جنب الرصيف المقابل.

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

هنا في هذه اللحظة، لا أدري ما أصابني التفتُ وجدته يقتربُ فتجسّمتْ قسمات وجهه ناضحة بالشر والاحتقار والحقد، كانَ الجَمعُ يهرول خلفه، مشهدٌ سأظل نادماً عليه كل العمر وعلى أمنيتي لحظتها بأن لا يكون هذا "عمي"، صار قريباً يكاد يطبق عليّ، فوجدتُ نفسي أحمل أحجاراً وأرميه صارخاً:

- دمرتني، دمرتني!

وابتدأتُ أشتمه وأسبه بكلمات بذيئة جعلته يتوقف جامداً مدهوشاً بينما الجمع يقبلُ نحوي بوجوه مستنكرة يتقدمهم "حمدي"مردداً:

- لا.. سلام.. لا.. سلام.. لا.. لا.. لا.. عيب.. عيب.. عَمَكْ.. ولك هذا عَمَكْ!

حَجَبهُ الجمعُ، فأطلقتُ ساقيَّ للريحِ راكضاً عكس مجرى النهر ولم أتوقف إلا بعد أن تركتُ المدينة خلفي وصرت جوار البساتين المحيطة بها.

لم أعد إلى البيت ليلتها، تسللت مع نزول الظلام إلى بيت عمتي الأرملة "سهام"، قرعتُ البابَ، فتحتها وأدخلتني متسائلةً:

- ها عمه شكو خو ما بيك شي!

رميتُ نفسي في حضنها وانفجرت بنحيبٍ مهضومٍ، ضَمتني وراحت تمسَح على شعري مرددة:

- لا تبچي.. لا تبچي عمه وسولف لي!

حكيتُ لها القصة، لامتني على تطاولي ومع نفسها سمعتها تردد بصوتٍ خافتٍ:

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

- ألف مرة گلتلك خوية خفف قساوتكْ وَليّنْ قلبك!

فرشتْ لي في باحةِ الدارِ جوار أولادها الصغار قائلة:

- نامْ عمه.. نامْ وباچر يحلها حلال!

في مساء اليوم التالي جاءت أمي بصحبة عمتي، وأخبرتني بأنهم قلبوا الدنيا بحثاً عني، وأوعدتني بعد أن رفضتُ العودة معها بأن أبي سوف لا يضربني بعد اليوم، وهو يريد الكلام معي وكان وعدها مجرد كلام، وأنبتني على جسارتي:

- مَحد گبلك مسوي عَمِلْتَكَ، تغلط وتضرب عمك بالحجار وسط السوق، يا فشلة الفشلة أش راح يگولون علينا الناس.. أشلون مربيه أهله« صَخَّمتْ وجوهنا!

ظلتْ صامتةً طوالَ الطريقِ، في الدهليز ضمتني تحت عباءتها وعبرتْ حوش الدار الواسعة، كان أبي كعادته يُعّمرُ كأساً جوار الحديقة، أدخلتني الغرفة الملاصقة للشارع وأمرتني بالنوم فيها دون إصدار صوت، فقضيتُ تلك الليلة في جهنمها، استيقظتُ متأخراً وبعد الفطور قالت لي:

- أبوك ينتظرك بالدكان!

تمنّعتُ خوفاً من الضرب، فأخبرتني بصوتٍ واثق بأنه سيتكلم معي فقط ولا يرفع يده عليّ، ذهبتُ وجلاً غير مصدقٍ، صعدتُ الرصيفَ، أصبحتُ أمامَ باب الدكان، ترك منشاره، نزع قلمه من خلف أذنه، أستدار بمواجهتي ونظر إليّ طويلاً بعينين متعاطفتين لا أثر للغضبِ فيهما قبل أن يقول:

- اللي سويته غلط بويه، هذا عمك!

نفضَ نشارة الخشب العالقة بقمصيه وقادني بيد لينة من يدي

منشورات «الفيـاء» «AlFyaa»

نحو دكان عمي، كنتُ مذهولاً من الرقة المفاجأة التي استيقظتْ بغتةً في أمي وأبي والتعامل الشفاف واللوم بنبرةٍ مترجيةٍ لا تخفي عليّ مقارنةً بنبرةِ أصواتهم الزاجرةِ غير المباليةِ قبلَ ثورتي، كنت أرتعد فينتفض كفي بين أصابعه فيضغط عليه ويطمئنني:

- لا تخافْ.. لا تخافْ أعتذر من عمك!

لَمَحنا من خلف الزجاج فخرج من دكانه، وقفنا إزاء بعضٍ، لا أثر للغضب على قسماتهِ التي بدا عليها الأسف والألم، أطالَ النظر نحوي صامتاً، لم أستطع مواجهة عينيه رددتُ كلمات الاعتذار ووقعتُ على كفيه، أغرقتهما قبلاً، سحبهما ودخلَ دكانه.

من يومها تخلصتُ من عمي والدكان والعائلة لأسيب في "الديوانية"مراهقاً لم يترك شيئاً دون تجربته بعد أن أزحتُ الرقابة العائلية وقوانينها الصارمة جانباً.

منشورات «ألف ياء» AlifYaa»

الفصل السابع عشر

رايات العزاء

منشورات «ألف ياء» AlifYaa«

بعد ثورتي على عمّي وعالم الحلاقة والعمل، فَلَتَ عناني، ولم يعد يهمني شيء لا عم ولا ناس ولا أب، تبدلت الوجوه والانفعالات فرأيتُ في نظراتهم أسفاً ممزوجاً بخشيةٍ وحذر، كنتُ على حافة البلوغ، لم يُطلَب مني عمل شيء عدا المدرسة ثم التيهان في شوارع حي العصري والديوانية مع رفاق طفولتي الذين عدتُ لهم من الدكان والسوق فاقداً براءتي، مُشَيطَناً فَسَهَلَ عليّ قيادهم بأفكاري عن التسكع والنزهات والسطو، أُجَمعّهم أيام العطل وأسرح بهم من بكرة الصباح حتى الغروب، نتجول في الحقول والبساتين المحيطة بالمدينة، نسبح في البرك الراكدة وأنهار التصريف في "اليوسفية"مع قطعان الجاموس في عزِّ الظهيرة، نسطو على البساتين نسرق الرمان والتفاح والتمر، ونعود مع حلول الظلام إلى بيوتنا فتقوم القيامة، نجد أهلنا قلقين لم يتركوا مكاناً دون بحث، نأكلُ عَلقة المساء بطيبة خاطر ونخلد إلى النوم غير مبالين.

كنا مدلهين بكرة القدم، لكن ليس لدينا فانيلات ولا شورتات ولا أحذية رياضية، وليس لدينا القدرة على شرائها، فجميعنا ننحدر من عوائل عمالية، يكدح فيها الأب طوال النهار وبالكاد يسد رمق عائلته.

في شهرِ محرم، اقترحتُ عليهم سرقةَ أعلامِ موكب عزاء "حي العصري"لِنُفَصِّلْ منها شورتات رياضية لفريق شارعنا، فغروا أفواههم متعجبين:

- نسرق أعلام الحسين!

أجبتهم على الفور:

- أي.. الحسين يسامحنه يعرف أحنه فقره وما عِدْنه فلوسْ

منشورات «الفيـاء» «AlfYaa»

نشتريْ

اقتنعوا، انتظرنا حتى منتصف الليل وخلو الشوارع، انتشرنا تحت الأعلام الكثيرة الموزعة أمام الجامع وفي وسط وأطراف "الفلكة"الدائرية الشاسعة، أعلام بألوان مختلفة حمراء وخضراء وبيضاء وسوداء نزعناها من سواريها ولففناها في كيسٍ كبير، رفض الجميع مذعوراً ضَمه في بيته، فكانت من مسؤوليتي أنا صاحب الفكرة فأخذتهُ وخبأتهُ تحت الدرج في مدخل بيتنا.

في الصبيحةِ التاليةِ ضَجّتْ المحلة حينما استيقظت على سواري أبي عبدالله عاريةً، وبدأت رحلة البحث عنها.

لزمنا بيوتنا يومها، فحاصرتني "علية عبود"بعينيها الذكيتين وهي تلاحظ طرف بسمة ساخرة لا تفارق فمي كلما دخلت جارة لتعيد رواية السرقة بطريقةٍ مختلفةٍ فسألتني:

- يمه ما تعرف منو الباگ أعلام الحسين؟

- شمعرفنى!

أجبتها بلا اهتمام لكنها ظلتْ تُلاحقني وتتفحصني وتحاصرني بالأسئلةِ عن سبب لزومي البيت منذ يومين لتنهي كلامها بصوت أخفض وكأنها تُكَلِمْ نفسها لكن تعمدت إسماعي:

- مثل العامل مكسورة!

فهاجمتها على الفور:

- يعني ما يصير أظل بالبيتْ!

فتغور في عيني ووجهي الذي سرعان ما يرتبك من قوة عينيها العارفتين وتستدير مواصلة البحث بأرجاء البيت كأنها

منشورات «الفيا» «AlfYaa»

وثقت من أنها فعلتي، إلى أن عثرت على الكيس وجاءت به إلى الغرفة بوجه هلعٍ شاحب، نثرت الأعلام على سرير نومهم العريض مرددةً:

- يا يمه تسرقون أعلام الحسين!

ولكُم أنتم من يا ملَّه!

أستغفر الله العظيم، أستغفر الله العظيم!

أخبرتني أختي التي تكبرني "سهيلة"في يوم من الأيام عن عناء أمي وهي تتسلل مرعوبة بنص الليل لتضع كيس الأعلام بباب الجامع، بقيت سرقة الأعلام من القصص الطريفة التي يحكى بها في المحلة كقصةٍ غامضةٍ لم يكتشف فاعلها، وفي عائلتي كقصةٍ من قصصِ شقاوتي يعيدونها ضاحكين في سنواتِ غيابي الطويل بالمنفى.

منشورات «الفـياء» «AlIYaa

الفصل الثامن عشر

الفجر الغاوي

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

لا أستطيع البوح يا عبد سوادي بما فعلته من فظائع مع رفاقِ السوءِ، فلو بحثُ الآن بما فعلته سراً لغضبتَ مني ولعنتني من نافذتكَ في السماءِ، أحتاجُ إلى ملاك أو شيخٍ جليلٍ أو كاهنٍ أو جدي جلجامش الذي رأى وعرفَ كل شيء، فهو الوحيد القادر على تحمل الإنصاتِ دون انفعالٍ إلى ما اقترفتهُ.

عدتُ أرى كل شيء: المخفي والظاهر، ما يختبئ خلف نظرات العيون، وما يموج تحت الألبسة الداخلية من عواصف عاتيةٍ تهبُ تحتَ جنحِ الليل.

فَتُخرق الحدود سراً، هذه الصفحة نمارسها بالخفاء لوحدنا إلى أن وقعتَ عليّ مرةً واحدةً فضبطتني متلبساً.

كان الوقت صيفاً، وكنتُ أتأخر كل ليلةٍ مع شلة أدباء المدينة نُكْمِل جلسة نادي الموظفين في بيت واحدٍ من الصحبة أو نظل ندور في الشوارع الخالية حتى أذان الفجر، فأعبر سياج البيت لأهبط في الحديقة إلى سريري الخشبي الموضوع تحت تعريشة العنب بمدخل البيت، فيما تنام العائلة على السطح، أعود متعباً فأغفو ما أن أضع رأسي على الوسادة بملابسي إلى أن توقظني أمي وقت الفطور، ما حَطَّمَ روتين الليالي وأحال بقايا الليل وتباشير الفجر إلى وقتٍ قلقٍ مشحونٍ بالرعبِ واللذةِ، هي اللحظة التي أنسقت فيها إلى شهوتي، ففي مرة طفرت السياج وخيط الفجر طرَّ الأفق البعيد، لم أستطع النوم، كنت مشحوناً بحديث الليلة عن فرويد والرغبة الجنسية ودوافعها وقصص رواها الجُلاسْ لا أدري هل هي حقيقية أم من مخيلتهم عن قوتها كونها أعتى من العواصف إذا هبت، وقمعها يحطم الإنسان من الداخل، فكرتُ بالذهابِ لغسل وجهي علّ ذلك يساعدني على النوم، الحمام منزوي في ركن البيت قريب من التنور الملاصق

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

لسياج واطئ يفصلنا عن جيران بابهم ينفتح على زقاق خلفي ضيق، عائلة فقيرة، أولاد سبعة دون بنات وأمهم الأرملة، كان بيتهم سفينة نجاتي ألجأ إليه كلما ركضتَ خلفي بعصاك يا أبي، أتسلق التنور وبقفزة أكون في باحتهم الصغيرة، فتستقبلني الأم بثيابها السوداء ووجها المغضن قائلة:

- ها يمه هم أبوك!

- أي خاله!

أخرج من بابهم إلى الزقاق الخلفي، وأضيع. نشّفتُ وجهي وخطوت متوجهاً إلى سريري وفيما كنت جوار التنور سمعت آهاتٍ مكتومةٍ تأتي من باحة الجيران، توقفتُ مرتبكاً، أرهفتُ سمعي، ليس غير صمت الفجر الفضي المخلوط ببقايا الظلام الذي سرعان ما ضج بزقزقة العصافير التي أزعجني إذ ضيّعَتْ عليّ الآهات الخافتة، خطوتُ بهدوءٍ مقترباً من السياجِ الواطئ، تناهت آهات ناعمة مسكرة لأنثى تكاد تذوب وتحاول كتمها فتخرج صرخات مكتومة، أيكون أبنهم الكبير الذي تزوج قبل أشهر يضاجع زوجته في وجه الفجر. احتدمتُ بالرغبة والفضول، وتحولتُ إلى آذانٍ مفتوحةٍ تلتقطُ صوت احتكاك جسدين خفيض مكتوم أيضاً، وذيل آهات تتفلت، ومثل لصٍ محترفٍ نهضت على أطراف أصابعي فبدأ المشهد ينفتح تحت عيني، كانوا منتشرين على أفرشة وسط الباحة، هو وزوجته في الطرف القريب من موضعي، يفصلهما عن الأم والأخوة حبل علق عليه شرشف طويل.

كنت شديد الحذر، أرفع رأسي من حافة السياج بمقدار لا يمكن أن يلاحظني أحدٌ، كان رأساهما إلى جهتي مما أتاح لي

منشورات «الفيحاء» «AlFyaa»

رؤية جسديهما المتلاحمين بجزئهما الأسفل وهي ترفع ساقيها الطويلتين النحيلتين السمراوين لتطبق على منتصفه لاهثةً، كان عارياً يغرز وسطه العاري ويضرب بصخبٍ غير مبالٍ بأخوته خلف الحاجز كأنه يود الدخول فيها. لم أستطيع رؤية الوجهين، فرفعُ رأسي سنتمترات قليلة يكلفني فضيحة بجلاجل.

اكتفيتُ في الأيام الأولى بالقسمِ الأسفلِ والتكملة بخيالي، لم أكتفِ، وبحنكة متلصصٍ عريقٍ جعلتُ أسطو قليلا.. قليلاً إلى حد الكتفين، لم أكتفِ أيضاً فتجرأتُ ورفعت عنقي لأشرف للحظةٍ خاطفةٍ على التحامهما كاملاً، رأيتُ رأسها منسرحاً عن الوسادة، مغمضة العينين ذائبة بحمى المعركة تفلت آهات محتضر وهو يكتم زئيره مثل أسدٍ محصور في قفص، لم أجد وأنا بهذا العمر في رحلة الشهوات أجمل من التلصص سراً على رجل وامرأة وهما عاريان في خضم معركة لا منتصر فيها ولا خسران، معركة الحب ومحاولة الالتحام في صرة الجسد وأدواته.

وجدتُ نفسي في محنةٍ جديدةٍ، خمر، قراءات، حوارات، جلسات سهر يومي، ومشهد معركة الفراش مع طرة الفجر، لم يستريحا يوماً واحداً، كدت أَهْلَك وقضيبي المسكين أوشك أن يأتي بيدي. أقرر الامتناع بالخلود إلى النوم مبكراً، فأجدني أستيقظ كأنني ساعة مؤقتة في الوقت المحدد لبدء المعركة، أنهض كالسائرِ في نومهِ نحو التنور، أعتليه وأتفنن في إيجاد زوايا أفضل للإطلالة الآثمة، لم ينقذني من تلك المصيبة سواك يا أبي. ففي فجرٍ شاحب كنتُ غارقاً في فضته مستمتعاً بعراك الجسدين العاريين حينما شعرتُ بحركةٍ خلفي، أخفضتُ رأسي والتفتُ ببطء، رأيتك مقبلاً من جهة الحديقة تبحث دون صوت

منشورات «الفيا» AlFyaa«

ولا ضجيج عن شيء تضربني به، كان الموقف حرجاً لا مجال فيه للخطأ، أشّرتُ لك بأصابعي كي تهدأ ولا تصدر صوتاً فأبطأتَ حركتكَ، لم أدع الفرصة تفلت، قفزتُ من على التنورِ، صرتُ جوار باب البيت الداخلية الجانبي، دخلتُ راكضاً في الغرف وأنت تركض خلفي حاملاً عصاكَ الغليظة، وجدتُ بابَ الهولِ مفتوحاً، ومنه إلى بابِ البيتِ والشارعِ، جرى ذلك بسرعةٍ خاطفةٍ دونَ جلبةٍ كأننا متواطئان، لجأتُ كالعادة إلى "عمتي"الأرملة، وحمدتُ السماءَ لوجودها، كانت تسعد بمبيتي في بيتها، حتى أنها لم تَعُد تسألني عن السببِ.

عدتُ مع الخريفِ والناس لم تَعُد تنام على السطوحِ أو في الأحواشِ، أول ما وقعَ بصركَ عليّ حدقتَ بعينين غاضبتين، وهززتَ رأسك مردداً بصوت مسموع:

- الأعوج أعوج ما ترهم له چاره!

دفعتني أمي برفقٍ نحوكَ فهبطتُ على ركبتي وقبّلتُ ظاهر كفيك وأنا مخنوق بضحكتي التي تكاد تنفلت.

لأكثر من شهرٍ تهمس قربَ إذني كلما مررتُ من جوارك:

- لص.. لص!

- ههههههههههههه

فأختنق بضحكي وأنت تكمل بصوتٍ خافتٍ كي لا يسمعنَ أخواتي:

- ما تستحي!

تنفلتْ ضحكتي

منشورات «الفـياء» «AlFYaa»

- ما عندك شرف!

- هههههههه

فانفجر بضحكةٍ عاصفةٍ تجعلك حائراً فأنتَ لا تستطيع وسط أخواتي الست فتح الموضوع والتنفيس عن غضبكَ ولم أتِح لك فرصة الانفرادِ بي وشفاء غليلك. كنتُ أستاذاً بالفلتان إلى أن خففتْ الأيام القصة ومحتها الأحداث المضطربة اللاحقة التي عصفت بالمجتمع العراقي وبنا كعائلة.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

الفصل التاسع عشر

عادة مألوفة

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

تحررتُ من دكانِ عمي والقوانين وَسِبْتُ مع رفاقِ الطفولةِ في الشوارعِ، لم أكن قد فَسِدتُ فَحَسب، بل تعلمتُ عاداتٍ سيئةٍ منها التلصص والسرقة، إذ كنتُ أجلس في بابِ الدكانِ أراقب المارة، كان جوارنا كما أسلفت محل "أبو زهرة"للمكسرات و محل "محسن الطبل"لبيع الفواكة التي لا تزور بيتنا إلا نادراً في تلك الأيام، انتبهتٍ إلى أطفالٍ رثي الملبس يظهرون بغتةً نظراتهم زائغة لا تستقر على شيء، يتلفتون بحذر ويقتربون ببطء من صواني الفستق واللوز والبندق والحبوب، ينتهزون انشغال البائع مع زبون فينهبون ملأ أكفهم ويبتعدون بخطى سريعة، وإذا صاح في أعقابهم يطلقون سيقانهم للريح، يخطفون الفواكة أيضاً من صناديقها المنشورة فوق حوامل على الرصيف، برتقال، رمان، تفاح، سندي، عنب وليمون، تلمع كراتها وعناقديها مع نزول الظلام بألوانها المغرية تحت مصابيح متدلية من سقوف مظلةٍ خشبيةٍ.

ووسوس شيطاني وأَلَحَّ لتذوق طعم الفواكه والكرزات المُضْرِبَة عن مساءات بيتنا، كانا يعرفاني ويطمئنان لي فأستثمرت ذلكَ ورحتُ أخطفْ بخفةٍ كف فستق أو لوز، تفاحة أو موزة، برتقالة أو عنقود عنب، وألتهم الحصيلة بنهم ولذة، فأن يكون بيتك خاوياً منها وتحصل عليها بيسر فتلك لذة ما بعدها لذة. تطور أمر السرقة مع تدلهي المبكر بقراءة المجلاتِ المصورةِ والرواياتِ البوليسية، لم يعد ما أحصل عليه من الزبائن يكفي لتناول وجبات الطعام والكتب، فالتجأت إلى السرقة من مكتبة "الجندي"القريبة من مدخل الفرقة الأولى، أدراج مكتظة بأدوات ومستلزمات الجنود المكدسة على رفوفٍ خشبيةٍ تنتشر في الدكان وعلى الرصيف دون ترتيب، وعند حافة

منشورات «الفيحاء» «AlFyaa»

الرفوف من الجانب وضعت على منضدة واطئة كتب ومجلات قديمة، كان"سيد هاشم"صاحب المكتبة المتجهم يطردني، بلهجة كرهتها، ما أن يراني أتصفح المجلات:

- ولَكْ أنتَ يا ولدْ أبتعدْ!

درستُ الوضعَ كأي سارقٍ حاذقٍ، كان السيد بخيلاً لم ينور بضاعته خارج المحل بإضاءةٍ كافيةٍ، مما أتاح لي الإنزواء بركن الكتب والمجلات المعتم قليلاً وأختيار ما أشاء مستغلا انشغاله بزبائنه من الجنود. أنتهز لحظةً خاطفةً تسهى فيها العيون عني فأبتعُد بغنيمتي شاعراً بنشوةٍ غريبةٍ ليس لها مثيلٍ تشبة مضاجعة أنثى تشتهيك.

وأختلفت لذائذ السرقة بتنوعها، تجرأتُ يوماً على تذوق "العرق"، أردت التعرّف على طعم هذا المشروب العجيب الذي يجعل أبي بعد عدة كؤوس مرحاً يلقي العالم خلف ظهره ويردد لازمته (دونت سبيك، أسطب) حتى يصمت الجميع ثم يغني مع أم كلثوم في مرة، أو ينهض ليرقص شتاءً حول موقد النار وفي ساحة البيت الواسعة صيفاً في أخرى، وفي محل الحلاقة حيث أكون قد حضرت كل شيء: قناني السائل السحري والمزة، أنزوي قرب الباب الزجاجي على طبلة واطئة منصتاً لقصصٍ فاسقةٍ ونكاتٍ داعرةٍ في سهرة المساء اليومية مع عمي وصحبه، مدهوشاً من موجات الضحك العاصف، من سلاسة الكلام، من سرعته، من مرح وجوه لم تكن كذلك قبل أن تشرب، أغرقُ بدهشتي وأشرد بعيداً في عالمٍ غير هذا العالم، ولا أستيقظ إلا على صوت أحدهم يناديني كي أجلب شيئاً.

كنتُ أجمع القناني لإعادتها إلى بائع الخمر مقابل عشرة

منشورات «الفيـاء» AlfYaa«

فلوس لكل قنينة وفي يومٍ فتحتُ سدادة قنينة، حملقتُ بالوشلِ المتجمع في قعرها، رفعتها إلى فمي، وقلبتها فنزلت القطرات ببطء، لذعني مذاقها الحاد، أفرغت وشل ثلاث قناني فشعرت بعد دقائق بنشوةٍ تسري في جسدي، فوجدتني أنظر بعينين حالمتين أضفتا على كل شيء هالة من الضوء والخفة حتى على قسماتي المحيطة بيّ من المرايا أمام كرسي الحلاقة والجدار المقابل لها، صرتُ أنتظر الصباح بلهفةٍ حتى تعودت على مذاق العرق المسيّح إلى أن ألقتني ثورتي العارمة بعيداً فعدتُ إلى "العصري"عارياً دون موردٍ ما عدا مصروفي اليومي "عشرة فلوس"التي تعد لا شيء مقارنةً بموردِ يومٍ بدكانِ الحلاقة، لكن رجعتُ لرفاقي بخبراتٍ لا يعرفونها، وحولتها إلى لذة قصٍ، فأمسيتُ مع هبوطِ الظلامِ أسرد عليهم قصصاً هي خليط مما جرى في الدكان وما تخلقه مخيلتي من قصص وأسرار يسردها الزبائن، ومن أفلام السينما التي أدخلها يومياً بالمجان طوال سنوات، أسرد مستمتعاً بدهشةِ وجوه رفاقي المصغية بصمتٍ عميقٍ تحتَ مصباح الشارع المتدلي من عامود الحديد العالي حيث كنا نذاكر دروسنا اليومية.

فى ليلةٍ صيفيةٍ ساكنةٍ، كنا نتحلق في دائرةٍ صغيرةٍ نتهامس لا عن صبايا الجيران بل عن أمهاتهن اللواتي لا يستحين مِنّا كوننا صغاراً، فنراهن عاريات الأفخاذ يغسلن الملابس وسط أحواشهن في الطسوت، أو يكنسن فاتحات السيقان، فنتبادل ما رأينا من كنوز اللحم المخبوء تحت الأثواب المنزلية الفضفاضة، كنا نتكلم همساً، وفي فاصلة صمت قصيرة سمعنا صوت "بطة"خافت يأتي من جهة البيوت المقابلة لجلستنا. فأشرت لهم بالسكوت وأرهاف السمع:

منشورات «الفـياء» AlFyaa«

- أش.. أش

سادَ سكون منتصف الليل، فسمعنا صوتها الخافت ورأيناها تسير لصق الجدران، يبدو أن أصحابها نسوا إدخالها فتاهت في الظلام، وعلى الفور تشكل سيناريو برأسي، قلت لهم:

- سنشرب غداً؟

التفتوا نحوي وهمسوا:

- منين انجيب فلوس؟

- بالبطة!

لم يستوعبوا فكرتي، فتساءلوا بصمت، أردفت:

- سنسرقها ونبيعها!

- أين نضعها سننكشف، البطة ما تسكت!

أعددتُ كل شيء في رأسي كأني رسمتُ الخطةَ مسبقاً، قلتُ:

- من يقدر يجيبنه صندوق كارتون؟

تبرع أحدهم وذهب مسرعاً إلى بيتهم القريب، أتى بالصندوق وأصطحبني، حاصرناها فتكورتْ لصق الحائط، قبضتُ عليها وأطبقتُ على منقارها فأختنقَ صوتها، لففناها ببطانيةٍ خفيفةٍ كنا نجلس عليها وطلبت من حامل الصندوق مصاحبتي، قطعنا الخلاء المظلم حتى سياج مدرسة "الفردوس"الأبتدائية للبنات، كان يوم خميس ويوم غد عطلة، تسلقت سور المدرسة من موضعِ تساقطَ آجره، حملتهُ ونزلت إلى ساحة المدرسة الفسيحة، أسرعتُ نحو بنايتها وخبأتهُ تحت سلم حجري يفضي إلى الطابق الثاني. انتظرتُ دقائق حتى استكانت البطة وأنقطع صوتها.

منشورات «الفيــاء» «AlFyaa»

أستيقظتُ مع صياح الديك، وجدتُ أحدهم بانتظاري عند مدخلِ الشارع، تمهلنا قليلاً حتى لاح الفجر فعبرتُ السياج وجئت بها، قصدنا سوق الدجاج المجاور لعلوة السمك القديمة وسط المدينة، كنا نريد التخلص منها بأي ثمن، فبعناها بسعر رخيص.

مساء ذلك اليوم أشتريت لهم من بائع الخمور الذي يعرفني ربع عرق، وعلى قنفةٍ منزويةٍ بمقهى المحلةِ تشاركنا في شربهِ فهبط علينا المرح والضحك دون انقطاع، وحولنا المحلة التي ضجتْ باحثة عن البطة المفقودة، كدنا نموت ضحكاً ونحن نرى أصحابها يدورون في الأزقة بحثاً عن التي تحولت إلى سائلٍ سحري جلب لأرواحنا المرح وخفة الدم والنشوة.

طمحنا بتكرار ذلك، لكن من أين نأتي بالبطِ، فأصحابه صاروا أكثر حذراً.

منشورات «الفـياء AlfYaa»

الفصل العشرون

فن الحياة

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

في العطلةِ الصيفيةِ هببنا للعملِ كعمالٍ بناء في بيوتٍ تشادْ حديثاً، كان ذلك إقتراحي، ذقتُ مشقةَ العملِ من الفجرِ حتى مغيب الشمس مروراً بِعزّ ظهائر تموز، حَمل الطابوق وتوزيعه، إعداد جبنة الجص وكل أعمال السخرة إذ يتوجب عليك أن تكون مثل الساعة دون لقط الأنفاس، عمل شاق وأجر بخس سَتُرسّخ هذه التجربة لاحقاً أفكاري الثورية حول أستغلال الطبقة العاملة التي سأتشرّبها من كتب ماركس وأنجلس ولينين فأولجتني في معمعة السياسية والتنظيم السري، وتبادل صحف بحجم الأصبع مخطوطة على ورق رايز، الوعي الذي أخرجني من ضيق المحلة إلى دائرة المدينة والقراءات والنضال، فأعتقلتُ بوقتٍ مبكرٍ وتعرضتُ للتعذيب والترهيب النفسي، لتنقلب حياتي رأساً على عقب في خضم "عراقيَّ"العاصف لأستيقظ في خريف العمر لأجدني أجلس وحيداً أكتب قصتي، وحيداً غريباً في غرفةٍ جوارَ القطب الشمالي، أكتب وأحلم.. أنام وأحلم.. أمشي وأحلم..أستيقظ وأحلم بأمكنة نشأتي التي عادت شبة مستحيلة مع وهن الجسد وأستهلاكه.

في تلك الفترة القلقة لم تكف يا أبي عن مراقبتي والتدقيق بالصغيرة والكبيرة، جُنِنتَ حينما علمتَ أني بدأتُ بالتدخينِ. سأروي ما حدث، كنتُ عائداً قبل ساعة من يومِ عملٍ شاقٍ في البناء، كان مساءً ساحراً، أخذت دشاً بارداً، تنشفتُ وخرجتُ إلى الطارمةِ، شرعتُ بأرتداءِ ملابسي متأهباً للذهاب إلى المقهى، وحدي في البيتِ، بينما كنتُ منهمكاً بأرتداء قميصي، دفعتَ الباب بعجلةِ دراجتكَ الهوائية فبادرتكَ كالعادة:

- الله يساعدك بوية!

لكنك بدلاً من رَد تحيتي دفعتَ دراجتكَ نحو السياج الجانبي

منشورات «الفياء» AlYaa«

وهرولتَ نحوي وأنت تبحث عن شيء تضربني به، فركضتُ إلى نهاية الممر متسائلاً عن السبب، هل سمعت شيئاً؟، هل كُشِفَ لكَ سرٌّ من أسراري؟

طفرتُ سياج جيراننا الواطئ، أخذتُ أنفاساً عميقةً، أستعدتُ ما فعلتهُ منذ خروجي من الحمام وحتى لحظة دخولكَ المفاجيء، فتذكرتُ علبةَ "بغداد"التي وضعتها على الكرسي جوار وقفتي، أكيد أنك رأيتها وتجننت، ولم أدرِ لم جُننتْ، فأنت وأمي تدخنان، ومنذ وقتٍ مبكر كنتُ أسرق منكما السجائر وأدخن سراً.

في تلك الفترة عدتَ لا تراني إلا صدفةً، ضعْتُ عليك بين المدرسة والشارع والمبيت لدى "عمتي"أو بيوت الأصدقاء بحجةِ المذاكرة، وحينما تلقاني تنهمر سيل الأسئلة عن لغز غيابي وظهوري المباغت، أستل أجوبتي الجاهزة التي لم تقتنع بها أبداً، فدأبت على تتبع أثري في الحي، كانت تجننك فكرة جلوسي في مقهى "العصري"، وقتها لم أستوعب لماذا؟ فأولاد الطرف جميعاً يجلسون ويتسامرون فيها، لكن قليلا.. قليلاً أكتشفتُ وأطلعتُ على أسرارٍ أكثر عنفاً وخطراً من تلك التي سمعتها في دكان "عمي"والسوق، أسرار وأسرار، شذوذ يجري في الخفاء تحت ستر الظلام، اغتصابات، تلصص، زنا محارم، خيانات زوجية، علاقة مثلية بالإتفاق، علاقات قسرية بالأغراء أو القوة بين رجال أقوياء وصبيان يافعين، رأيتُ ما كنتُ أسمعه بمحل الحلاقة قصصاً، واقعاً يجرى أمامي، شاركتُ في بعض المغامرات التي سأرويها لك لاحقاً يا أبي. لأعود إلى واقعة المقهى، في إحدى العصاري كنت منهمكاً بلعب "الطاولي"حينما صرخوا بيّ من بابِ المقهى:

- سلام: أبوك.. أبوك!

«AlYaa منشورات «الفياء

قفزتُ من القنفة وبالكاد فَلَتُ من بابِ المقهى الوحيد، كانت بيننا مسافة أمتار قليلة، أطلقت ساقيّ للريح، وقتها كنتُ رياضياً ألعب في فرق المدارس التي أحلُّ فيها. تلك الليلة قررتُ المبيت لدى "عمتي"ومنها بكرتُ إلى مدرستي في الصبيحة التالية، كنت في المرحلة الثالثة بمتوسطة النهضة ونـداوم بالتنـاوب صباحاً وعصراً مع الإعدادية المركزية وسط المدينة، أتذكر ذلك اليوم بوضوح، كنتُ أنصت لمدرس الرياضيات المحاضر حينما قرع الباب فراش المدرسة المعتمر عقالاً، طويل القامة، ضخم الجسم يشبه حارس سجن، كنتُ قريباً من الباب فسمعته يقول بصوتٍ خفيض للمدرس:

- سلام عبد إبراهيم، المدير يريده!

أي رعب يَهز أبداننا حينما نَسْمَعْ بالمدير، كان اسمه "حميد جاسم"أسمر مطحوناً بـالتراب، متجهمـا يبعـث مـرآى وجهـه الصارم على الفزع، كان أمراً زاجراً قاسياً، نُسِجَتْ عن ضربهِ المُبرحِ قصصٌ، وبالرغم من شكسي وعنادي لم أصل إليه إذ تفننتُ متحاشياً الوقوع بمأزق مواجهته، فما الذي يريده مني يا إلهي؟ ألمّتْ بيّ رعدةٌ خفيفةٌ وأنا في مقعدي القريب من الفسحة أمام السبورة، ألتفت الأستاذ نحوي وقال بصوته الودود:

- قم سلام!

تلكأتُ بالنهوضِ، فحثني قائلاً:

- بابا أنت مسوي شي!

- لا أستاذ

- قم لا تخفْ وشوف شيريد!

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

وأية مسافة قطعتها على ذلك الممر الداخلي الشبيه بممرٍ سجنٍ فقد كانت كل أبواب المدرسة مقفولة عدا باب رئيسية تغلق ما أن يبدأ الدوام، أبواب الصفوف مفتوحة على ممراتٍ داخليةٍ لا مخرج لها تدور حول حديقة داخلية، الأبواب المفضية إليها مقفلة أيضاً، بمعنى لا مفرّ، كنت ضاجاً بالهواجس، أحلم بالهروب مستسلماً في وقفةٍ ستكرر مراراً في الزنازين والأقبية بلحظاتِ ما قبلَ التحقيق، غابَ الفراشُ خلف الباب أقل من دقيقة ثم ظهر وأمرني لي:

- أدخلْ!

خطوتُ خطوتين فأنفتح أمامي مشهد غرفة المدير، عالية السقف، واسعة، في الطرف المقابل لوقفتي يجلس بسكون يقلب أوراقاً أمامه، تقدمتُ نحوه وتوقفتُ قريباً من حافة مكتبه، لم يرفع رأسه، فسادَ صمتٌ متقطعٌ بحفيفِ الأوراق التي يقلبها. طالَ الأمر قليلا، فأخذتُ أرتجف مرتعداً، أي طقوس تُمهد لحفلات الرعب النفسي يتقنها هذا المدير القاسي، حاولتُ التماسكَ والسيطرة على أختضاض جسدي، فرأيتهُ يرفع عينيه عن الأوراق وينظر نحوي دون أن يحرك رأسه:

- ها ترجف خايف.. تعرف شمسوي!

- أستاذ كلشي ما مسوي!

حينها أنتفض من جلسته واقفاً واخذ يرعد ويزبد، مردداً:

- الحمار يگول كل شي ما مسوي، ولك اليوم أنزع جلدك، أبوك يشتكي عليك، دومنه وتدخين ومقاهي وما تبات أبيت أهلك!

منشورات «ألفياء» «AlfYaa»

يا إلهي إذن فعلتها يا أبي ووضعتني بحلق الحوت!

توجه نحو دولابٍ خشبي في ركنِ الغرفة، أخرج عصا غليظة وأوسعني ضرباً فسبحتُ ببحرِ ألمٍ لاسع أنتشر في أنحاء جسدي في مشهدٍ لا يختلف عما سأتلقاه لاحقاً من تعذيبٍ وإذلالٍ في زنازين وأقبية حللتُ فيها بعد سنواتٍ قليلة.

كم جَهَدْتَ يا أبي كي تخلصني من الخمرة؟ كنتَ تراقبني بالرغم من نضجي وهدوء ثورتي على العائلة، أعود إلى البيت متأخراً من جلسات الأدباء في نادي الموظفين، أقرع الباب، تفتحها، تلبث دقيقةً تتفحص وجهي على ضوءِ مصباحٍ معلقٍ في واجهة البناء البعيدة، كان شاحباً لا يكشف وجهي بوضوح، تطيل النظر ساداً طريق دخولي، فأقول لك ضاحكاً:

- بويه شنو الموضوع.. خليني أدخل!

تَشْتَعلْ عيناكَ غضباً وتسألني بصوتٍ قوي:

- شارب مو؟

- لا ما شارب!

مشهدٌ يومي يتكرر ويجعلني أغص بضحكتي، فأنتَ لا تستطع شمي لأنكَ تشرب كل يوم، تلتفتْ إلى أمي الواقفة تحت الطارمة:

- حجية تعالي شميه، أبنك الأفندي شارب!

فيقتربْ الوجه النبي بتقاطيعهِ القدسيةِ من وجهي، تمسي بيني وبينكَ، أية لحظة هائلة أبيع عمري لو تتكرر مرة واحدة، أَشِمُّ رائحتها الزكية، رائحةٌ تنام في كياني وتملأ حواسي، انعجنتُ بطيبها من لحظة تخلقي الأولى، أستنشقها وأشمها الآن لحظة

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

الكتابة، تسكرني، أتأرجح، تشهق عابةً من أنفاسي، فتتغضن قسماتها متضايقةً، فكم كرهتْ رائحة الشرب، مُصيبةَ عمرها معك، تُغمض عينيها للحظاتٍ، تتماسك ملتفتةً نحوكَ وتقول:

- لا أبو سلام ما شارب!

وأنت الذي تثق بها مثل متعبدٍ بربه تستدير وتبتعد، تلتفت نحوي مطبقة السبابة والإبهام تهزهما بوجهي وتهمس بحرقة:

- نعللا أهلك!

فأكاد أنفجر ضاحكاً.

إلى أن قلت لي يوماً:

- بويه اليوم نشرب معاً

باغَتّني فتلكأتُ بالجواب، حدقتَ بعيني من تحت، فقد أصبحتُ أطولَ منكَ بكثير وأردفت:

- هاي أش بيك بويه، ما سمعتني عازمك اليوم!

قلتها في الفجر فقد كنتَ توقظني مع صياحِ الديك وتنشغلْ بإعدادِ فطورنا، نخرج معاً، نستقل دراجتينا، تنطلق إلى شارع الثورة قرب الجسر حيث تقلك حافلة الشركة اليونانية لشق المبازل إلى المنجر الرئيسي على طريق بغداد القديم، وأنا جنوباً إلى إعدادية الزراعة التي تبعد عشرة كيلو مترات عن المدينة.

انشغلتُ طوال اليوم أفكر بالسبب الذي دعاك لدعوتي، لم أقع عليه، فنادراً ما تخوض في موضوعٍ جديٍ لا في البيتِ ولا في دكان نجارتك، كنت تعمل بصمتٍ وجدٍ، وتمرح مع جيرانك وصحبك من العمال والكسبة الذين يتجمعون حولك في المساءِ،

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

فكل شيء محسوم في ذهنِكَ، لم تجامل أحداً، ولم تخفِ رأياً، كنتَ صريحاً كلمتك واحدة بحيث أصبحتْ مواقفكَ الرافضة لأعراف وتقاليد اجتماعية شائعة ومتوارثة مدار تندر في المدينة، فمثلاً لم تذهب في يومٍ ما جنّازاً بميتٍ، وهو تقليد قديم في الجنوب العراقي؛ يصحبونَ الميتَ بما يشبه الزفة في سياراتٍ إلى النجفِ ويودعونهُ عند ضريح "علي بن أبي طالب"، وبعضهم يشيعه حتى القبرِ، كلفتني العائلة باعتباري الولد الأكبر كمندوب أمثلها في المأتم وطقوس الدفن والتشييع فسألتك عن سبب أمتناعك ورفضك مرافقة الجنازة فقلتَ:

- شوف بويه، قبل عشرين سنة، وفي أجتماع لأعيان الديوانية أقترحت عليهم بدلاً من خسائر السفر إلى النجف مع الجنازة، تجميع تلك المبالغ لمساعدة عائلة الميت في محنتها، الكل استهجن مقترحي، فنهضت وسطهم وقلت لهم؛ أنتم أعيان.. تيه.. بهه، هززتُ يدي وطلعتْ ومن يومها ما مشيت جنّازاً ولا شفتْ المقبرة.

لم أحزر طبيعة الموضوع الذي يريد أثارته معي، ففي مرة ناداني، حال عودته من العملِ، إلى غرفته التي أنعزل للعيش والشرب فيها. كنت لتوي خارجاً للمرة الثانية من المعتقل، طلبَ مني إغلاقَ الباب والجلوس على كرسيٍ أمامه، رَشَفَ من كأسه ونظر نحوي بعينيه الجاحظتين الكبيرتين طويلاً ثم قال بصوت عميق وبنبرة أسمعها لأول مرة إذ لا سخرية فيها كما أعتاد في التعليق على تفاصيلِ الحياةِ، ولا غضب فيها، نبرة هادئة كمجرى ساقية صغيرة في بستان:

- أسمع بويه السياسة تريد واحد مستعد للموت من أجل مبادئه، وإلا لا تتورط،

منشورات «الفياء» AlFyaa

صمتَ قليلاً وأردفت:

- الشجاع يموتْ موته وحده، والجبان يموت مية مرة!

- ...

غرقتُ في صمتٍ عميقٍ إذ لم أستوعب وقتها مرام كلامه فأردف حينما لاحظ ارتباكي وحيرتي:

- بويه ما أريد جواب، أريدك تفكر وتأخذ القرار وحدك، لأن الأمر ما يخصك وحدك!

زادَ اضطرابي من سطوع مقاصده وشدة بساطتها فأعمتني، لم أصل لعمقها ولم تسعفني الكتب ولا الحوارات مع رفاقي في الاجتماعات السرية، أو في المقاهي. تحركتُ ناهضاً وخطوتُ نحو الباب، أستوقفني قائلا:

- أنتظر بويه بقى شيء واحد أهم، ما سألتني ليش گلت هذا الكلام، وليش اللي يعمل بالسياسة لازم يكون شجاع!

أوقفتني جملته بمكاني، فجمدتُ لحظةً ثم استدرت لأصبح بمواجهته مرة أخرى، لم يتحرك من جلسته، رفعَ كأسه، رشف قليلاً وحملق بي عميقاً وقال:

- إنها مسؤولية، إذا ضعفتَ راح تورط رفاقك فتصبح خائناً، سَتُحْتَقر وسَتحتَقر نفسك كل العمر ولا تذق لحظة راحة حتى الممات!

- ...

- فَكّرْ بما قلته بويه فَكّرْ!

سأتذكر كلامه لامساً عمقه في المرات التالية التي اعتقلت

منشورات «الفيا» «AlYaa»

فيها، سيمدني بالصمودِ في أقسى أوضاع التعذيب، مثل قوة سماوية جعلتني لا أفتح فمي أبداً فنجوتُ، خرجتُ من أمكنةِ جحيمِ عالمٍ سفلى كعالمِ الأساطير القديمة.

كل مرة يطلق سراحي فيها أذهب إليه، يحملق في قسماتي، يغور في عينيَّ، يبتسم بطرف عينيه، يعانقني دون أن نقول شيئاً، لم أكف، كان الوحيد الذي أخبرته بقرار التحاقي بالثوار، لم يعلق بشيء، عانقني بقوة ولم يقل ماذا عن ابنك وزوجتك ووظيفتك، بل قال:

- الله يحفظك بويه!

كمْ كنتَ شجاعاً وأنت تضمني حينما عدتُ سراً من قواعد الثوار وضاقت بيّ الدنيا، شحَّتْ أمكنة الاختفاء فاضطررتُ للتسلل ليلاً إلى بيتنا في مخاطرةٍ حمقاء فأي طفل يراني لمحةً سيشاع الخبر وتتعرض العائلة جميعها للإعدام:

- أية أيام فظيعة تلك!

كنتُ مرعوباً رعباً مركباً، "ناهدة"حَملتْ وحيدنا "كفاح"لتعيش معي، يتجمد دمي لطرقة باب، حركة مريبة في الشارع، نأمة في عمق الليل، ضجة على السطح أو لدى الجيران، لم أكن خائفاً على نفسي بل بما سيفعلونه بكم في حال كبسي، أما أنتَ يا "عبد سوادي"فلم تكن مرتبكاً ولا خائفاً بل سعيد بوجودي، وأيامها توظفتْ أختي الصغيرة "سلمى"بدائرة زراعية في ناحية من نواحي "الكوت"، منحوها بيتاً حكومياً فاضطرت أمي للانتقال معها لحين إيجاد حلٍ ما، كان الوقت صيفاً، دخلتَ تغلي غضباً وقلت:

- مجانين يردون يأخذون أخوك "عادل"جيش شعبي حتى

منشورات «الفيصل» «AlYaa»

يموت بحربهم القذرة، يعني يگتلون أبني "كفاح"ويشـردوك، ويردون الثالث قرباناً لكرسيهم. والله العظيم ما راح أنطيهم أبنـي.

كنتَ مثل لبوةٍ تقاتل للمحافظةِ على أبنائك غير خائفٍ أو هياب.

- أش راح تسوي بويه؟

- سأتصرّفْ ولا يهمك!

لا أدري أين أخفيتهُ، لكنـك عـدتَ مرحـاً في تلـك الأيـام المرعبة، حتى أن حبوركَ ومزاجكَ الرائـق أثـارَ اسـتغرابي سأعلم لاحقاً أنك بعثته إلى بيت أختي في "الكوت"حيث لا يعرفه أحدٌ.

في مساء صيفي ساكن كنا نلتف حول صينية العشاء، أنا وناهدة وكفاح وأصغر أخواتي "سهاد"، قُرِعَتْ الباب بضجيجٍ ودون انقطاع، نهبتُ السلالمَ المؤدية إلى السطحِ بينما كنتَ في طريقكَ لِفتحها، من حافة سياج السطح رأيت على ضوء مصباح الشارع أكثر من عشرين مسلحاً يتوزعونَ على جانبي الباب، وأنتَ تخوض حواراً مع شخصٍ بدا أنه مسؤول المجموعة، طبيعة الحوار الخافت الهادئ جعلني أتريث في العبـورِ إلى سطحِ الجيران، لبثتُ أراقب إلى أن رأيتك تدخل عائداً فهبطت الدرج بخفة، أستعيدُ قسماتكَ حيةً أمامي الآن وأنا أكتب حتى أكاد أمدّ أصابعي وألمسها، نظراتكَ الكسيرة، وصوتكَ الذي خفتَ وكأنك تعتذر:

- هذوله مفرزة جيش الشعبي يردون "عادل"وَعندهم أمر تفتيش، بس المسؤول جارنا "إبن هتيم الشطاوي"سألني بعيد

منشورات «الفـيـاء» AlFyaa«

عنهم فگتله مو بالبيت، ما خلاهم يفتشون، بس راح يأخذوني رهينة لمن "عادل"يسلم نفسه.

سَكَتَّ للحظاتٍ وأكملتَ:

- راح ألبس ملابسي وأروح وياهم، أوصيك وَصله خبر لا يسلمْ نفسه أبدْ، آني شكو عليه متعود على السجون!

وفعلاً أخذك المسلحون في سياراتهم، لم يطلقوا سراحك إلا بعد أسبوع، دخلتَ البيت تشتم وتلعن الجبناء، كنتَ تقصد زوج أختي "حازم مرتضى"الذي تَجَنَن خوفاً عليّ حينما أخبروه بالقصةِ، فهو يعرف بوجودي، ساقَ بسيارته فوراً إلى الكوت، أتى به وسلمه إلى مركز تجنيد الجيش الشعبي المسجون أنتَ في غرفةٍ من غرفهِ.

* * *

- بويه اليوم نشرب سوه!

جملة ظلتْ ترنُ في أذني طوال اليوم، أنتظرتُ المساءَ بحرقةٍ لأكون نديمك وأسمع ما تريد قوله، كنت واثقاً بأن لك غرضاً معيناً لكن لم أحزر أبداً، ولم أتوقع بأنك تدقق بشؤون تفصيلية تتعلق بفن الحياة بهذه الطريقة الدقيقة المتوارية خلف سخريتك الدائمة إذ كنت تغلف كل شيء بالدعابة والسخرية، وحينما تتضايق وتكون في ذروة الإنزعاج تهتف بصوتٍ عالٍ ساخر مصحوب بقهقهة:

- "دونت سبيك.. أسطب"!

يومها عدتُ إلى البيت مع هبوط المساء. وَجَدتكَ جالساً وسط

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

حديقة البيت الأمامية الصغيرة ومعداً كل شيء، الكؤوس والمزات، صحون الكرزات، باقلاء، حمص، زيتون، و..ووو. صببتَ أولاً بكأسي قائلاً:

- گول كافي!

وفعلت.

صببتَ في كأسك، وشربنا نخب الجلسة الأولى التي تواعدنا في أخر لقاء وأنا أودعك ملتحقاً التحاقي الثاني بالثوار على اللقاء فيما لو بقينا أحياء والشرب معاً، لم نلتقِ إذ صعدتَ إلى السماءِ وأنا صعدتُ إلى المنفى.

وضعتَ الكأس وحملقتَ في عيني طويلاً قبل أن تقول:

- لندخل في الموضوع!

- ...

ثم قلت:

- كل شيء له أصول وأعراف أن لم تُراعها ستتحول المتعة إلى نقمة.

لبثتُ صامتاً أنتظر توضيحاً:

- ما فهمت شيء مو؟ أسمع يا ولدي أتكلم عن الشرب، أنتَ في أولِ طريقه، فَشَلْتُ في منعك فهو أذى للجسد والعقل ومضاره أكثر من منافعهِ تترتب عنه مشاكل أجتماعية لا حصر لها، وما دامت ستشرب فأسمع وصاياي أحفظها وتذكرها:

أولاً: صبْ لنديمك أولاً وأَكرمْ

ثانياً: لا تنادم شخصاً لا ترتاح له

منشورات «الفـياء» AlIYaa»

ثالثاً: لا تشرب أكثر من قدرتكَ

رابعاً: لا تشرب على معدة فارغة

خامساً: وقّر كفايتك فالعوازة تُذلك

سادساً: لا تخلط في الشرب.. لو فعلت ستموت مبكراً

سابعاً: أول كأس أرتشفه على مهل وطوّلْ

ثامناً: أترك كل ما يحزنك وأمرح فالعمر برقٌ

تاسعاً: دون الخمر ونشوتها لا معنى للحياة

عاشراً: ستتعب يا ولدي منها ومن المحيط لكن نشوتها لا بديل لها.

لم أفقه وقتها ما رميت إليه، أحتجتُ عمراً لإدراكِ جوهر وصاياك في السياسة والحياة والسلوك.

بعد أيام من هذه الجلسة أنتقلت إلى بغداد لأكمال دراستي الجامعية ثم الخدمة الإلزامية في الجيش، بتنا نشتاق فيها لبعضٍ ولم نجد الوقت الكافي إلى أن رجعتُ إلى المدينة وعملت بدائرة زراعية فتوطدتْ علاقتنا وأمسينا ندخن ونشرب معاً، كم كنتُ محظوظاً بهذه الفترة، أقتربتُ من قلبكَ الطيب ولمستهُ لمس اليد والروح، فَتَجَلْتْ لبصري وبصيرتي روحك جبارةً محبةً خَبَرتْ الحياة وجعلتكَ تعيش خلاصاتها لا تفاصيلها، كأنك تعيش في رواية لا في حياة غارقة في تفاصيل غير جوهرية.

منشورات «الفيـاء» AlFyaa«

الفصل الواحد العشرون

سفروا الملك

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

جاءَ صديقي الشاعر "علي الشيباني"بوجهٍ يضمرُ شيئاً، كانَ ذلك في النصف الثاني من سبعينيات القرن الفائت، ينظر نحوي بعينين لامعتين تمور فيهما نشوة طافحة وقسمات مبتهجة خَبرتُ ما خلفها فأما الأمر يتعلق بالنساء أو خبايا السياسة. جلسَ جواري على تختٍ في مقهى "صنگر"مكان لقائنا عصر كل يومٍ بعد عودتنا من العمل، أدنى فمه من أذني بعد أن تَلَفّتَ يمنةً ويسرةً حذراً من المخبرين وأسرّني بأنهُ كُلِفَ بمهمة كتابة تحقيق سينشر في جريدة الحزب الشيوعي العلنية "طريق الشعب"عن حدثٍ شهيرٍ وَقعَ بالمدينة أوائل الخمسينيات، سجينٌ غريبٌ أصيب بالسل الرئوي فنُقِلَ من سجن "نقرة السلمان"الصحراوي إلى المستشفى الملكي المجاور لقلعتها وسط الديوانية، لكنه أسلمَ الروح فدفنتهُ السلطات بتكتمٍ شديدٍ في مقبرةِ الأطفال جوار مرقد "أبن الكاظم"على طريق "الدغارة"، وَصل الخبر إلى لجنة محلية الحزب الشيوعي، كان عمك "موسى سوادي"والشاعر "شاكر السماوي"في قيادتها، فكلفتْ عدة رفاق تسللوا ليلا، نبشوا القبر وأتوا بالجثة في تابوتٍ إلى جامع الحاچم، وأشار نحو بنايته المرئية من جلستنا وأكمل:

- ليُشيَّع في صبيحة اليوم التالي في تظاهرةٍ عاصفة هتفتْ بشعارات وطنية ضد السلطة الملكية جابت أرجاء المدينة وعبرت جسرها الخشبي القديم، وحمل الشهيد في زفة إلى مقبرة السلام، تضخمتْ من متظاهري نواحي وأقضية وقرى الطريق حيث كانوا ينزلون التابوت من ظهر السيارة ويجوبون به في أسواق الشامية وبقية النواحي حتى النجف.

انتشيتُ وأسكرتني القصة فحملقتُ به مدهوشاً، نظر نحوي بعينين لامعتين منتصرتين ألفتهما مع كل قصة نضالٍ يكتشف

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

سرها فيرويها لي بطريقتهِ الساحرةِ، لبثَ صامتاً يتأملني ثم أردف:

- تعرف منو قاد المجموعة اللي طَلِعَتْ الجثة؟

- منو؟

- عبد سوادي النجار

انبثقتْ نشوةٌ ولا ألذ منها فنبتتْ لي أجنحةٌ رفعتني فطفتُ محلقاً في هواء المقهى والشارع، وَقتها يا أبي كنتُ في شدةِ توهجي وحماستي وثوريتي، وأنت لم تتطرق لا من قريب ولا من بعيد إلى هذه القصة، كنتَ بئراً من الأسرارِ، مشغولاً باللحظة الراهنة، تستيقظ مع أذان الفجر، تعد فطوركَ، وتستعد للذهابِ إلى منجرِ الشركة اليونانية، وتعود مع الظلام منهكاً، تنصب منضدتك الحافلةِ بالمزات أمام حديقتك الصغيرة، تسمع أخبار محطتك الأثيرة "لندن"، تعلق محللاً، ثم تدور بكرة الراديو على محطة أغاني، تطرب مع "أم كلثوم"وتخلد إلى النوم، هكذا كل يوم، روتين لم تمل منه، قضيت أيامك لاهثاً، فجدي "إبراهيم"تاجر القماش ثم مختار الديوانية مات عام 1942هذا ما مخطوط على شاهدة قبره، معنى ذلك أنكَ حين وفاتهِ لم تبلغ سنَ الرشد بعد، فوقعتْ عليكَ مسؤولية إطعام ورعاية أختيك وإخوانك الثلاثة، التصقت بالحاضر ومتطلباته فلم تجد فسحة للتأمل، فذلك ترفٌ وبطرٌ أجادهُ ابنك فَسابَ وغامرَ وحلمَ وصارَ يكتب القصص والروايات، لم تأخذ نفساً يا عبد سوادي، لم تستلقِ وتفكر بما حدث لك بل بما سيحدث، خَلَّفتَ عشرة أنفار أخرى بعد أن أتممت تزويج أختيك وأخوتكَ الثلاثة. عشرة أبناء وبنات جميعهم أكمل دراسته الجامعية في

منشورات «الفياء» AlFyaa«

عراقٍ مضطربٍ لم يشهد استقراراً إلا في سنواتٍ معدودةٍ من سبعينيات القرن المنصرم هي التي عزمنا فيها على تدوين دوركَ في نبشِ جثة الرفيق المغدور وإشهارها في مسيرة مهيبة.

تواعدنا نزوركَ عند المساءِ، فأنا أعرفُ أوقاتكَ يا أبي، أقبلَ "علي"مرتدياً بدلة رسمية كأنهُ ذاهب لحفلٍ، حملقَ بيّ فاحصاً بعينيه الذكيتين وعلق:

- أش بيك سُلُم!

هكذا يطيب له مناداتي في أقصى لحظات بهجته، أردف:

- تعرف سُلم لو كان عندي أبو مثل أبوك كان يومية أصلي له!

انفجرتُ بضحكةٍ عاصفةٍ فعلي تمرمر من أبيه، زَوَجهُ حال خروجه من سجن الحلة في أعقاب نكسة حزيران، وبعد أشهر طردهما بثيابهما وأستولى على غرفة عرسه، فتنقل بين غرفٍ مستأجرةٍ، يَهل تراب سقوفها، كنت نديمه فيها، وكان يحكي لي مهضوماً من قسوة أبيه مُشَغِلْ مضخات المياه المزواج.

- هيا إلى القصيدة!

هتف بجدٍ ولم يعقب جملته بضحكةٍ فأدخلني في عالمِ حلمٍ جَعَلَ الموجودات تطوفُ مجنحةً؛ المارة على الأرصفة، البنايات، الأسواق، العربات، لم يكف عن رسم صورة الأحداث الذاهبين لتوثيقها بخيال شاعرٍ لا تحده حدود، طوال الطريق من مقهى "صنكر"وسط السوق حتى بيتنا في "العصري":

- تخيل سُلُومْ مطلع الخمسينيات، الديوانية صغيرة من ثلاثة محلات فقط، الصوب الصغير والسراي والجديدة، تخيل معي

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

"الگرفت"اللي وسط المدينة الآن كانت ملجأ للهاربين من العسكرية، وبتلك الظروف ينبشون قبراً دفنته السلطات سراً، وأبوك قائد العملية، ألم أقل لك إننا سنكون بحضرة قصيدة باللغة العذوبة، وتنظر لبدلتي الرسمية بطرف عينيك ساخراً، سَلومْ أبوك قصيدة سندخل عالمها الساحر بعد دقائق!

كان مبهوراً فلم أُذَكره بالمراتِ التي لاقاه فيها دون أن يبدي اهتماماً به.

وجدنا أبي جالساً بمكانهِ المعتاد في الفسحة الصغيرة المطلة على حديقته المنزلية، مرتباً كل شيء؛ المنضدة، صحون المازة، قنينة عرق العصرية، الكؤوس الثلاثة، تحلقنا حولها، طوال الجلسة كنتُ أختلس النظر إلى وجه صديقي وحركاته أثناء إنصاته وتسجيل ما يسمعه بدفترٍ، وعيناه تلمعان مبهورتان بما يرويه أبي، كان يخطف بصره نحوي خطفاً ويعود للإنصات والدهشة، متهيباً كأنهُ بحضرةِ مقدسٍ، وقتها أصابني العجب فـ"علي"بمثابة نبيَّ الخاص، مرجعي النضالي والثقافي والأدبي، وها أنا أراه مفتوناً، ساحر الكلمات مفتوناً، الخارج من سبع سنين قضاها في سجن "الحلة"ومن بين جدرانه فتنتنا أشعاره المسربة فحفظناها عن ظهر قلب وأنشدناها في المقاهي والسهرات، الساحر يجلس جواري مأخوذاً بأبي، يحملق بولهٍ متيمٍ، لحظتها وَقَعْتُ على سرِ تَدلهْ قصيدة "الشباني"بشخصية المناضل الشعبي المجهول.

أنصتنا إلى ما قصّهُ أبي، لم يكن موجزاً فحسب بل شديد الإيجازِ مثل يومه، مثل وقته الثمين وهو يكدح من أجل أخوته وأبنائه، حكى دون تفاصيل عن تكليفه، فقام باختيار المجموعة المكونة من عدة رفاق ودليلهم كان رفيقاً موظفاً في البلدية

منشورات «الفيـاء» AlFyaa»

أشرف على دفن المتوفى وأَبْلَغَ الحزب، فخاضوا مع أول المساء في مياه "اليوسفية"وهي قناة صرف عريضة تحمي المدينة من فيضان نهرها الصغير، حفروا، أخرجوا الجثة.

كانت حسب وصفه خفيفة كهيكل عظمي، حملوه حتى قناة الصرف وعبروا به سباحةً وكانت تنتظرهم عربة يجرها حمار على طريق زراعي، لفوه بكفنٍ ووضعوه في حوضها، وقصدوا بيت "عريس الدبي"مربي جاموس يسكن طرف "الجديدة"جوار ماكنة الثلج الوحيدة ومنها جلبوا قوالب ثلج، كسروها وحشروها حول الجثة في تابوتٍ خشبي، مع أذان الفجرِ نقلوهُ بعربةٍ يجرها حمار إلى جامع الحاچم المجاور لسوق التجار، فهبتْ الديوانية عن بكرةِ أبيها تُشّيع الرفيق المجهول حتى كراج "النجف"وبقية القصة معروفة، هكذا ختم حديثه. لم يكن صديقي مذهولاً بالتفاصيل التي يرويها فاعلٌ وشاهدٌ حي فحسب بل أنا أيضاً أبهتتني، وتساءلتُ:

- معقول.. خرجتُ من صلبِ رجلٍ اشترع ما يشبه الأساطير في النضال بالرغم من بساطة حياته، بحيث سعى أعرق حزبٍ عراقي لتوثيق أفعاله وتسجيل شهادته بعد مرور أكثر من عشرين عاماً على حدوثها، معقولْ!

طلعنا من باطنِ القصيدةِ مسحورين، نسير مثل مخدرين، فمثل هذه القصص لحالمين مثلنا فعلٌ يفوق فعل الخمر، وفعلاً أصابَ صديقي حينما هتف قبل ساعتين:

- سُلُمْ هيا بنا إلى القصيدة!

ليلتها تسكعنا بأرجاء الديوانية حتى مطلع الفجر نتحدث عن المخبوء من قصص كهذه بين الناس البسطاء المحيطين بنا، قلنا

منشورات «الفيـاء» «AlfYaa

في خاتمة اللقاء بما معناه:

- إن الشعبَ كنزٌ لا ينضب!

كتـبَ "الشـباني"نصـاً قرأتـهُ مخطوطـاً غارقـاً بالحمـاس والعبارات العاطفية الثورية، يطـغي عليـه الإنشـاء والتهـويم اللغوي الطنان سينشر في عدد من أعداد "طريق الشعب"العلنية الأخيرة في ذروة حملة السلطة على الشيوعيين بعد خـراب الجبهـة الوطنيـة، لـم يقـع العـدد بيـدي لكـن الشـاعر "وليـد جمعة"سيخبرني في بيروت بنفس العام بأنه حرر المادة وَنُشِرَتْ في تلك الأيام العصيبة.

منذ سماعي القصة بثُ أراكَ تتسلل ليلاً، تعوم عابراً المياه العميقة مع رفاقك وتتوجه نحو المدفن تحـت نجـوم السـماء المتدلية في الظلام الدامس كأضواء، تتقدم نحو الحقيقة التي حـاولت السـلطات إخفائهـا، رأيتـكَ يافعـاً قويـاً في منتصـف عشرينياتك، لم تدمن الشرب بعد، وفي قمة حماسك الثوري تتهامس مع الدليل عن موقع الدفن، تجسّدتم كملائكـة وأنتـم تزيحون التراب الرطب الهش بالمساحي عن حفـرة رفيقكـم الغريب الذي لم نتمكن لا أنا ولا "الشباني"من معرفة أسمه الحقيقي فلا أبي ولا رفاقه ولا منظمة الحزب عَرفتْ أسمهُ، قيل أنه مسيحي من الموصل، معلم من بغداد، ووو، ولم نقع على خبرٍ يقين. تخيلتُك يا أبي تحتضن جثة رفيقك المجهول الملفوف في كفنٍ مترب، تحملونه وتخوضون به عابرينَ نهر التصريف غير آبهين بعطن الموت، تخيلتُ وجوهكم تلمع بنشوةِ النصرِ في الظلامِ، فالحقيقةُ بين أيديكم وغداً ستكون فضيحة السلطات، أتخيل الأحداث والأمكنة والشخوص وأكتب ما رويتهُ عن ذلك السجين الذي كان غريباً وأنت لا تدري بأنكَ ستعاني من نفس

منشورات «الفـياء» «AlIYaa

المحنة، فجثة أخي الصغير "كفاح"لم تُسَلَّمْ إليك، إذ أبلغوك بأنهم دفنوه، طالبتهم بمكان القبر دون جدوى، ولم تكف عن المطالبة إلى أن هددوك، قتلوه غريباً مثل رفيقك الذي نبشته، وفشلتْ كل محاولاتك للعثور عليها، ليس "كفاح"فقط بل أبناء أختيك الصغيرتين "نعيمة سوادي"و "سهام سوادي"وهما "علي عبد الباقي"و "صلاح مهدي الصياح"، وحفيدكَ "محمد حازم مرتضى"ابن أختي "وداد"الذين صُفّوا جميعاً في أقبيةِ الدكتاتور بعد سنوات قليلة من جلسة شهادتك.

لم تُشْبِع طريقة رويكَ فضولي، في الصبيحة التالية سألتُ أمي عن الحادث الذي أوجزتهُ بكلماتٍ قليلةٍ، فوقتَ زيارتنا أنا والشباني لم تكن هي في البيت، كانت في زيارة لخالتي "زهرة"، تَمَلمَلَتْ حال سماع اسم "علي الشباني"، فهي تعزو مصائبي كلها إلى علاقتي به، رَفَعَتْ رأسها ورمقتني بعينيها البنيتين العميقتين، كانت تنقي الرز من الشوائب في صينية كبيرة وقالت:

- تعرف أمنين خايفه يمه؟
- منين يمه؟
- خايفه تصير مثل أبوك!
- شنو قصدك؟
- لا أبالي!

غصصتُ بضحكتي وسألتها:

- بالله أش لون فهميني؟
- أسمع أبني أتذكر ذيچْ الليلةْ عبالكْ أمسْ ما خبّرني لبسْ

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

ملابسهْ وطلعْ بالظلامْ وتأخر ما نِمِتْ ليلتها، أنتَ بَعَدَكْ ما صايرْ، بقيتْ سهرانه حَسْبه إجيبني وحَسْبه توديني، سَهرتْ لما طر خيط الفجر وأخواتك نايمات، وجه الفَجِرْ دَخلْ الغرفة ثيابه مبلله ومطيّنْ. نزعها وانطرحْ بفراشنا، مبتِسمْ مثلْ طِفْلْ حلمانْ وفرحانْ، وغفى مثل ميتْ، ما عرفتْ وين چان وأش صاير وليش سعيد لكن عرفتْ لمن شَيعوا جثة الغريب وضجت المدينة!

وأكمَلتْ شاكيةً فسألتني:

- سولَفْ إلكم أش صار وره الدَفِنْ؟

- لا!

- أسمعْ وأنتبه أُبوكْ يتصَرفْ وما تهمه النتائج، المهم اللي برأسه يسويه، وأنتَ يمكنْ طَالع عليه!

كانَ تشخيصها دقيقاً، صرتُ نسخةً منكَ مع اختلافِ الزمن والتفاصيل، أكملتْ بِلَهجةٍ محروقةِ القلب:

- الحزب بَلّغْ المنظمين ما يرجعون للديوانية عن طريق الشامية، بس أبوك ما منظم وعنيد يسوي اللي براسه، رفض نصيحة أخوته المنظمين "موسى"و "خليل"اللي رجعوا عن طريق الحلة، بالشامية كانت الشرطة والأمن منتظريهم فأخذوه هو وعمك "عيسى"هَتّافْ التظاهرات وبقية المشيعين البسطاء وسجنوهم بالشنافية على حدود السعودية، ظل بالحجز أشهر شفنه الضيم بيها إلى أن توسط "كاظم جاسم"أبن خال أبوك (بيت السعدون متنفذين من أعيان المدينة، لهم مواقف من الشيوعية الرائجة في أعقاب الحرب العالمية الثانية بينما اعتنقها أولاد إبراهيم المتزوج من بنتهم "زهرة"جدتي) فسافر مع وفد

منشورات «ألفياء» AlfYaa«

من أعيان الديوانية وأخذوا سيارة محملة سلال عنب وتمر وتفاح وبرتقال ورمان وخبز.

على أمل إيجاد حلٍ، والطريق صحراوي قاحل موحش، قطعتهُ في تلك السنوات حينما زرت أختي الكبيرة "ساجدة"وزوجها "سعد عبد الباقي"مدير البريد فيها، فتخيلتُ موكب الأعيان في ذلك الصيف القائظ، بطء المركبات القديمة بداية خمسينيات القرن المنصرم وعناء السفر، رأيتهم يصلون مكان الحجز وأنا أنصت إليها، "كاظم جاسم"بقامته القصيرة وملبسهُ الرسمي الأنيق؛ ربطة عنق، قميص أبيض، قاط أسود نظيف، قسماته جميلة مضرجة بلون البرتقال يتحرك بحيوية لم تفارقه حتى أخر لحظة في حياته، يُفاوضكَ في ساحة الحجز الواسعة المجاورة لبناية شرطة الناحية، لم تكن أبن عمته فحسب بل كان يحبك حباً جماً وأنت كذلك في علاقةِ ودٍ لا تفسير لها، فأنتَ عاملٌ كادحٌ وهو مقاولٌ، لكن في الحب يغيب المعنى، استمرت علاقة الود حتى أخر العمر، ومن غريب الصدف موت "كاظم"بنوبة قلبية مفاجئة في أيار 1976في بيت زوجته الثانية المقترن بها سراً في بيتها خلف موقف "حي العصري"فرفضتْ "أم فائز"زوجته الأولى استقبال الجثة، فَنُقِلَتْ إلى بيتنا بالعصري ومنه جرى تشييعه، وتابوت عمي "كاظم جاسم"هو الوحيد الذي رأيته مسجى في غرفة الضيوف فأخي كفاح لم تسلمنا السلطات جثته، وأنت وأمي رحلتما وأنا بالمنفى.

وضعوا سلال الفاكهة والخضر أمامكَ، كنت تتقدم أمتاراً عن صفوف رفاقك في مواجهة أبن خالك "كاظم"مفاوض الوفد، فأشرتَ قبل الكلام إلى رفاقك لحمل السلال إلى داخل باحات الحجز، أخبرتني لاحقاً وأنا أدقق في تفاصيل ما جرى بأن

منشورات «الفيـاء» «AlFyaa»

المحجوزين قتلهم الجوع والعطش والحر، فأهم خطوة كانت مصادرة السلال قلتها هازلاً وأنت تقهقه، ثم سألتَ ابن خالكَ، عن شروط فكْ الحجز، أستطيع رؤية المشهد الآن بالرغم من مرور قرابة سبعين عاماً، شمس صحراء الجنوب الحارقة والأجساد المعروقة، وجوه الوفد المريشة بملابسها الفاخرة، ووجوه المحتجزين اليابسة المتعبة بملابسهم الرثة بعد أسابيع من الحجز والتجويع، كان عمي "كاظم "فتياً يحدثكَ بلباقةٍ وأسلوبٍ ناعمٍ فهو خير من يعرف عنادكَ وصلابة مواقفكَ، يتحدث بصوت ابن الخال المُحب المتودد لحل المعضلة، فوجود هذا العدد من المبعدين صارَّ عبئاً على السلطات محدودة الإمكانية وقتها، وأنتَ تنصت بعينين ساخرتين عارفاً خفايا اللعبة فابن خالك ليس وسيطاً بريئاً بل هو مبعوث سلطة

لذلك بادرتَ بسؤالٍ محايدٍ شديد الكثافة والدقة ومن كلمة واحدة:

- شروطكم؟

فانبرى بلهجةٍ شفافةٍ، حاول فيها تسهيل الأمر فاقترب منك وبصوتٍ خافت خاطبك بكنية التدليل:

- "عبيده"ورقة صغيرة وجملتين، توقيع تعهد بعدم التظاهر مرة أخرى، وهسه ترجعون للديوانية بلوريات خشبية وتنتهي المشكلة!

رأيتُ وجهك يا أبي مجسّماً بقسماتكَ الصلبة كأنها منحوتة من جذوعِ النخيلِ، شامخاً بقامتك المماثلة لقامة ابن خالك، سمعتك ترد ساخراً بجملةٍ مدببةٍ صلبةٍ خشنةٍ في مواجهة نعومة وليونة لهجته:

منشورات «الفيلة» AlFeel

- وإذا ما نوقع!

رانَ صمتٌ وسكنتْ الوجوه بعيونٍ لامعةٍ منتظرةٍ، فخطى نحوك خطوتين حتى كاد أن يلتصقَ بكَ، أدنى فمه من أذنك اليمنى وهمس بوجلٍ:

- تتسفرون خارج العراق!

انفجرتَ بضحكةٍ طويلةٍ عاصفةٍ

- ~~هههههههههههههههههههههههههه~~

تمالكت نفسك بصعوبة وجهرت بصوتٍ عالٍ:

- نتسفر ههههههههه

~~ههه~~
~~ههه~~
~~ههه~~
~~هه~~

خفتت موجة الضحك، توازنت وقلت كلاماً موزوناً بميزان الذهب:

- أسمعْ "أبو فائز"أني عراقي ابن عراقي ابن عراقي، اللي لازم يتسفر هو الملك الحجازي اللي نصبه الإنكليز، خلي يرجع منين أجه هو وأسياده!

مو بس هذا أبو فائز (العراق ما يحكمه غير العراقيين)

نطقتَ كلامك بتشديد وصوتٍ جهوري، ثم التفتَ نحو رفاقكَ وهتفتَ هتافاً مدوياً رددوه خلفك بصوتٍ واحدٍ انتشر صداهُ في الصحراءِ المفتوحةِ حتى الأفق:

منشورات «الفيـاء» «AlfYaa»

- يسقطْ الملك

يسقط عملاء الاحتلال

عاش العراق

عاش الشعب

عاش الوطن

ليهدر المحتجزون منشدين بصوتٍ مدوٍ هادرٍ

السجن ليس لنا نحن الأباة

السجن للمجرمين الطغاة

فانسحب الوفد و "كاظم جاسم"يردد:

- ماكو فائدة ويه "عبيده"أبد، ماكو فائدة.

كنتُ أنصت بلهفةٍ، فبالرغم من مرور أكثر من عشرين عاما على وقت رواية الأحداث، لكنَّ أمي بَدَتْ منفعلة كأنَ ما ترويه حدث البارحة. ختمت روايتها قائلة:

- فَكوهمْ من الحجز بعد شهر، وأبوك ظَلتْ وَشيعته مَصبوغة، وما يهتم ولا يخاف، ولا يهمه أي شيء!

ما كانتْ تعيبهُ أمي عليكَ كونكَ لا تَحسبْ ردود الفعلِ على مواقفكَ، ورثتهُ منكَ.

منشورات «الفيــاء «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الفصل الثاني والعشرون

نذر

منشورات «ألف ياء» «AlifYaa»

جئتُ إلى الدنيا بعد أربع بنات، واحدة ماتت بعد أيامٍ من الولادةِ، هكذا أخبرتني أمي التي دأبتْ على روايةِ لحظة ولادتي التي أنقذتها من لومِ عائلتي الكبيرة، فأبي أكبر أخوتهِ، ثم تسهب مصورةً غرفتنا في بيت جدي "إبراهيم"المنزوية في طرف الحوش الواسع والمظللة بسدرة البيت الشاهقة:

- يمه أِجيتْ غبشة للدنيا، وجهكْ يشعْ نورْ، طويلْ وراوي ومن جمالكَ ما خَليتْ أحدْ من الجيرانْ يشوفكْ حتى الأربعينْ!

انتقلنا إلى بيتنا في "الحي العصري"بعد توسع العائلة واحتدام المشاكل بين زوجات الأخوة، لكنني لم أنقطع عن بيت "جدي"القديم حتى هروبي إلى الثوار في الجبلِ ، كانَ في محلة "الفاضلية"جوار سوق التجار، أسحبُ قدميّ كلما سنحتْ الفرصة نحوه، أُسلم على من فيه وأقصد طرفه، أقفُ تحتَ ظلالِ سدرتهِ الكبيرةِ أتخيلُ الغرفة التي جُدِدَتْ فتغيرتْ ملامحها، فأعيدُ تخليقها رائياً الزاوية التي خرجتُ فيها إلى الدنيا، شكلَ الفجرِ ولون الفضةِ الخفيفِ المتسللِ من بين كثافةِ الأغصانِ، ووالدي يدور في نفس المكان الذي أقف فيه، حائراً يخشى الدخول لرؤيتي، فقد أشبعها تعليقاً في حملها الخامس كونها لا تلد إلا أناثاً، منتظراً خروج عمتي "نعيمة"من الغرفة كما روتْ لي إذ ترجاها كي تطلب الإذن من أمي ليدخل ويلقي نظرةً عليّ، ففعلتْ، تخيلتهُ وهو في عزّ شبابه ابن السادسة والعشرين رشيقاً حيوياً لا يسعه العالم لحظتها، يدخل الغرفة ويخطو وسط النساء مقترباً من الفانوس المعلق جوار فراش أمي، يرقص قلبهُ لمرآيَّ غير عارفٍ أية أحزان وعذابات سوفَ أسببها لهما.

كنتُ أنصت إلى أمي مبتسماً وهي تذكرني بأنها نَذَرَتْ فيما

منشورات «الفيـاء» «AlFyaa»

لو رزقها الله ولداً "صينية شموع وحلوى"ليوم عرس القاسم حيث يُزَفْ كل عام إلى عروسته قبل ثلاثة أيامٍ من مقتلـهِ بالعاشر من عاشوراء، فتخرج النسوة والأطفال المزينون بقطعٍ من القماش الأخضر يلتف حول رقابهم ويتدلى على أثوابهم السوداء. أخبرتني أنها كانت تحملني في ذلك اليوم منذُ السنة الأولى وحتى بلوغي الرابعةَ، فجعلتُ أسير جوارها ممسكاً بكفها، كان الموكبُ يسير مع حلولِ الظلامِ فيشع الشارع بهجةً بالشموعِ وزغاريد الفرح، فتنتشي وجوه النسوة والرجال المحتشدون على الرصيفِ في حلكة أحزان أيام عاشوراء. أحاول تذكر أو تخيل أحاسيسي فلا أصل إلا إلى أن مشاعري كانت حيادية، غير منفعلة بما يجري حولها، فأنفصل عن المحيط والطقس شاعراً بعدم جديته، كنتُ أراه مشهداً تمثيلياً سرعان ما ينتهي حال انفراط الموكب قرب رقبة الجسر الخشبي وسط المدينة، فتسحبني أمي متعبةً وتعود بي إلى بيتنا القريب.

أكملتْ وهي توجه حديثها لأخواتي وأزواجهن المجتمعين في بيتنا المستقل بعد حفنة سنين:

- نذرت صينية للقاسم أول أربع سنين، وبالخامسة يبدي يضرب زنجيل ويا ريتني ما نذرته!

قالتها وأطلقتْ ضحكةً عاصفةً، جعلتهم يغرقون في ضحكٍ متواصلٍ، فالجميع يعرف تفاصيل القصة التي تعيدها كلما حلَّ عاشوراء، أصابني ضحكهم بالعدوى وأمي غير قادرةٍ على مواصلةِ الحكي إذ يخنقها الضحك كلما حاولت.

في يومٍ عدتُ إلى البيتِ من لعبِ الشارعِ فوجدتها منشغلةً

منشورات «الفياء» «AlFiyaa

بماكنة خياطتها القديمة في الغرفةِ التي تتحول في النهار إلى مشغلٍ للخياطةِ وفي الليل إلى غرفةِ نومٍ نتكدس فيها جميعا، انتبهت فطلبتْ مني الاقترابَ، ذهبتُ إلى جوارها، فراحتْ تقيس كتفيَّ وطولي بشريط قياس.

في مساء نفس اليوم ألبستني دشداشة سوداء محفورة من أعلى الكتفين بمستطيلين يظهران جلد كتفيّ، أوقفتني أمام مرآة منضدة الأفرشة أدخلتْ ذراعها في كيسٍ خوصٍ عميقٍ وناولتني سلسلة حديديةً لها مقبض من الخشبِ تتأرجح من نهايته سلسلتان حديديتان تتعشق حلقاتهما ببعضٍ، رَفَعْتُهُ أمام عينيَّ وعددتُ حلقات السلسلةِ فوجدتها سبعاً، ثم نظرتُ إليها، كانت مسرورةً تنظر نحوي تارةً، وصورتنا في عمق المرآة في أخرى، مرددة:

- الحمد لله والشكر، الحمد لله ولسيد الشهداء اللي حفظك.

ورفعتْ ذراعيها بالدعاءِ ناظرةً إلى صفحة السماءِ الزرقاء الظاهرة من فتحةِ البابِ، وإلى صورةِ "الحسينِ"الملونةِ بوجههِ الجميل المشرق وقسماته المنحوتة، الناظر صوبنا بعينيه السوداوين من الحائط المقابل للباب، مكررةً الشكر في مرةٍ والتوسل في أخرى، في أخر المطاف أخبرته أن نذرها ستكملهُ هذا العام، فها هو ولدها البكر يرتدي ثوبَ الحداد، ستأخذه بيدها هذه الليلة إلى موكبِ عزاءِ "صاحب عكموش"ليضربْ الزنجيل حزناً على مصيبة سيد الشهداء، وسيواصل الاشتراك في طقوس عاشوراء كل عام، وختمت بوجهٍ يذوب خضوعاً وهي تكلم الصورة:

- سيكبرْ على محبتك، ومحبة آل البيتِ الأطهارِ!

التفتتْ إليَّ، تأملتني وفي قسماتها سعادة لا توصف، انهمكتْ

منشورات «الفيـاء AlFyaa»

بتعديل الثوب المُثَقب على جسدي، أوصتني أن لا أقسو بالضرب، أبدأ بضربات خفيفة إلى أن أتعوّد، ثم وضحتْ بلهجةٍ واثقةٍ:

- في البداية راحْ يوجْعَكْ لكنْ بَعْدَيْنْ راحْ "أبا عبدالله"يخليكْ ما تشْعُرْ بالألمْ أبداً!

في الغروب قادتني من يدي بثوبي الأسود المفتوح من الظهر والسلسلة الحديدية تتأرجح من يدي فتصدر قرقعة رتيبة الوقع مع كل خطوة أخطوها، كنتُ متضايقاً أشعر بالخجلِ على العكس من جميع الأولاد في كردوس الأطفال المحاط بالأمهاتِ الواقفات على جانبي الشارع، أخالسُ النظر إلى وجه أمي الفخورة وسط النسوة بقامتها الطويلة وقسماتها المتناسقة الجميلة وبشرتها البيضاء المضيئة. ابتدأنا المسير على إيقاعِ الطبولِ والصنوجِ، فرفعَ الأطفالُ سلاسلهم عالياً ليهووا بها على ظهورهم، ثم رفعوها ثانية ليضربوا الكتف الآخر في إيقاعٍ يتصاعد على وقعِ آلات العزف المطعمة بضرب النقارة المُرَقّص، إيقاع يطغي على أصواتنا المرددة بما يشبه الصراخ:

- حسين.. حيدار.. حسين.. حيدار!

فعلتُ مثلما أوصتني أمي السائرة مع جمعِ الأمهاتِ على الرصيفِ، كان الموكب يتوجه إلى مركز المدينةِ، أرفع السلسلة عالياً وأهوي بها في ضعفٍ، مع الضربة الرابعة أستعر الألم وراح يتزايد بما تلاها.

كم مرة وددتُ الكفَّ عن ضرب جسدي وترك الموكب، لكني أفكر بعيني أمي المبتهجتين وهي تلاحق حركة ذراعيَّ فأهوي بالحديد على جلدي العاري، لاحقتُ حركة الأطفال وهم يهبطون

منشورات «الفياء» «AlIYaa»

بالسلاسل بحماس دون أية علامة ضيقٍ، ما عدا تقطيبة ألم تظهر خطفاً على القسمات البريئة لحظةَ نزول الحديد تختفي مع تصاعدِ صراخٍ:

- حيدار.. حيدار.. حيدار!

لا أدري كيف أنقضتْ الأيام العشرة، كانت أمي تداري احمرار كتفيَّ بالكماداتِ الباردةِ ودهن الطبخ، وأعشاب لا أعرف أسمائها، لم أظهر شيئاً من أحاسيسي الداخلية وضيقي من الطقس، فأنا في حقيقة الأمر أستمتع بمشاهدته، وأتضايق جداً من ممارسته.

في العام التالي زادتْ السلاسل باتت ثلاث والعام الذي تلاه أربع، فتعودتُ الضرب لكنني مللتُ ونَفرتُ من الطقس كله ولا سيما في السنةِ الخامسة إذ لم تعد أمي ترافقني وتعود بيّ، بل باتتْ تحضّرْ كل شيء في البيتِ فأخرج وحدي، بدأتُ أتأخر لألحق بالموكب بعد قطعه منتصف الطريق، فيخفَ وقع الضربِ ويقصر وقتَه إلى أن عدت لا أشارك فيه، وفي مساءٍ حارٍ لم ألتحقَ بالموكب كالأيام السابقة وقفتُ على الرصيفِ متفرجاً على مواكبِ المدينةِ في مكانٍ تفرقها جوارَ المحكمةِ القديمـةِ، وفي طريق عودتي توقفتُ أمام بيت "صاحب عكموش"المضاء حيث يتجمهر الناس حول الباعة.

اجتذبتني رائحة "الدهينية"المنتشرة من صينيةٍ يتصاعد منها البخار، موضوعة على عربةِ دفعٍ، لم أكن أملك فلساً واحداً، فتلتفتُ علّي أعثر على أحدٍ من أعمامي أو أخوالي دون جدوى، نظرتُ إلى السلسلة طويلاً قبل أن أعلن:

- منو يشتري الزنجيلْ بعشرْ فلوسْ!

منشورات «الفياء» AlFyaa«

إنزاح عن كاهلي ثقلٌ هائلٌ لحظة إطباق أصابعي على قطعةِ النقودِ.

لم أذُق ألذَّ من قطعةِ الحلاوة الكبيرةِ التي ظللتُ أَمضَغها حتى بابِ البيتِ.

دفعتُ الباب مستعداً للمواجهةِ، فرأيتها تُقبِلُ عليّ مستبشرةً أول الأمر وحينما لم ترَ السلسلة بيديَّ، سألتني:

- يمه وين الزنجيل؟

دون أرتباك كذبتُ قائلاً:

- ضيعّته في الزحمة!

حققتْ كعادتها، كنتُ مضبوطاً في أجوبتي، صمتتْ طويلاً لتقول أخيراً:

- الله كريم تنْحَلْ!

في اليومِ التالي أخبرتني بأنها ستخرجْ إلى سوق الصفافير لتشتري زنجيلاً جديداً، لم أتحملَ شعرتُ بالذنب فأخبرتها حقيقةَ ما جرى.

أكلت ضرباً مرتباً لكنني تحررتُ من نذرها إلى الأبدِ.

منشورات «الفياء» AlfYaa«

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الفصل الثالث والعشرون

بريجيت باردو

أخذتني أمي كعادتها إلى النجف لزيارة ضريح الإمام "علي"وقبور أمها وأبيها والعائلة، لتوي بَلَغتُ سن الحلم وَتَلعّثتُ بعد أن تمَّ إفسادي في دكان "عمي"، كنتُ ناعماً أبدو أصغرَ من عمري، وكانت النساء اللواتي تلتقي بهنَّ أمي في صحن الإمام أوقات الاستراحة يتحدثنّ دون حرج في مواضيعِ تتعلق بالعلاقةِ بأزواجهنَّ ومآزقها، كنتُ أتصنع البلاهةَ والانشغال بالنظرِ إلى جموع الزوار الخارجين والداخلين، وكل حواسي مركزة بحاسةِ السمعِ متتبعاً قصص تلك النسوة الغريبات القادمات من مدن الجنوب المختلفة وهنَّ يفضين بضيم حياتهن لزائرةٍ تكبرهنَّ يبدو عليها الوقار مثل هيئة أمي الجميلة العميقة النظرات والقليلة الكلام، أخالسُ النظرَ إلى وجوه تلك النسوة اليافعة الجميلة المضرّجة والمغسولةِ للتو من أحزانٍ نزعتها جوار شباك الذهب، وفضفضت للراقد تحت قبةِ الضريحِ بكل ما يُثقل يومها وحياتها، فخرجتْ وكأنها جديدة متحررة من كل القيودِ لتسرّ لوجه غريب يبعث على الثقةِ بتلك الدفائن التي همستْ بها للإمامِ. عشرات الوجوه وعشرات القصص المروية بلهاثٍ وحرقةٍ نستمع لها أنا وأنتِ بصمتٍ تقطعينه بتعليقٍ قصيرٍ يخفف وطأة عذاب الراوية قليلا، كنتُ لا أفهم بالضبط فحوى الكلام الذي في مراتٍ لا يكون واضحاً، بل مرموزاً بإيماءاتٍ وإشاراتٍ لا أفهمها؛ لكنهن مع ذلك يهززن رؤوسهن دلالة الفهم، ومع حصولي على شهادةِ الإفسادِ وبلوغي أولَ الحلم تفككتْ الرموز وَبِتُ أفهم ما يؤشرنَّ إليه، مما فتحَ ليَّ أبواب الأسرار مبكراً، فَعرفتُ أي عسفٍ وأي عذابٍ تتلظى وتتقلب فيه الزوجة في بيئة جنوب العراق، سَمعتُ قصصاً كان وقعها عليّ فادحاً، زوجاتٌ جميلات يتعذبنَّ في ليل الفراش ويتعرضنَّ للاغتصابِ كل ليلةٍ، زوجاتٌ يشكين من شذوذِ الرجلِ وهو يُقبل

منشورات «الفيــاء» AlFyaa

عليهن من دبرٍ تاركاً فتحة الله المشرعة، زوجات يشكينَّ من هجرٍ ويكررن جملة لم تفارق ذهني كل العمر

- مو صِرْتْ شِجْره ما ضايگه الماي! يا أم سلام ذبلتْ.. ذبلتْ.. وشوفيني مو ذابله!

فأخالس النظر إلى تقاطيعها الجميلة المحزونة المتوردة متسائلاً مع نفسي:

- لِمَ تقول ذابلة وهي مثل وردة!

لم يعلق بذهني من هموم النساء الغريبات العابرات غير شكوى الفراش والليل ومعاناة الجسد.

- هل سرير النوم والشهوة هو حكم السعادة والتعاسة؟.

- هل الجنس وتداعياته هو ما يحدد معنى العلاقة بالجنسين؟.

هذه أسئلة انبثقت الآن وأنا عبرت الستين.

لم أنس أبداً تلك الزيارة التي أكتب عنها، وحرقة تلك الفتاة الساحرة التقاطيع وهي تفضي لاهثةً بصوتها الموسيقي العَذِب بعذابها وتقول:

- يا أمْ سلام مو أَني أَحِبْه وأَريده بَسْ هَوَ يِحْبْ الفْروخْ، يجي بالليلْ سَكْرانْ، تَعبانْ وإذا مِشْتِهي فيريدْ منْ وَره، والله تَعبِتْ يا أم سلام والله تَعَبِتْ وَينْ أروحْ وَينْ أَشْرِدْ وَينْ أَنْطي وجهي وعندي جوگة أطفال!

كانت تهدر في إيوان بصحن الأمام وكنا لوحدنا فيه. اقتربتْ أمي منها حتى لاصقتها لحظة شروعها بالنحيب وسحبتها إلى صدرها فانفجرتْ بنحيبٍ مهضومٍ، تابعتُ أصابعَ كفيّ أمي وهي

منشورات «الفيا» «AlYaa»

تربت على ظهرها المهتز المعروق إلى أنِ هَدَأتْ وَسَحَبَتْ جسدها ببطء من حضن أمي فرأيتها طريةً متناسقةً ساحرةً كتقاسيمِ "بريجيت باردو"التي جمّعتُ صورَها من المجلاتِ التي يشتريها "عمي"كي يتلهى بها الزبائن بانتظارِ دَورِهم للحلاقة. ها هي التقاسيم الدقيقة المتناغمة لبريجيت حيةً تنبض بعينيها، دموعٌ لم أرها أبدا في صورةٍ فوتوغرافيةٍ، حيةً تَنْفَصِلُ عن حضنِ أمي وترمقها بعينيها الساحرتين، بعشقٍ ومودةٍ وتتعطفْ عليّ بفيضِ عينيها المحبةِ.

مشهد كأنه حلمٍ عاشرني حتى المشيب. غادرتنا "بريجيت العراقية"ملفوفة بعباءة سوداء إلى يوميات عذاباتها الزوجية، سحبتني أمي إلى خارجِ الصحنِ في طريقِ عودتنا إلى كراجِ "الديوانية".

اشترت من السوق المسقوف هداياها، "دهينيَّة"، وطرشي النجف و "منّ السّما"، فأصررتُ على المرور على محلات بيع الكتب، فأذعنتْ على مضضٍ. وَقَفتْ على الرصيف بانتظاري خارج مكتبةٍ كبيرةٍ، جنة ستسحرني لآخر العمر، يومها اشتريتُ كتاب كولون ولسن "أصول الدافع الجنسي"وعدد من مجلة الشبكة اللبنانية صورة غلافها "بريجيت باردو"شبه عارية وفي عزّ شبابها.

أتذكرني بوضوح، كنتُ نزقاً، جارفاً، ما أستحي، حملتُ المجلةَ والكتابَ وأمي تسير جواري قلقةً لا تستطيع سؤالي عما اشتريتهُ، وحتى لو أخبرتها فهي لا تقرأ ولا تكتبْ، كانتْ قلقةً مني، ومن وجودي.

- أليس كذلكَ يا "علية عبود"كم سعيد هذي اللحظة وأنا

منشورات «الفـيـاء» «AlFyaa»

أستعيدك وأعيش معكِ يا أمي!

أتذكر الآن و "سَلامُكِ"سيتجاوز الرابعة والستين بعد أيام، جلستنا في سيارة المرسيدس القديمة وضيق مقاعدها في طريق عودتنا، أتذكر كيفَ كنتُ غير مبالٍ، وأنظرْ بسخريةٍ ونشوةٍ من طرف خفي إلى عيون المسافرين المحيطينَ بنا وهي تخالس النظر بقسماتٍ مدهوشةٍ تارةً ومنتشيةٍ في أخرى وهي تنتظرْ رحمةَ أصابِعي وتستحثها لِقَلْبِ صفحةً جديدةً من الشبكةِ اللبنانيةِ العاجة بالصورِ المثيرةِ. كانت "بريجيت"باردو عارية بأكثر من صورة في الصفحات الداخلية وبأوضاع مختلفة. كنت نزقاً، سافلاً جداً، غير مبالٍ، متجاوزاً حِشْمَتُكِ يا قديسة، متجاهلاً جملةً ما فتئت ترِدِّدنيَها بهمس طوال الطريق:

- يمه استحِ ضمّ المجلة!

لم أضمها يا "علية عبود"لم أفعل.. لم أفعل بل تماديتُ فظللتُ أقلب عري "بريجيت"في مجلة الشبكة، أقلبُ متلذذاً وأعيد التقليب ساخراً من عيون الركاب المختلسة التي تهرب ما أن أرميها بعيني المستهزئتين.

وإلى الآن لم أزل أقلبُّ وأعرّي العراقي وبيئته!

يمَّه "عليَّه عبود"لم أكف، ولن أكف

فـ "سلّومي"ابنك لم يزل ذلك الطفل العاق.

منشورات «الفـيـاء» AlFyaa»

الفصل الرابع والعشرون

إنّا لله وإنّا إليه راجعون

وَحدكِ يا "علية عبود"وبوقتٍ مبكرٍ اكتشفتِ أن لأبنكِ حياتين ظاهرة ومستترة.

وَحدك بالرغمِ من جهدي للبقاء في سطح الظاهر، لكن المراهقة واستيقاظ الجسد من غفوة الطفولة والبراءة من ناحية، وَدقتُكِ في تتبع مسار الأبناء، أنتِ الذكية الصارمة المتحفظة بشدة،

- هل جعلتك التجارب عارفةً بالخفايا وكأنك تعرفين الأسرار كلها؟

هذا ما بثُ واثقاً منه فقد فكرتُ بهِ طويلاً وأنتِ تكتشفينَ فظائعي السرية بصمتٍ دون أن تكاشفيني مرةً واحدةً، تحسسينني بأنك عرفتِ دونَ كلمةٍ، كان فعل صمتك بليغاً كأن حكمةِ "أبو الهول"صَبّتْكَ صباً، صمتك جعلني أشعر بتأنيب ضميرٍ مركبٍ لازمني العمر كله وطهّرني من الموبقات مع تقدم العمر، فكرتُ بسؤالكِ حينما نضجتُ وعدتُ أرى بعيونِ التجربة، فكنتُ أعزم وأتردد، أعزم وأحجم إلى أن هجم علينا اضطراب نهاية سبعينيات القرن الماضي، فعصف بنا في وقتٍ

منشورات «الفياء» «AlYaa»

بَدأتُ فيه بتأمل حياتي وظروف نشأتي ومجتمعي المقبل على حروب وتمزق وخراب كنت أراهُ مثل رائي.

وَحدكِ رأيتني عارياً بعينيك الفاحصتين وأنا أشتعلُ بعنفوانِ الشهوة وسط محيطٍ قامعٍ جعلنا نُدمن العادة السرية، ونُبالغ فيها، أول شيء فعلتيه، خصصتِ غرفةً لي ولـ"كفاح"الذي يصغرني بأعوامٍ ثلاثة، معزولةً عن غرفتكِ مع أخواتي، صرتُ مُراقَباً والرغبةُ طفحتْ وفاضتْ، لم تعد الأخيلة ترويها فقد تاقَ الجسدُ المشبوب بالنارِ إلى دفءِ الجسد الآخر القريب البعيد، الداني المستحيل، حتى صبايا الجيران حينما تزمّ نهودهنَّ يُحجبنَ وتتفتح عيون الأهل الراصدة، نَكْبِتُ رغباتنا الفائرة فتستعرْ مشتعلةً، نعيش جواً مضطرباً متوتراً مشحوناً يدفعنا إلى ارتكابِ الفظائعِ منفسينَ عن طاقةِ الجنسِ الحبيسة التي أودع الخالق جذوتها في كائناته، طاقة دونها لا تستمر الحياة.

الصبايا بحكمِ سجنهّنَ في البيتِ يَنصَعْن لقدرهنَ، أما نحن فنتمادى في التنفيسِ عن الرغبة المكبوتة، كنّا نجلس في ظهائر تموز الحارقة صفاً طويلاً بظلالِ جدار بيت "منسي القانع"في شارعنا العريض، نتسابق في العادة السرية والناس غارقةٌ في قيلولتها، نبدأ السباق والفائز من يقذف أولاً في مهرجانِ من الضحكِ واللذةِ، حينما يصرخ أحدنا معلناً قذفته تستدير العيون نحوه وأصابعنا المكورة مستمرة في مداعبةِ قضبانها المنتصبة والظاهرة من حافة الألبسة الداخلية العريضة، نستعجل العصر والخَضَّ وسط ضحكٍ عاصفٍ.

أفكرُ في ذلك المشهد بعد مرور قرابة نصف قرنٍ فأجدهُ مشهداً يصرخ، فيه تحدٍ لقيمٍ تكبس بشرها في زاويةٍ ضيقةٍ لا هواء فيها، كنا شجعاناً.

منشورات «الفياء» «AlYaa

مللنا من نكح أكفنا ولم تعد الأخيلة تكفينا، أتذكر ذلك الملعون الذي دلنا على درب أناث الحمير كان صبياً صامتاً، قادماً للتو من الأرياف مع عائلته المهاجرة، تَشَّجَعَ حينما سمعنا نتحاور عن كيفية الوصول إلى فرجِ المرأة، كان غجر "الفوار"على طريق "عفك"لا يبعد عن محلتنا كثيراً مسافة كيلومترات معدودة لكن من أين نأتي بالمال؟

أقترح مضاجعة حماره، وراحَ يَشرحْ ويوصف فرجها ومميزاته، وصفهُ بالحارِ وحلف بـ "العباس أبو رأس الحار"بأنه يچوى وأحرَّ من فرج المرأة، كرر الحلف قائلاً بأنه نام مع قحبةٍ فوجدتهُ لحماً نيئاً بالمقارنة مع فرج الحمارة المتقد، وأضاف بأنها تستطيب المضاجعة وتتجاوب بالرضوخ وتسهيل الأمر.

خططنا لذلك وفعلنا.

سَطونا على إصطبلات الحمير بعد منتصف الليل، حررننا أربع كنا ضعف العدد، قدناهنَّ إلى حقلٍ مظلمٍ يجاور حينا وتناوبنا عليهنَّ في حمى من الضحك الكتوم والهمس الداعر، لم نرتوِ، أزداد جوعنا جوعاً، فدخلنا دائرة الهوسِ والجنونِ، كنتُ أرجع في ساعاتٍ متأخرةٍ فأجدكِ ساهرةً، تفتحين الباب وتسحبينني إلى فسحةِ ضوء الباحةِ، تتفحصيني بعينيك الجميلتين صارمتي النظرات، تنحنين عليّ فقامتكَ فارعة، كنتُ قصيراً أول الشبوب، تشمينني فتبعدين وجهك مشمئزةً لِتَعبّي نفساً نقياً من هواء الباحة، وتسأليني:

- وينْ چنتْ يا مسخمْ ريحتكْ مالْ حيواناتْ.. وينْ چنتْ؟

نزقاً لا مبالياً أقول بضيقٍ:

- يمه تعبان وأريدْ أَنامْ!

منشورات «الفياء» «AlYaa»

تطلقين حسرةً وَتُخْلينَ سبيلي.

لم نرتوِ لا من الأخيلةِ ولا من العادةِ السريةِ ولا من نكح الحمير، كنا نتوق للمسِ جسد أنثى حار، نجح بعضنا مع بناتٍ قريباتٍ أو جاراتٍ يدخلن بَيتَه، جميعهن يرغبنَ باللمس والهمس والعناق، يجري ذلك بغفلة من العيون على عجلٍ بخوفٍ ولهاث وبقلوبٍ تركضُ لذةً وهلعاً.

في الثالث المتوسط كُنّا نَنتشرُ في الليالي تحتَ مصابيحِ الشوارعِ العالية نذاكرَ لامتحاناتِ البكلوريا، نقصُ على بعضنا مغامراتنا السرية، بعضها حقيقي وأغلبها من نسج أخيلتنا المحمومة المهوسة بجسد المرأة ذلك السر الساحر العجيب الفتان موضوعنا الأثير أوقات الاستراحة من المذاكرة.

كنتُ أفقرهم قصصاً ليس لديَّ غير قصة "فتاة البرميل"و "صبي الظهيرة"ونساء عمي في بيته السري خلف سينما الجمهورية الصيفي، و "حميدة"زوجة كاتب الثانوية التي كانت تحممني، وتجارب خفيفة لا أستطيع البوح بها لرفقتي؛ زميلات أخواتي الكبيرات اللواتي يوسعنني عناقاً وقرصاً وعضاً وغزلاً يشعرني بالنشوة بالرغم من صغر سني، لم ألمس واحدة في سنوات مراهقتي الأولى لا جارة ولا بنت عم أو خال فذلك ما لا أجرؤ عليه وأنتِ يا أمي حرّمتِ دخولَ صبايا الجيرانِ في صرامةٍ زادتْ من كبتي وثورتي التي ستعانين منها.

في ليلةٍ من ليالي نهاية صيف أتذكرها بوضوح، كنا ننتشر تحتَ مصابيح الشارع العالية، توقفَ جارنا "باسم"عن الرواحِ والمجيءِ في حدودِ ضوء المصباح المتدلي وأقبل نحو موضعِ جلستي، تضايقتُ أول الأمر ظاناً أنه سيعيد قصة أبيه "أسطه

منشورات «الفيحاء» «AlFayaa»

البناء"الذي مرضَ بغتةً، فعادتْ العائلة الكبيرة بلا موردٍ، دوَختْنا شكواه المكررة كونه الكبير وعليه تدبير معيشة العائلة ولا طريق أمامه سوى ترك الدراسة بعد نجاحة من الثالث المتوسط والتطوع في الجيشِ، سيروي ما سمعه من جنود متطوعين عن قسوة الحياة العسكرية وصرامتها ثم يهون الأمر عليه متخيلاً لحظة استلام الراتب والعودة في إجازة وفرح أمه وأخوته السبعة، تضايقت فالقصة أستطيع رويها أفضل منه وبنسخها المتعددة، تشاغلت عنه وكأني مستغرق في المذاكرة، وقف جواري بوجهٍ باسم يخفي شيئاً، كانَ ذلك بعد منتصف الليل بقليل، وضعتُ الكتاب جانباً مستعداً لسماع قصتهِ التي لا أستطيع إلا التعاطف مع ألمه وهمه، فهو مؤدب جداً، مسالم، قليل الاختلاط، لم يشترك مع جوقتنا التي فعلتْ ما فعلتْ في السر، وعازمٌ على التضحيةِ بمستقبله من أجل عائلته، فالتطوع في الجيش وقتها انتحار بالنسبة لطالبٍ ذكيٍ مثله، قرفص جواري وكتابه مفتوح بين يديه، كنتُ أسند ظهري إلى عامود المصباح الحديدي، أغلقَ كتابهُ وقرب فمه من أذني هامساً:

- "سلوم"أمس أخذني واحد من أقربائي بجولة بالليل!

استفهمت:

- جولة بالليل؟

برقتْ عيناه وأضافَ بصوتٍ أخفض:

- أي سلومي أي.. جولة شفت بها العجائب!

أزداد الأمر غموضاً:

- عجائب وبالليل وجوله!

منشورات «الفياء» AlFyaa»

فَشَرَح بكلماتٍ تخرج من بين ضحكاتٍ مكتومةٍ، أستطيع رؤية وجههِ حياً وبدقةٍ، قسمات ناعمة متناسقة بيضاء، بعينين صغيرتين ضاحكتين وحنك به رصعه ظاهرة، لم أره مرة أخرى أبداً، ولم أعرف مصيره، غابَ في الجيشِ وانشغلتُ في السياسةِ، لكنني لم أنسه أبداً، كيف أنسى من أورثنا وسهّل لنا فكرة التلصص على شبابيك بيوت الناس كاسراً حاجز القيم والتقاليد، وجرّأنا على هتكِ حرمة البيوت، كيف؟

وَاصَلَ همسه بأذني:

- سلومي.. شِفِتْ جنة لذيذة بخوفْ!

احتدمَ فضولي وأشتعلَ خيالي، فطالبته بالمزيدَ، كان يصف المشاهد التي رآها وهو يختنق ضحكاً وتتضرج قسماته نشوةً، ومن وجهٍ بهِ مسرة همسَ:

- بعد ساعة آخذك بجولة الأمس العجيبة!

قلت له لنضع كتبنا في بيت أهلي القريب، رفض وأشارَ بحملها معنا وبرر ذلك قائلاً:

- تِنْفعْنا سَلومْ تِنفعْنا إذا شَكْ بنا وَاحِدْ نْسَوي نفسنه نقره جوه تيلْ بالشارع!

قادني في الظلامِ بين الأزقةِ، نسير مثل لصين على أطرافِ أصابعنا وبمحاذاةِ الحيطان، دلّني على شبابيك بيوتٍ يعرفها، ينظر إلى ساعتهِ قبلَ أن يخطو أمامي خفيفاً غير محسوس نحو نافذةٍ يتسلل منها ضوءٌ خفيفٌ في ساعةٍ محددةٍ، رأيتُ وسمعتُ آهات وأفخاذاً مرفوعة، وعراك عريٍ بين أزواج سادرينَ في روتينِ النكاح اليومي، لا يتخيلونَ بأن ثمة من يتلّصص عليهم

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

ويشاركهم السرير بحواسهِ وجسدهِ، مضاجعات حارة عنيفة، باردة مملة، اغتصابات يقوم بها الرجل دائماً، حوارات بصوتٍ خافت ترفض فيه المرأة المضاجعة من الخلف، ويصرّ الرجل عليها، أول مرة أشاهد وأسمع امرأة تتوسل المضاجعة وزوجها الراقد جوارها يُبعِد ذراعها عن شيئه مردداً بلهجةٍ قاطعةٍ:

- ما كو نَيْچْ الليلة ما كو!

وقتها لعنّاهُ، كنّا شديدي الهياج نريد رؤية امرأة متوقدة بالشهوة تضاجع لكنهُ تركها محزونةً وحرَمنا من ذروةٍ. الظالمُ كانَ يفعلها في ليالٍ أخرى في جولاتي الفردية التي طابت ليَّ، ليلٌ وهيمانٌ ورؤية أجساد نساءٍ انحسرتْ عنها الثياب في بعثرةِ النومِ، نيران اللذة المتأججة بالصمتِ والظلامِ وعيناي تتوقدان بالأجسادِ المتشابكةِ، وسمعي يطرب لآهاتِ لذةٍ وألمٍ، وخوفٌ يُجمد الأنفاس، الحواس في أقصى يقظتها، تتلصصْ وتراقبْ ما حولك خوف الفضيحةِ، مزيجٌ فريدٌ من اللذةِ والخوفِ، مغامرات خطيرة ألقاني بها وذهبَ إلى الجيشِ ليتوارى إلى الأبد، اللعنة عليكَ يا "باسم"دفعتني إلى جحيمٍ فريدٍ لم أجد ألذَ منه، أورثتني حاسة التلصص، أنعتها حاسة لأنها لازمتني حتى الآن بشكلٍ خفيف، اللعنة عليك سأكتشف لاحقاً ومع تقدمي في العمر بأنني أستطيب التلصص أكثر من المضاجعة نفسها.

بحثتُ عنه دون جدوى، لم أعثر على أي أثرٍ لهُ، تَرَكني مجنوناً بالتلصصِ، مسحوراً بعري الجسد الأنثوي وهو يسعى للدخول بالآخر، يصرخ ويلهث ويحتدم متقلباً على الجنبِ على الظهرِ على البطنِ، إقبالاً وإدباراً قياماً وقعوداً ركوعاً وسجوداً، رضاعةً ومصاً، لحظات حية لَم تَزل تعيش معي بعد مرور نصف قرن، وقتها لم أحظ بحبيبةٍ تخفف الوهج الذي أشعلته

منشورات «الفياء» AlfYaa»

الغريزة و "حي العصري". لم يخفف أو يهذب نضجي المبكر واختلاطي بوسط المدينة الأدبي من عصف الغريزة الجنسية، فالثقافة أضرمتها حررتها جعلتها تتمرد على منظومة القيم والعادات والتقاليد، فَشَبَّتْ لهباً مع قراءة سارتر، كولون ولسن، فرويد، وحشد الروائيين العظام، وزاد اللهب لهباً "عرق العصرية العراقي"فأدخلني طور الجنون الحقيقي، ففي السكر والليل والوحدة تسقط الأعراف وتنبثق الجرأة في روح مغامرٍ من طرازي وأنا في أوج المراهقة والتمرد.

وهل ينتهي دور المراهقة في مجتمع الكبت؟

أتأرجح مشدوداً بين طرفين: كبت مطلق وحرية مطلقة بلورتها وأطلقتها الثقافة.

- هل ما أكتبه تبرير لشذوذي وخرقي للقيم وحرمة بيوت الناس؟

- لا أدري!

سأكتشف لاحقاً أن الجميع يتلصص على قريباتِه أو من شباكٍ يمّر به صدفةً، والعديد تجرأ مثلي فراح يهيم في الليالي ناهلاً من بحرِ الأسرارِ، بعضهم ضُبِطَ فانفضح، وهذه القضايا لا تصل أغلبها إلى الشرطةِ والمحاكمِ بل تحلّ اجتماعياً لتفادي انتشار الفضيحة.

وخلاصاً من نسقِ العائلةِ وقوانين "علية عبود"الصارمةِ بتُ لا أنام على السطح وقت الصيف لأني أعود في ساعة متأخرة من الليل مخموراً من نادي الموظفين، أقفز لأعتلي سياج حديقة المنزل الأمامية وأنزل جوار سريري تحت تعريشة العنب في حديقة المنزل الأمامية وأنام بملابسي.

منشورات «الألف ياء» AlfYaa«

كنتُ سعيداً جداً يا أمي بفهمك المبكر لخصوصية وضعي وضرورة وحدتي، لكّن أخيلة السكر، وحاسة التلصص السابعة بتاريخها وحنكتها، واشتعال الجسد المحروم، وغزارة أحاديث الثقافة التي تُقَرب الأحلام وتصورها كأنها بمتناول اليد، وفي غمرة أشعار تُشيئ المرأة، تُجسّدها لصقكَ في مرة وتجعلها بعيدة عصية مثل ضبابٍ في أخرى، في احتدامِ نيران الشهوة، وما يجري في عالمِ الشبابيك وأسرارها، تطورَ الأمر مفضياً إلى مغامراتٍ خطيرةٍ.

في الغمرة تلك أجد نفسي وكأني ملاك في لوحةٍ، أنهض من سريري، أتسلل إلى نهاية الممر أصعدْ على تنور الخبز، أتسلق إلى سطح جارٍ مجاورٍ، أجوب من سطحٍ إلى سطح، أنزل السلالم إلى باحاتٍ، أتلصصُ من شبابيكٍ غرفها فأطل على أفخاذِ نساءٍ عاريةٍ، أجسادٍ داخلةٍ في حربٍ تحتَ الأغطيةِ، بينها، فوقها، على الأسرّة، على الأرض، أنصتُ في عمق الليل إلى آهات وأنينٍ، غزلٍ فاحشٍ، همسٍ بذيءٍ. أهتك أسرار ما يجري تحت جنح الظلام والسكون؛ نسوة يستقبلن عشاقهنَّ سراً بعد منتصف الليالي، خصام فراش الليل، خيانات، مضاجعات حبٍ ملتهبة، حلم مثير، رواية فاتنة أبحرُ فيها مخموراً أنا الخارج لتوي من أخيلة تثيرها جلسات الشرب الثقافية مع صحبي الشعراء والفنانين.

وفي ليلة من ليالي الهيمان كنتُ أجوب السطوح المحيطةِ، وفيما كنتُ أَهِمّ بحمل جسدي لعبور سياج هَوَتْ على رأسي عصا طويلة وتعالى الصراخ فَضَجّتْ السطوح بالحركة والصياح. ركضتُ مثل ذئبٍ مذعورٍ عابراً السطح تلو السطح بسرعةٍ خارقةٍ، لاحت الفضيحة وطيّرتْ الأخيلة والسكرة،

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

نجحتُ في الوصولِ إلى سفينة نجاتي، سريري في مدخل البيت تحت عريشة العنب، صاماً سمعي عن الصراخِ والضجيج الذي أنتشر، حكّمتُ الغطاءَ على رأسي متصنعاً النوم، لكن لهاثي وأنفاسي المتقطعة تتفلت من صدري، أرخيتُ أصابعي عن الحافةِ الخفيفةِ حينما شعرتُ بخطواتكِ تقترب من سريري، خطوات أعرفها مرصّعة بقلبي، تَلاشتْ جوار السرير، وأصابعكِ يا "علية عبود"تَرفعْ الغطاءَ كاشفةً عن وجهي للحظاتٍ، أطلقتِ فيها حسرةً طويلةً قبل أن تسقطيه على وجهي المكشوف مثل صفعةٍ، وابتعدتِ إلى عمقِ الدارَ مرددةً:

- لاحول ولا قوة إلا بالله إنّا لله وأنا إليه راجعون!

لم أفتح عينيّ، جعلتُ أختض حتى الصباحِ مثل محرورٍ.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «الف ياء «AlfYaa»

الفصل الخامس والعشرون

الشِرْكْ

منشورات «ألف ياء» «AlifYaa»

وحدك يا علية عبود، وحدك مبكراً اكتشفتِ أن لأبنك المسكين "سلومي"كما تناديني دائما، حياتين ظاهرة ومستترة. المستترة قابلتِها بصمتكِ البليغ، والظاهرة لم تتدخلي فيها، إذ كنت طالباً لامعاً محباً للجميع، طيب القلب، خدوماً، أقضي جلَّ وقتي بين قراءة الكتب ولعب كرة القدم، وبوقتٍ مبكرٍ وقعتُ بحبِ جارتيٍ، "أمل سيد حسن"بنت المعلم الشيوعي المفصول، كنت في الثانية عشر حينما جننتُ بها، شقراء تلبس لبساً مختلفاً عن بنات الشارع القرويات، بيجامة من قطعتين، ناعمة، ناعسة، هادئة، ساهية النظرات بعينين خضراوين واسعتين، جننتني فعلاً وليس مجازاً حتى هجرني النوم، كتبتُ لها مكاتيب لا عدَّ لها، رسائل غرام تتقبلها وتقابلني ببسمة خفيفة في اليوم التالي، عملتُ المستحيل كي أدخل قلبها، سرقتُ لها في غروب صيفي وردة جوري من بستان، كنتُ اشتعلُ شاباً بغيرتي من قصصٍ يتناقلها رفاق الطفولةِ عن حبها لفلان وفلان فأكاد أطق، وقتها لم أدرك أن مخيلة الحرمان تنسج أحلامها وتخلق قصصاً لا وجود لها، فَأهَبُ في عمق الليالي حاملاً أصابع طباشير ملونة لأخط على جدران بيوت شارعنا العريض بخطٍ كبير، (أمل تحب فلان) وفلان يتبدل في كل مرة مع قصةٍ جديدةٍ، في المرة الأولى ضجَّ الشارع والإعلان قرأهُ الجميع، كان الكبار يموتون ضحكاً وأمل تمسح هي ورفاق طفولتها من البنات تلك الإعلانات الملونة المكونة من ثلاث مفردات، كنت أقف بعيداً مستمتعاً بصوت نحيبها العالي وهي تبلل قطعة قماش بسطل ماء صغير تحمله باليدِ الأخرى وتمسح. في المرات التي تلتها كانت تغبش قبيل طلوع الفجر بقليل وتبدأ في مسح إعلاني الجديد، صرت أغبش معها أتخفى خلف بابنا مبتهجاً بمراقبة نشيجها الذي تحاول أن تَكتمه وهي تلاشي حروفي بكفها الصغيرة.

منشورات «الفـياء» «AlFyaa»

أحتاج كتاباً حتى أسرد لكِ يا أمي ما فعلتهُ لها توددا وغراماً، وخباثة محبٍ شديد الغيرة، عاجز عن جعل المُحِب يَهتم به، حتى أنني في السنة الثالثة لهيامي بها وكنا قد كبرنا وتحسست أجسادنا فزمَّ نهداها الصغيران ومستني نار الفحولة، صرت مجنوناً تماماً أهوش طوال الليل وباب بيتهم بات قدس أقداسي، صرنا في الثاني ثانوي، وأختي الكبيرة "وداد"مدرستها في حصة "الكيمياء"، قبل أيام من الامتحانات النهائية سرقتُ الأسئلة، وكتبتُ لها رسالةً أخبرها فيها فتجاوبت، كنتُ أدرك خطورة الأمر فاشترطتُ تسليمها بيدي ليلة الامتحان، ردتْ بأنها لا تستطيع الخروج مع حلول الظلام، كتبتُ لها بأني أستطيع التسلل في الليل إلى بيتهم فوافقتْ، أتذكر ذلك المساء وكأنهُ البارحة لا قبل نصف قرنٍ، أخذتُ دشاً وفركتُ جسدي بالليفةِ والصابون فركاً أوجعني، لبستُ أنظفَ ملابسي، كنت أحلم في حضنها وتقبيلها، فَرِحتُ أقفز وأرقص طرباً بانتظار حلول الظلام، متخيلا المشهد، سأكون في بيتها الذي ياما حلمت بأركانه وغرفة وزواياه، ستكون قريبة جداً، سأبحرُ في عينيها وألمس يديها،

- يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي!

أصرخ في ذروة المشهد المتخيل وأركض من بابِ البيتِ حتى نهايةِ الممر وأعودُ في حركةٍ رتيبةٍ مثل مخبولٍ حتى أنك يا أمي ظهرتِ من بابِ الصالةِ تتساءلين مستغربةً:

- سلومي يمه أشْ بيكْ تَخْبَلتْ!

كنت لا أجيب، أركض وأهذي بأصواتٍ مبهمةٍ وأصابعها بين أصابعي ناعمة ناحلة تنبضُ بدمي، فأسمعك تحكينَ مع نفسكِ

منشورات «الفيا» «AlYaa»

بصوتٍ مسموعٍ في طريقكِ إلى الغرفةِ:

- يا الله أبني إنْشَخَطْ!

هدأتُ قليلاً مع حلولِ الظلامِ، فتحتُ البابَ قليلا فرأيتها تقف خلف باب بيتهم نصف الموارب المظلم تعمدت عدم فتح الضوء، كان بيتهم دون باحة، الشارع شبة خاوٍ وقت عشاء، جاوزتُ رعشةً ألمتْ بأضلعي مع أول خطوة وحثثت نفسي مثل جنديٍ يتقدم في حربٍ:

- تقدم سلام.. تقدم!

ومثل من يطير قاصداً الجنة، وجدتني خلف باب بيتهم، سدتْ الباب والتفت نحوي قائلة:

- وين الأسئلة؟

السكون يعم البيت، قدرتُ أن لا أحد فيه غيرنا، أضطرم هياجي، عدتُ متوثباً مثل نمرٍ وحشي، مسحوراً كأني في خضم أسطورة، وحدي مع الحبيب والبيت فارغ، مَشتْ أمامي تتمايل بجسدها الغض الصغير إلى عمق الدار ودخلتْ باباً إلى اليسار، تبعتها وأنا أرتجف فالحبيبة التي جابت أحلامي ليل نهار قريبة بمتناول اليد، كانت غرفة الطعام مضاءة ومفتوحة على صالة الضيوف بأرائكها الوثيرة، اقتربت منها جداً، عبقتني رائحة جسدها المسكرة، أفردت ذراعيَّ وحضنتها من الخلف، شممتها شمةً عميقة، ورحت أستنشقُ من عنقها الطويل العاري أنفاساً متلاحقة، تلوت بين ذراعي وهمستْ:

- مو ماما فوگ السطحْ هِذْني راحْ تسْمَعْ صوتنه وتنزل.. هدني!

منشورات «ألف ياء» AlifYaa«

صوتها الخافت زادَ من استعاري، أصرتْ، تراخت ذراعيَ قليلا فتملصتْ مستديرة بمواجهتي، حاولت حضنها من الأمام فتراجعت حتى سقطت على الأريكة، رميتُ جسدي عليها، استسلمتْ بحيادٍ وَزَمّتْ شفتيها، لبثتُ فوقها دقيقةً كانت ساكنة، تلقفتُ شفتيها لم تتحلحلا كانتا باردتين أخفتتا لهبي، وأصابعي العابثة بساقيها وصدرها كأنها تعبث بجسدٍ ميتٍ، لحظتها أدركت أن ليس لديها مشاعر ولا حتى شهوة عابرة لي، فنهضت عنها مكسوراً، جلستْ على الأريكة منتظرة، أخرجت الأسئلة ورميتها جوارها وَخَرَجْتُ!

من يومها خبتُ لكني لم أكف بقيت واهماً أنها ستكبر، ستنضج فتدرك حجم حبي وستحبني لا بل سَتُجنْ بي، كانت الروايات والقصص تغذي هذا الوهم، ولم أعِ إلاّ بعد سنوات حقيقة أن الحب الحقيقي يحدث فجأة مثل ضربة شمس أو مس كهربائي، خفف ولعي بلعبِ كرة القدم والقراءة من خيبتي، أتمرن كل يوم عصراً مع فريق أهلي وأعود منهكاً، أحضر دروسي، وأنغمر برواية وأنام مثل ميت لأستيقظ على طلعتها التي تزورني بالحلم، فاهرع إلى المدرسة والمكتبة والملعب.

مع خفوت اهتمامي الظاهري، خُيلَ لي وأنا أراها تقابلني بابتسامة ولفتة بأنها بدأت تهتم بيّ بعد لقاء ورقة الأسئلة، توهجتُ من جديد، هرب النوم، وسكنني حلمها، لكني كففت عن محاولاتي، وانشغلتُ بروتيني اليومي، مدرسة، تمرين، قراءة طوال الليل، إلى أن نَزَلتْ عليَّ الصاعقة بغتةً ففي يومٍ مشمسٍ انتقلت أسرتها إلى بغداد، لم أحضر مراسيم توديعهم، كنتُ في التمرين وقت حزم أغراضهم في شاحنة كبيرة، استقبلني صبية "العصري"، فالقصة مفضوحة، حالما رأوني مقبلا وقت

منشورات «الفياء» «AlfYaa»

الغروب من جهة المدينة قائلين:

- شالوا... شالوا!

لم أفهم!، فهتفوا متوقعين مدى فجيعتي

- بيت سيد "حسن"شالوا لبغداد!

فقدتُ اتزاني. هببتُ مسرعاً إلى البيت، رميتُ حقيبتي وسط الحديقة، أقفلتُ غرفتي عليّ وانفجرتُ بنحيبٍ صاخبٍ جعل أمي وأخواتي يتجمعن ويقرعنَ الباب دون جدوى، نحبتُ في موجاتٍ صاخبةٍ نادباً فقدانها كمن مات له عزيز، نَحبتُ من أجل صبيةٍ ما بادلتني الحب يوماً في قصةٍ صارتْ من نوادرِ العائلةِ، كنتِ يا "أمي"ترويها لتثبتين طيبة قلبي وصدق مشاعري، وتدعميها بقصصٍ صغيرةٍ من طفولتي البعيدة، لقطات عابرة تذودينَ بها عن عالمي السري المكشوف لعينيك، فتكررين قصّتين لا أتذكرهما، الأولى عن ضيقي من ولادة أخي "كفاح"الذي سرقَ الاهتمام مني، وفرحي الغامر حينما صحبتكم لتدوسوا به المدينة في جولة في أزقتها وأطرافها، وصفتِ بهجتي وأنا أركض أمامكم ظاناً أنكم سترمون به خارج المدينةِ، والثانية أتذكرها مثل حلمٍ ترسخ من رويك المتكرر لها والتي تثير عاصفةً من الضحكِ في كل مرة، تروينها حتى سنوات متأخرة فأقول لك ضاحكاً:

- يمه مو كُبَرتْ لا تسولفين هاي القصة.. تخجليني هههه

اعتراضي يبهجكِ فتُصّرينَ ضاحكةً مسرورةً تخطفين بصرك أثناء قصها خطفاً نحو قسماتي المضرجة وتستمرين:

- هل كنت تقارنين يا "علية"بين طوفان ليلي على سطوح

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

الناس وخجلي في الحياة الحقيقية؟

- هل كنتِ تحاولين ترسيخ براءتي بنفسك كونها هي الأصل، وما علق بيّ في حياتي الباطنية مرض من البيئة؟

بثُ واثقاً بأن الأخير مقصدكِ ومبغاكِ، إذ تأصلت براءتي، انتصرت وطغت على شخصيتي وسلوكي الصراحة والكشف دون وجلٍ وخوف.

- أسمعوا أبو سلام لمن ينزل الرگي بالسوگ، يومية ويه الغروب يجيب رگيه چبيرة.

ترسمين المشهد بدقة، كيف أهرع راكضاً نحو أبي حال دخوله البيت، أحرر الرقيه المربوطة بمقعد دراجته الهوائية الخلفي، أحملها مردداً بفرح "رگية.. رگية"أضعها في صينية وسط غرفتنا متعددة الأغراض للأكل والنوم، تكملين بعد وصف المكان والحال:

- وره العشا نكسر الرگية ونقسمها ونلْتَمْ ع الصينية وأوزعها، لكن سلام حَرِكْ ما يگعد راحه ولا يهدأ لحظة، كل دقيقة يِنْدِسْ أخوه لو أخته لو يسوي حركة فيصير أبوه عصبي ويحذره بلا فائدة، يأكل ضربة، يزعل ويگوم!

أخرج من الغرفة في الأيام العادية لأنزوي بطرف الحوش باكياً لا من ألم الضربة بل مهضوماً، لكن مع حفلة الرقي لا أستطيع المغادرة فرائحته وخيال طعمه الترف يسيل لها لعابي فالجأ تحت سريركما أبكي بصوتٍ عالٍ، تعذبني أصوات اللوك منتظراً أن تدعوني للخروج وتمر الثواني بطيئة، ستذكرين بأنك كنتِ تتعمدين عدم مناداتي في انتظار ردة فعلي التي تضحككم، يستعر بكائي خوفاً من ضياع حصتي فأخوتي عشرة.

منشورات «الألفياء» «AlYaa»

- يطب سلومي جوه السرير يبچي، ونبدي ناكل، وكل أحنه حاصرتنه الضحكة منتظرين، نعرفه يموت ع الـرگي، ومـا يصبر وهو يبچي يمد إيده من جوه شرشف السرير.

تمثلين المشهد تتجعد قسماتك الجميلة راسمةً صورتي باكياً وتمدين يديك مقلدة صوتي المتوسل:

- يمه أطيني شيفي!

فينفجر الحضور بالضحك، كان خجلي يسعد قلبك، كأنـك بهذي القصص تطهرينني من أثام الليالي الغابرة زمن الشبوب والجنون واثقةً من فكرة كون أبنك يتوق لحبٍ حقيقي ويفشل بنيلهِ كل مرةٍ، وأخرها قصة في زمن نضجي؛

صارحتني "زهور"بحبها، جنية فائقة الجمال، شقراء، لـم أصدق ذلك أول الأمر لكن هذا ما جرى. فعشت غراماً عنيفاً، كنا معاً في بغداد، هي تدرس في الطبية وأنا لتوي أكملـتُ دراستي الجامعية وأخدم العسكرية ومـن الصـدف أن موقـع وحدتي في بغداد، تهنا بخدر ذلك العمر الفتي نجوب ساعات طوال أزقة وشوارع وحدائق، أودعها مع المساء وأعود إلى غرفتنا المستأجرة متورم الساقين، اعتقدتُ تلك الأيام أني أسعد إنسان في العالم، كانت تضع رأسها الحار على ذراعي الممدودة خلف ظهرها في مصاطب الحدائق بعد حلول الظلام، وكنت أوصلها إلى قسمها الداخلي سكرانةً من الحبِ، لم تمض غير أشهر سبعة حتى زارني صديق ورفيق عزيز ليخبرني بعَقد قِرانها، تماسكتُ في حضرتهِ وما إن خرج حتى هرعت إلى بائع الخمر وجلبت قنينتَي عرق عراقي لم تفلحا في جعلي أنام، لم أعش ولا سوف أعيش بمثل هذا التوتر العاطفي في تجاربي

منشورات «الفـياء» «AlIYaa»

المقبلة أبداً، كدتُ أُجَن، فهي هائمة بيّ فكيف حدث ذلك؟ هذه قصة موضعها ليس هنا، لم أسكت عَملتُ المستحيل، ذهبتُ إليها، ووسط الطلبة في ساحة الجامعة ارتمت على صدري وانتحبت قائلة:

- جبْروني.. سلومي.. جبْروني!

كنا ننفجر بالبكاء معاً في الحدائق والشوارع والساحات، على دجلة وبظلال جدران البنايات وبعد سلسلة لقاءات كلها حزن وحيرة، أتفقنا فكتبتُ رسالةً صريحة إلى زوجها فيها كل التفاصيل وطلبت منه اللقاء، كان أستاذاً من أصحاب الكفاءات خريجي ألمانيا يدرّس في هندسة البصرة، عولتُ على التفاهم معه فيما لو كان منفتحاً أو انسحابه لو كان متخلفاً، لم تصح تقديراتنا فبدلاً من اللقاء والتفاهم أو الانسحاب سَلَّمَ الرسالة لأهلها، وَشَبَّتْ مشكلةٌ عويصةٌ فيها تفاصيل انتهت بزواجها. مثل كل مرة كدتُ أموت من النحيب، بقيتُ أعول في غرفتي في الليل والشوارع فارغة، في الحقول، بين السواقي، في البساتين، شكوتُ إلى السماء إلى العصافير إلى ماء النهر إلى الأشجار، همتُ رائياً أقدامنا الهائمة في شوارع بغداد الجديدة وأبو نوأس، الأعظمية، باب المعظم، كنت محسودا لهالة جمالها، هدّني البكاء فمنذ وقتٍ مبكرٍ حلمتُ بقصة حبٍ رومانتيكية تشبه قصص الأفلام وها هي تعثر عليّ وتغمر أيامي مع جنيةٍ بادرت وصارحتني ثم أخبرتني في أيام هيامنا بأنها منذُ ثلاثة أعوام تختبئ منتظرة خلف باب بيتهم لتراني في طريقي إلى المقهى، عملتْ الكثير لجلب انتباهي دون جدوى، وتضيف بصوتها الآسر:

- صورتك والكتاب ما يفارق أيدك جَنَنَتْ ليليّ وضيّعت

منشورات «الفياء» «AlfYaa»

النوم!

وَتُسْرَقْ مني، شبعتُ نواحاً في البراري غير مصدقٍ فقدانها وواثقٍ من أنها تنتحب مثلي، هذا ما سوف تحكيه قريبة لها عملت معي في دائرة الزراعة بعد عدة أعوام.

علمتني التجارب كيف أتوازن في المحن منتصراً لطبيعة فُطرْت عليها تقول:

- لا تلتفتْ إلى الماضي المتحول إلى صورٍ وأخيلةٍ وعش حاضركَ بعنفوان!

في ذلك المنحدر النفسي الرث، أقول رَث فمِن أقسى مشاعر الإنسان شعورُه بأنه مهجور، وهجر الحبيب أفدح الهجر. منحدرٌ استمر قرابةَ عام، لم أتخلَ عن مرحي وبشاشتي ونكاتي وإقبالي على الحياة لكن كلما شربتُ وثملتُ أستغرق في غرفتي بنشيجٍ عاصفٍ مفجوعٍ ينبثقُ من أعماقي المجروحة، أعول حتى أهلكَ وأخلد إلى النوم مثل جثةٍ هامدةٍ لأستيقظَ في صبيحةِ اليومِ التالي نشيطاً مرحاً وسط دهشة أمي وأخواتي وأخواني الذين أرقهم ضجيجي في الليلة الفائتةِ.

في يومٍ من تلك الأيام العصيبة تَعَطّلَ تلفازنا، وجدتها مشكلةً بالرغم من ندرة جلوسي للتفرج مع العائلة لكني كنت أحرص على متابعة برنامجين "الرياضة في أسبوع"يقدمه مؤيد البدري يوم الثلاثاء، و"السينما والناس"تقدمه "اعتقال الطائي"يوم الأحد، فجعلت أفكر بصوتٍ عالٍ وسط غرفة الجلوس:

- أي هسه وين أروح، بيوت أخواتي بعيدة شيرجعني بالليل، وقهوة الطرف ما يردون يشوفون فلم أجنبي وحوارات!

منشورات «الفيـاء «AlFyaa

وفيما كنتُ في الدوامةِ تلك، اشتغلَ عقلكَ الجبار يا "علية"، أتخيلكَ الآن لا بل أراكِ تدرسينَ وضعي مثل عالمٍ نفسـي، منخفض عاطفي لم يزل يسحن الروح ويظهر في السكر بعويلِ مذبوح، وتوازن في الصحو لا يخفي انكسار الروح، وَعطل التلفاز، أتخيل صمتكِ المفكر الذي وَصلَ إلى خلاصةٍ بـدت بسيطة جداً حسب اعتقادكِ فيها مفتاح خلاصي، اقترحتِ عليّ الذهاب إلى بيت خالتي "غنية"بنت خالتكِ تسكن بالقرب منا لرؤية برنامجيَّ، وجدتُ اقتراحكِ مقبولاً، فالعائلة كادحة بيتهم بسيط مكون من غرفتين وحوش صغير، أزورهم في الأعياد منذ صغري وخالتي الجميلة أحبها جداً، تستقبلني بوجهٍ ضاحكٍ فتّان تنضح من حركتها روحٌ تفور حباً تعلنهُ بعناقٍ وبوسٍ حار وترحيب شديد، واصلتُ المرور والاطمئنان عليها في زياراتي السنوية، زوجها الطيب ينادونه "الشيخ"لشدة ورعهِ وتقواه، يبيع الخضر تحت طارمة سوق الجزارين القديم، لديها جوقة أبناء وبنات يمتازون بجمال أخاذ ساحر، لـم أجـد أكـرم وأطيـب وأصدق في حياتي كلها من العوائل الكادحة التي تمنحك المحبة والمشاعر وتقاسمكَ طعامها دون مقابل، سيتركز هذا الانطباع في جوباتي بين القرى الكردية الفقيرة ثائراً، يقدمون وجبتهم لنا وتأكل العائلة ما يتبقى، يفرشون لنا في ليالي الشتاء بغرفتهم الوحيدة جوار مضجع الرجل وزوجته والأطفال.

لم أذهب وحدي، اصطحبتُ "كريم"ابن خالي "مهدي"جارهم ويزورهم بين الحين والحين، كنا نقضي ليلتي الأحد والثلاثاء بضحكٍ وسرورٍ ولا نخرج بانتهاء البرنامجين بل نسهر لساعةٍ متأخرةٍ، كانت بنتها الكبيرة تصغرني بعشرِ سنواتٍ قطعةً من جمالٍ فريد لم أرَ شبيهاً له، قسمات برية معجونـة بـالبراءة

منشورات «الفياء» «AlIYaa

وتقاطيع تأنّى الرب في نحتها، أما الجسد المتناسق المتراقص خلف ثوبها المنزلي الفضفاض وهي تنهض طوال الجلسة لتلبية طلباتنا فيكاد يشعلني، أتخيلهُ عارياً فأهتف بصمت كدرويش: مدَدْ، تبادلني نظراتٍ فيها كلام مصحوبة بضحكةٍ خافتةٍ خجولةٍ تلقيني إلى حافة حلمٍ وتجعل عينيَّ المخدرتين ترمشان ببطء سكران.

- لا أدري هل كان ثمة أتفاق بينك وبين خالتي؟ هل؟

لم أشعر بذلك.

هل قرأتِ أعماقي التي يسحرها الجمال ويسكرها، أكيد ولم لا؟

فأنا تخّلقتُ ببحركِ الدفين يا "علية عبود"وأنتِ لا تتكلمين إلا خلاصات وعند الضرورة أما الباقي ففعل، هكذا وجدتُ نفسي مرمياً وأنا في ذلك المنخفض العاطفي والاضطراب النفسي في باحةِ جمالٍ عاصفٍ، وكنتِ تنتظرين النتائج فكانت مثلما توقعتِ فالسهر والاحتكاك ولغة العيون وإبحاري في قسماتها الساحرة، في الضحكة الخفرة، في اللفتة، في تموج شعرها الفاحم المستلقي على منحدر الظهر أثناء القيام والجلوس دفعتني للتحرش بها في ظلامِ حوش الدار، أمسكت بكفيها الصغيرتين وهي تناولني إبريق ماء، احتويتهما فارتجفا بين أصابعي القوية مثل خفقِ طائرٍ أسير، باحة الجمال المسحورة التي دفعتني وسطها وأنا في ذلك الوضع أوهمني أني متدله بأبنة أختك، أدمنتُ زيارتهم بالرغم من تصليح تلفازنا.

التجربة هذه سأتأملها طويلاً، فهي وضعتني في حوارٍ داخلي يحتدمُ كلما أصبحت لوحدي في الشارعِ، في غرفتي، في عملي،

منشورات «الفيحاء» «AlFyaa»

كانت حداً بين حياتين، الحلم بقصةِ حب جديدة ومعركة مثل التي خرجت منها مهزوماً ودكتور قروي خطف "زهرتي"من بين ذراعي، أو الخمود والنوم في حضن زوجة لا تفك الحرف، بنت خاله، صاعقة الجمال، تحلم بيّ وتودني.

الساحرة الصغيرة هجرتْ المدرسة بمرحلة ثاني ابتدائي لتساعد أمها في شؤون البيت والأولاد، قلتُ مع نفسي وأنا بذروة حماس حلم تغيير العالم بأني سوف أربيها على يديَّ وأرفع من مستواها الثقافي فتفهمني خيرَ فهمٍ في فكرةٍ طوباويةٍ شأن أحلامي الثورية التي ألقتْ بيّ في بقعة غريبة لأشيخ غريباً معلولاً في أرضٍ ليست أرضي وهواءٍ ليس هوائي.

مشروع ملك وقتها تفكيري ولو كنتُ سلكته لغيّرَ مسار حياتي ودفعتني إلى الخنوعِ في المعترك نزولا لإنسانيتي المفرطة، المعركة كانت شرسةً جرت بخفاء في بحر اليوم وتحت مجرى الحياة الساكن ظاهراً، كنتِ يا أمي تسأليني كلما عدت من زيارتهم:

- ها يمه أش لونهم بيت خالتك؟

- من ألذ الناس!

لم تكوني ذكيةً فقط بل عبقريةً، إذ لم تتطرقي لفكرة الزواج من بنت أختك أبداً، كنتِ تعولين على أهوائي المكشوفة لكَ، تعرفين مدى ضعفي بمواجهة صبية خارقة الجمال بقسماتها التي تهز الكيان وتذهب بالعقل، صَبها الخالق بعناية وثمل بجمال صنعه، جسدٌ أشبه بالخيال ما زال يتجّسد كلما صدح "يوسف عمر"بمقامه، وتدركين أيضاً مأزق عالمي السري وسعي للخروج منه، كنتِ مقدرةً أني سأصارحك يوماً ما دمتُ

منشورات «الفياء» AlFyaa«

لم انقطع عن زيارتهم وأتى ذلك اليوم، دخلتُ البيت في ساعةٍ متأخرةٍ، وَجدتكِ ساهرةً، كنتُ في جلسةٍ مع أصدقائي الشعراء نشوان بالخمرة والشعر ومحلقاً في الأحلام، صارحتك:

- يمه أريد أزوج بنت خالتي!

- سلومي نام وبكرى نحكي!

في الصباح تحاورنا وتأكدتِ من عزمي، تألقت ملامحك بنشوة الانتصار، أخذت نفساً عميقاً كأنكِ تزيلين عن كاهلك هماً ثقيلاً، وأمهات الأولاد العاقين مثلي يكون الزواج حلاً يطمئن قلوبهنَّ، ولأنكِ يا "علية"ليستْ ذكيةً فحسب بل أوسع أدراكاً من طبيب نفسي قلتِ:

- أسمع يمه هذا زواج أني ما مسؤولة أنت أخترتْ!

وقتها كنت واقعاً في شركك يا قديستي الداهية أَسيرُ مُقاداً، حمسني قولك فرددتُ بقوة:

- يمه ما لكِ علاقة، آني اخترتها!

- يعني أروح أحچي بالموضوع!

- أي يمه!

حَكَمتِ السيناريو يا أمي وفي الوقت المناسب؛ منخفض عاطفي شديد بعد تجربة "زهور"مصحوب بإكمالي الخدمة العسكرية وعملي في دائرة زراعة، يعني قادر اقتصاديا.

أتذكر تلك المحنة في وحدتي فأهتف:

- أية داهيةٍ أنتِ يا "علية"!

في غروب صيفي ساحر لبستِ عباءتك وقلت لي بوجهٍ

منشورات «الفيـاء» AlFyaa»

يغمرهُ السرور:

- يمه سلومي رايحه لبيت خالتك نرتب الموضوع وأنشاء الله خير!

كنا واثقين بأنَ الأمرَ منته، مجرد تفاصيل لكن رأيتك في الأيام التاليةِ تجلسين في مكانك المعهود وتنظرين من باب الهول المفتوحة نحو السماء الصافية مهمومةً وغارقةً بالتفكير، لم تخبريني بشيء، وما أن يهبط الغروب حتى تحضرين نفسك وتتوجهينِ بصمت قاصدة بيت خالتي وأخوالي، أستمر الصمت وزيارتك أسبوعاً اقتصرتِ فيه الإجابة على أسئلتي بجملةٍ واحدةٍ لا تبشر بخير:

- الله كريم.. تسّهَلْ بعونه!

أحسستك تخوضين معركةً ضاريةً كل مساء إلى أن اختليتِ بي في غرفتي وفي وجهك كمدٌ ويأسٌ، قلتِ بصوتٍ متعب:

- يمه خالتك فرحانه وما مصدگه، بس الحل والربط بيد خالك "مهدي"يگول خلي سلام يمْر عليَّ!

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الفصل السادس والعشرون

خالي مهدي

منشورات «ألف ياء» «AlifYaa»

مع غروب الشمس لبستُ أجمل بنطرون وقميص، كان الوقت صيفاً، أمي تجلس قبالة الباب المفتوح على الحديقة وسماء "العصري"تراقبني بعينين فاحصتين بين الحين والحين وتعاود النظر كشأنها كل مساء متأملة عودة أخي "كفاح"المتواري عن عيون السلطة في مدن أخرى. مشّطتُ شعري، ورشفتُ كأساً من قنينة "الجن"المخبأة بين أدراج مكتبتي كي أستمد الشجاعة في مواجهة خالي "مهدي عبود يعقوب"النجار، شخصية غير سهلة، عميقة، شديدة الذكاء، حاسم في كل أمر، طويل القامة، رشيق، أنيق الملبس، لا تفارق البسمة الخفيفة شفتيه وحواف عينيه الواسعتين، يشعر المرء أن كل حركة يقوم بها، المشي أو الجلوس أو الكلام كأنها معدة في مدرسة خاصة بالرزانة والثقل، ينصت بعمقٍ ويشرد قليلا قبيل النطق بنصيحةٍ أو رأي، كانَ وقعه عليّ كبيراً، إذ نَحَتَ قسماً مهماً من بنية شخصيتي هذا ما سأكتشفه لاحقاً مع تقدم العمر وتخمّر التجارب ومسك خلاصاتها.

ربطتني بهِ علاقة مصحوبة بأساطير الكلام اليومي عن نباهته ورجاحة عقله، ترويها أمي منذ الطفولة، عن سبب تركه المدرسة، فهو متفوق، وصل مرحلة السادس الابتدائي لكن "جدي"أوقفه منها حينما طلب شراء حذاء له أسوة ببقية التلاميذ، وشغَّله معه في دكان نجارته فحذقها وأصبح نجاراً لامعاً، وتضيف قائلة:

- كان يُدَرّسْ أخواتك الكبيرات وهنَّ في المتوسطة لما تصعب عليهن الدروس، يأخذ الكتاب ويقرأ المادة ويشرحها إلهنْ.

سأدخل أول احتكاك معه حينما عَمِلتُ عدة أشهر مساعداً له

منشورات «الفياء» AlFyaa«

في دكان نجارته بـ"الگرفت"ففشلتُ فشلاً ذريعاً وكما رويت لك صديقي القارئ في فصل سابق، أعادني في مساء كهذا المساء الصيفي إلى أمي وقال لها:

- أبنك ما ينفع!

لم أفعل شيئاً، كنتُ طفلاً حالماً، أترك المحل لأتيه في أزقة الجديدة، أُلاحق الصبايا، وألعب مع الصبيان فأنسى الدكان، تكرر ذلك مراتٍ عدة فجزع مني وأعادني، ظل كلما صادفني في السوقِ أو الشارع حقق معي بسيل من الأسئلة:

- وين چنت؟.. شتسوي هنا؟.. وين رايحْ؟

بثُ أتحاشاه وخصوصاً في فترة مراهقتي العنيفة حيث سببتُ بعد ثورتي على عمي والعائلة، سيصيدني مرتين، الأولى كنتُ هارباً من مدرستي "متوسطة النهضة"مع زميل لحضور مباراة كرة قدم على ملعب الإدارة المحلية، وقتها كان الجسر المعلق تحت الإنشاء ويعمل خالي فيه رئيساً للعمال، راقبنا المكان، كانَ الوقت ظهراً والشوارع خالية والعمال في استراحة، اقتربنا من موضع "الدوبه"وهي مركب حديدي مربوط بأسلاك يعبر عليه العمال، فوجدناها في الصوب الآخر، كان زميلي لا يعرف العوم، نزعتُ ملابسي وسبحتُ عابراً النهر، ركبتها ورحتُ أسحب السلك عائداً بها، بلغتُ منتصف النهر وإذا بخالي يظهر واقفاً جوار زميلي ويؤشر بذراعه مردداً:

- تعال.. تعال..

ثم أخذ يهز بسبابته المصوبة نحوي متوعداً، في سورة هلعي من فداحة ذنبي، هارب من المدرسة، أسبح بالشط، أعبث بأدوات عمل هو يشرف عليه، غصصتُ بضحكتي المخنوقة

منشورات «الفياء» AlFyaa

وأنا أرى زميلي "عبد الرزاق الرحيم"بقامته القصيرة يتوسل متمسكاً بأردان قميص خالي:

- عمي الله يخليكْ مو تَعبْ عليها، نريد نروح نشوف اللعبة!

وخالي يهز برأسه ويقول:

- خل يوصل أشلون راح أراويه اللعبة!

أغالب ضحكي المختلط بفزعي و"عبد الرزاق"يمعن في التوسل ويلح معاوداً التشبث بكُمّ قميصه، لاصقت "الدوبه"حافة الجرف من جهته، في اللحظة التي قفز فيها إلى حوضها رميتُ نفسي إلى النهر وسبحتُ إلى الجرف، وأطلقتُ ساقيَّ للريحِ وصاحبي هَبَّ راكضاً خلفي، ماتَ من الضحكِ حينما علم أنه خالي.

لم يحاول اللحاق بي ولا مرة وهذا درسٌ بليغ في الرصانة.

الثانية في مساء خريفي حار كنتُ عائداً مع رفيق شقاوة من سطوٍ على بستان فواكه جوار الجسر المعلق، كنا نستغل الغروب فالفلاح يؤوب إلى بيته، صادفني بغتةً بسبب الظلام قادماً من جهة المدينة، وجدته تحت ضوء عمود الكهرباء أمامي، حوصرتُ فعلى يساري النهر، وعلى يميني بيت المحافظ وحراسه وهو من الأمام، من المستحيل العودة والمسافة بيننا ثلاثة أمتار، والأسئلة انهمرت:

- وين چنت؟

- شنو اللي بيدك؟

اقتربت منه جداً كأنني استسلمتْ، لكن ما أن حاذيته حتى هببت زائغاً من بين يديه، تاركاً كيس غلتي من الفاكهة

منشورات «الفياء» «AlfYaa»

المسروقة يتبعثر على الرصيف، وكالعادة لم يركض خلفي.

كم كان حكيماً بترفعه الذي أبقاه شامخاً في نفسي، رصيناً متوازناً يجلب مرآه الرهبة فتعمقتْ هيبته الراسخة منذ الطفولة والصبا والمرتبطة بطقس الأعياد، كنا نسارع إلى زيارته في بيت جدي "عبود"في زقاقٍ مجاور لسينما "الجمهورية"بمحلة الجديدة، فنجدهُ يجلس على كرسي خشبي وسط باحة الدار الواسعة، بدشداشة بيضاء فضفاضة مثل عريس، يستقبلنا مرحاً ويداعبنا هازلاً على غير عادته، جواره على منضدة خشبية تزاحمت صحون الحلويات، يدعونا للأكل فنلتهم ما يطيب لنا، ثم يضع براحة أيدينا العيدية، ثلاثة دراهم، كان مبلغاً كبيراً لم يعطنا مثله أي من الأعمام أو الأخوال ولا حتى آبائنا، يكفينا أيام العيد؛ سينمات، ركوب الحمير، المراجيح، دولاب الهوى، وجبات صغيرة، طقسٌ لم يكف عنه حتى كبرنا، لم أزل أتذكره ببهجة.

عبرتُ المراهقة وشقاوتها، دخلتُ دائرة الجدِ من أصعب مداخلها؛ سياسية وثقافية واعتقالات مبكرة، فعدنا صديقين، أمسى يحاورني كلما ألتقينا صدفةً في سوقِ التجارِ، نتمشى ونتجاذب أطراف الحديث عما يجري وقتها، كانت تلك الأيام بداية تحالف الحزب الشيوعي مع حزب البعث الماسك السلطة في "الجبهة الوطنية"1973، أحسستهُ فخوراً بي، أخباري وثقافتي وحواري ورأيي، انفتح وراح يسرد مواقفه وقت النضال السري والتي لم يبح بها لأحدٍ ، حافظ على صداقته للشيوعيين وَقدم لهم ما أستطاع، حكى لي عن أصعب ما واجَهَهُ؛ حينما ساهم في تهريب مسؤول ريف الديوانية بسيارة أول أيام انقلاب شباط الدموي في عام 1963، صوّرَ تفاصيل

منشورات «الفيحاء» AlFyaa«

ذلك، كيف غرزت السيارة في ذلك اليوم الماطر وسط الشارع غير المبلط على طريق "عفك"وبموقع قريب جداً من بناية موقف "العصري"المليء بالشيوعيين، معاناته والسائق لتحرير العجلات، ومفارز "الحرس القومي"تتجول في الشوارع المجاورة، صَوَرَ ثقل الطين واللحظة، أقدامهم الغاطسة بالوحل، قواهم المنهكة وعيونهم الهلعة المتابعة خطى المسلحين القريبين، وأذرعهم المتوترة تدفع بَدنَ السيارة المتهالك، رسم المشهد حتى عدتُ أسمع وأرى حركاتهم وأنفاسهم المتقطعة ورعب عيونهم.

ستنقلب الأدوار ويطلب مني إشراك أكبر أبنائه "كريم"بالتنظيم بعد أن رأى وعاين وحاور أخي "كفاح"وأبن عمتي "صلاح"اللذين سيُقتلان تحت التعذيب لاحقاً، فأعجب بثقافتهما ومنطقهما، وقتها لم أكن في تنظيم، لكن رتبت له صلةً بصديقٍ شيوعي، سيندم على ذلكَ، سيختلف مع ابنه حال تفاقم حملة السلطة على الشيوعيين 1978، ستنشب حرب ضروس بينهما، سأجد نفسي وسيطاً بينهما، لكني فشلت في كل محاولاتي للصلح بينهما، كانا متزمتين برأييهما، سيستحيل العيش بينهما تحت سقف واحد، سيتطور الخلاف إلى قطيعة تامة جعلت "خالي"يفقد أعصابه وأبنه الكبير يخرج ويدخل البيت دون أن يبادله التحية، سيترك العمل معه ليعمل في معمل أخر، سيدور حوار بيني وبين خالي في عزاء قريب قُتِلَ في جبهة الحرب مع إيران، الحوار كان علنياً وسط بيئة رجال العائلة، سيتهمه بعدم الإحساس وإلا كيف يعيش في بيت أبيه وهو لا يتكلم معه، كنت أعرف تفاصيل التفاصيل لكني لا أستطيع رده في ذاك المحفل، قلت له جملة واحدة:

- "كريم"مثلك يا خالي أبي النفس الليلة ما يجي!

منشورات «الفيلاء» «AlFyaa»

تباغتَ ورددَ بصوتٍ ضعيفٍ وكأنهُ يكلم نفسه:

- وين يروح ينام مثل متشرد بدكان النجارة!

هو يعرف جيداً شدة إباء ابنه، وشدة خجله حتى أنه لم يَبِت ليلة خارج البيت، كنت وقت الحوار قد تزوجت قبل أشهر وأعيش في بيتٍ مستقل، ليلتها أخذته من المعمل إلى بيتي لينتقل في اليوم التالي ولم يعد أبداً إلى بيت أهله أخذته معي في التحاقي الأول بالثوار في الجبل فلم يره بعد ذلك غير مرة واحدة، زارهم متخفياً مع هبوط الظلام حينما تسلل سراً إلى الديوانية، ومن فرط رعب أهله وفزعهم غادر بعد ساعة ليقضي ليلته في بيت أهلي ومن يومها لم يلتقيا أبداً.

قبل أن أتوجه إلى بيت "خالي"عببتُ كأسَ جنٍ أخر، أطبقت أجفاني منتشياً، التهبتْ حماستي وأنا في طريقي لرسم مستقبل حياتي وتجاوز عائق "خالي"العنيد، وقتها كنت أظن بأن لا أحد يقف أمام منطقي وقوة حجتي، حتى لو كان هو صاحب السطوة الروحية الكبيرة عليّ، قطعتُ الطريق الطويل وأنا أتخيل مسار الحوار، وأعد نفسي مرتباً أفكاري والكلام وكأنني ذاهبٌ إلى امتحانٍ عسيرٍ، الرهبةُ تصاعدتْ وراحتْ تهز بدني مع كلِ خطوةٍ تقربني من بابِ بيتهم الكبير بحديقته الواسعة، توقفتُ أمامها واستدرتُ إلى الخلاءِ الواسعِ وخزان الماء العالي وبساتين النخيل التي دَكنتْ خضرتها في الغروب، ارتعدتُ وأنا أَهِمُّ بقرع الجرس، نفضتُ رأسي، صفعتُ خديَّ محاولاً التماسك وضغطتُ على الزرِ، فتحتْ "أم كريم"البابَ مرحبةً، جاوزتُ العتبة سائراً خلفها نحو الباب الداخلية، فالتفتتْ نحوي قائلةً بصوتٍ خافتٍ، الكل بحضرتهِ يتكلم بصوتٍ خفيضٍ:

منشورات «الفياء» AlYaa»

- خالك ينتظرك جوه سوباط العنب بالحديقة!

استقبلني بحفاوة، نهض من كرسيه وفرد ذراعيه، عانقني مبتسماً، جلستُ قبالته، بيننا منضدة واطئة مغطاة بشرشف تشع وروده الحمراء تحت المصباح المتدلي من مشبك الخشب فوق رأسينا، بعد السؤال عن حالي وعملي طلب مني فتح الموضوع، فأخبرته بعزمي على الزواج من بنت خالتي بجملةٍ قصيرةٍ مبتورةٍ، عمدت إلى ذلك ظاناً أني أقطع طريق الحوار فيشعر أن عزمي ثابت لا حلحلة فيه كما أوصيتُ نفسي طوال الطريق مردداً؛ خير الكلام ما قلَّ ودل، جملة عارية بلا رتوش، قلتها ولزمتُ الصمت منتظراً، أحملق نحو عينيه المبحرتين في وجهي بسكون قطعه قائلاً:

- سلام أنتَ مْسولِفْ وَياها؟

تَلَبّكتُ، فبالرغم من زياراتي العديدة لم يتح لي الوضع الاجتماعي الخلوة بها أو الكلام معها على انفراد، أدركتُ مقاصد سؤاله، فانهمرت بالكلام مستبقاً ومفنداً ما يريد قوله عن كونها أمية وجاهلة مداركها بسيطة، قلت له بأني أعرف أنها غير متعلمة، ثم أسهبتُ بعرض قدراتي الفذة على تربيتها وتنويرها وتكوينها، فوقتها كنت أظن بأننا سنقلب العالم وَنُغَيّرهُ بخلق مجتمع مساواة كاملة، فكيف بصبيةٍ لم تبلغ سن الرشد ستكون سليلة يومي وتفاصيله.

- خالي راح أصبها صبْ!

ختمتُ محاضرتي بهذه الجملة المركزة.

في غمرة حماسي لاحظتُ تململه، أخذ نفساً عميقاً من سيجارته وأعتدل في جلسته وأعاد السؤال:

منشورات «الفياء» AlfYaa»

- حاورتها، حكتْ لكَ شيءْ؟

- لا خالي ما كان أكو مجال!

- أسمعْ خالي.. أنتَ تريدْ تتزوجْ إنسانة تشاركْكْ الحَياةْ لو تريدْ تتزوجْ بَهيمة!

اشتعلتُ غضباً، وسطرتُ محاضرةً جديدة عن احترام الإنسان والمساواة، شجبتُ فيها الترفع واحتقار الضعيف والبسيط، مفلسفاً الكلام من منظور ثوري يضفي على المجتمعِ والإنسانِ أحلام مدينته الفاضلة أي ما ليس فيه، لم أنتبه للظلام الذي هبط محيطاً بنا وسط الحديقة الواسعة، لم أسيطر على الحديث كما خططتُ بل جرى الأمر بالعكسِ تماماً، إذ كان يوجز ويصيب فيحتدم غضبي وأفيض بكلامٍ إنشائي يلف ويدور ولا يمس جوهر الموضوع بينما جمله قصيرة متماسكةٌ مصبوبةٌ بعقلِ خبَرَ الحياة تسقط على الجرح وتشعل اللحظة والموقف، مرة واحدة خرج من طوره حينما صورتُ كيف سأرفع مستواها وأجعلها تفهمني بالإشارة، فقاطعني معلقاً بجملةٍ مكثفةٍ ساخرة رفعتني حتى سقفِ مشبكْ العنبِ وأسقطتني على مقعد كرسيي الخشبي:

- خالي ينْرادْ لكَ عُمرينْ حتى توصّلها لهذا المستوى!

كان يفلش أي فكرة أعرضها بجملةٍ واحدةٍ تقطع دفق حديثي الجارف في محاولتي المستميتة لإقناعهِ، أشارَ إلى زوجته التي قدمتْ لنا الشاي وانسحبتْ وسط صمتنا غير المتفق عليهِ، قائلاً بلهجة عتاب حلوة عذبة:

- خالي تريدْ تعيشْ مثلي ما أگدر أحچي وياها بموضوع، ليش؟

منشورات «AlYaa» «الغـيـاء»

صمتَ للحظاتٍ وأردفَ:

- ليش تريدْ تعيش بصمت ويه أقرب إنسان إلكْ بالحياة؟

أربكني كلامه وسؤاله من الأعماق، فها هو المغلق كأبي الهُول يَسِرُّ لي ببؤس حياته الاجتماعية التي يعزوها إلى فارق الوعي، فارق يجعل الواعي يتحمل الأسى والوحدة والآخر يسعد بوجود الشريك العارف وحضنه الحنين العذِبْ المُعَذِّبْ، سأدركُ ذلكَ في الأعوامِ اللاحقةِ وأشكر الله الذي منحني هذا الـ"خال"الذي غَيّرَ مَسار حياتي ودفعني إلى صراطٍ ناسبَ كياني، فأي نبي صالح كانه.

في جولةٍ من جولاتِ الحوار التي استقتلتُ فيها كي أدحض موقفه، كان يسترخي منسرحاً بكرسيه ينظر بعينين ضاحكتين ساخرتين من شدة حماستي وصوتي العالي وقيامي وجلوسي في حومةِ الكلامِ منتظراً إفراغ شحنتي، هدأت قليلاً، أنهضَ جذعه الأعلى وانحنى مقترباً مني عبر المنضدة الصغيرة، وقال بهدوء:

- شكلها ساحر مضبوط، جسمها ما بيه لوله مضبوط!

أخذ نفساً عميقاً نفثه بهدوء وبطء وواصلَ:

- ما نخْتِلِفْ عَ الأوْصافْ خالي ما نختلفْ! لكنْ چَمْ يومْ، لا روحْ چَمْ شَهَرْ، أكثرْ چمْ سنة والسِحرْ يتلاشى وتِجِي الحَياةْ وَراحْ تلْگه نَفْسَكْ وَحيدْ مَسْكينْ مَحدْ يُعْرْفْ هَمَّكْ!

لم أكن سهلاً، حاولتُ السخريةَ من تنصيب نفسه قارئاً ومتنبئاً بمسار حياتي مؤكداً أن لا أحد يحزر ما تأتي به الأيام، أيامها كنتُ في لجة التفلسفِ خارجاً لتوي من بحر فلاسفة اليونان،

منشورات «الفـياء» «AlYaa»

ونيتشه، وماركس، وهيغل، وسارتر المتلاطم، كشكول متناقض متفق محتدم في ذهني، كان في وجهه ضيق من ظلالِ السخريةِ والتعالي في كلامي، لم يتزحزح خطوةً واحدةً عن موقفه، استرخى إلى مسند كرسيه يستمع بصمتٍ وتركيز بينما أَفِضْتُ في مفاهيم تتعلق بقدرات الإنسان على قلب مجتمعات وتغييرها فكيف لا أستطيع تغيير صبية غضة ستحل لصقي في الحياة، لم يرد بالرغم من تعمدي ترتيب فواصل صمتٍ طمعاً بتعليقٍ، لبث بصمته مبحراً بعينيه الواسعتين الجميلتين في وجهي، فأضطر لمواصلة الكلام حتى تعبتُ وأفرغت ما لديَّ، نهضتُ بقصد المغادرة، استقام بجذعه الأعلى وانتصب واقفاً عانقني وشدني بذراعيه الطويلتين الحنونتين وقال:

- خالي سلام روح دَوْرْ وحده مُثَقَفه مثلكْ تفهمكْ وأني أولْ مَنْ يَذهبْ لخطبتها، وبنتْ خالتكْ أنا أعرف المنْ أَزوّجْها!

وما ذهب إليه تحقق بحذافيره.

رَحَلَ خالي وأنا في المنفى، رَحَلَ فقيراً، تصّوف في ربعِ حياتهِ الأخير، فَجدَّدَ زمنَ الحصار من ماله الخاص الذي جمّعه خلال عمرهِ كمقاولٍ جامع "النهر"خلف المحكمة الحديثة وسط المدينة، جامع محلة نشأته "الجديدة"، وسكنهُ خادماً بعد وفاةِ زوجتهِ إلى أن ماتَ على سجادةٍ فيهِ وَجْه الفجرِ.

منشورات «الفياء» «AlYaa»

الفصل السابع والعشرون ثور جامح

بالرغم من معارضتكِ الضارية لزواجي من صبيةِ حياتي، وَجُهْدُكِ الخفي الذي حّرَضَ عليّ أبي وأخواتي الست اللواتي ينظرنَ لكِ كَقديسةٍ، وأنتِ كذلكَ يا أمي.. أنتِ كذلكَ قديسة وذكية، وبعد أن اصطدمتِ بعناديّ وتشبثي بها، إذ تَركتُ البيتَ حينما طَلب منها أبي بأسلوبٍ هادئ اللقاء بأختي في المدرسة، فأَشعلتُ البيتَ ناراً، أَزبدَتُ وأَرعَدتُ بحيث لم يستَطِع أبي ولا أنتِ قول شيء وأنا أجهر:

- ليش بوية ليش؟ أحنه نحب بعض وراح نتزوج تقبلون ما تقبلون، هذا الموضوع منتهي!

وهرعتُ إلى غرفتي المعتمةِ، حزمتُ حقيبتي، وَغادرتُ إلى بيتِ أختي، مدرستها في الإعداديةِ، كانتْ رحميَّ الثاني، فَزوجها صديقي ومعجبٌ بيّ، عسكري شيوعي سابق، قضى سنتين في سجن "نقرة السلمان"عقب انقلاب 1963، وقتها كانَ قد خطبها، قاومتِ "يا عليّة عبود"عاصفة اجتماعية هجمت عليك، فرفضتِ كل من أشارَ عليك بفسخِ الخطوبةِ، كنتِ وفيةً لكَلِمَتِكِ، لكنكَ معي نسيتِ، أعرف الأسبابَ لكن أينَ لنا أن نلتقي ونخلو يا أمي أين؟، ليس لدينا غير غرفتي المعتمة، كنتِ مسرورةً أولَ الأمرِ، فهي صديقة وزميلة أختي الصغيرة "سلمى"التي بعمرها، وكنتِ معجبةً بها، لم أدرك وقتها سرَّ أعجابك، لكن بعد تجربة العمر

منشورات «الفياء» «AlfYaa»

اكتشفتُ السرَّ، فهي شَبيهَتك في التكوين والشخصية؛ قوية، متكلمة، فاعلة، طويلة، جميلة. خصال متطابقة لمستها من خلالِ عشرتنا الطويلة التي جاوزت الأربعين عاماً، مضاف للشيء الخفي الذي تعرفينه عن شدةِ شهوتي وَطَفَحِها، فكم مرة ضبطتيني أتلصص على الجيران، وأسطو في أنصاف الليالي، ووو فظائع لا تقال، كنتِ تشعرينني بوجودك، تتصنعين عدم رؤيتي مما يضاعف شعوري بالذنب، سُرّكِ سر يا أمي.. سرّكِ سر، كتمتيه حتى موتكِ. كنتِ فرحةً بعلاقتنا أول الأمر أكيد قلت مع نفسكِ: علّها تروض الثور الجامح الذي أنجبتهُ، ولشدة تبتلك وصرامة قيمك الأخلاقية المحافظة لم تتصوري ما كنا نفعل في خلوتنا في غرفتي التي لا نافذة لها، فأبي أحتلَ غرفةَ الضيوفِ حينما فَطَمْتيه وَيَئِس من محاولاتهِ معكِ، ففصلَ غرفتنا أنا وأخي "كفاح"بحاجزٍ خشبي.

كنتِ تبتهجين ويتهلل وجهكِ سروراً حالَ عبورها الباب الخارجي، فتسرعين إلى المطبخ تحضرين لنا الشاي وتجلبينه في صينية، فاطمأن قلبي وقلبها وظننا أنا وصبيتي الغضة، كانت في الخامس الإعدادي، أن الطريقَ معبدٌ، لكن في مرةٍ فتحتِ البابَ فصدمكَ مشهدنا، وجَعَلكِ تقلبينَ علينا طاولةَ العائلةِ، فعشتُ جحيماً اجتماعياً لا يشبه أي جحيم.

أي اضطراب عشناه في عام التاسع والسبعين من القرن الماضي، حملات الاعتقال اشتدّتْ على الشيوعيين واليسار، خطفوني في نقطة تفتيش طيارة وأنا في طريقي إلى "مكبس تمور الشامية"حيث كنتُ أعمل، بقيتُ لديهم أكثر من شهرٍ، معصوب العينين طوالَ الوقتِ، مكبل المعصمين، أبرك في حلكة كأنها الأبدية وهم ينقلونني من مكان إلى أخر، أذاقوني

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

الويل ذلاً وتعذيباً وإهانات بالرغم من أن لا نشاط تنظيمياً لديَّ، وهم يعرفون ذلك، إذ سيظهر لاحقاً أنهم أشتروا عدداً من قادة محلية الديوانية في فترة التحالف ولديهم شجرة التنظيم، لكنهم متضايقون من نشاطي الثقافي والاجتماعي في المدينة، أطلقوا سراحي في صبيحةٍ مغبرةٍ، عدتُ إلى البيتِ مكسوراً، وارم الجسمِ، غير مصدقٍ، فمنذ اللحظة التي أطبقوا فيها عليّ لم أفكر بغير صبيتي الناعمة الحارة، تلاشى دونها كل شيء: الأهل والأصدقاء والمدينة لا بل حتى الدنيا، ظل طيفها الذي يكاد يكون حياً يطوف حولي في عتمة الزنزانة وظلام العالم الذي أدخلوني فيه، وبمرور الأيام تناءت و تناءت في ثقلِ زمنِ الزنزانة الرصاص حتى صارتْ حلماً، وها هي تُقبل من باب غرفتي راكضةً صارخةً وأنتِ خلفها لكنكَ تراجعتِ عند العتبة وسددتِ الباب. رَمَتْ جسدها بين ذراعيّ وراحت تشمني وتلهث كمن عثرَتْ على كنزها المفقود، كنتُ أكثر جنوناً منها شددتها بين ذراعيّ وعانقتها ليس حتى تقطع عقدها، أمعنتُ في الشدّ وشفتاها بين شفتيّ، تداخلٌ عنيف وكأننا نبغي الغور بأحشاءِ بعضٍ، وفيما كنا في لحمةِ التداخل فتحتِ البابَ، كنتُ أولَ من رأى وجهكِ الذي جَمَدَ مذهولاً، سمعتُ رجفة صينية الشاي بين يديكِ، لم أحلّ ذراعيَّ الملتفين حولَ ظهرِ صبيتي كي لا ترى المشهد. رددتِ بعفوية:

ياا

وخطوتِ خطوتين إلى الخلف، سحبتِ الباب حتى انغلقتْ. سارعتْ صبيتي المرتبكة إلى تعديلِ وضعها وغادرتْ على عجلٍ. رجعتِ خطوتين يا أمي لإغلاق باب الغرفة لكنكِ أيضا لإغلاق المشروع تماماً، فعملتِ بجهدٍ لتحطيم العلاقة معتقدةً أنكِ

منشورات «الفيـاء» «AlfYaa»

ستخلصينني من ورطة الحياة مع بنت يافعة لديها هذه الجرأة والحرية والاندفاع دون حواجز في التعبير عن مشاعرها.

رجعتِ خطوتين وفتحتِ نارك على ابنك المسكين الذي كان وقتها يوشكُ على الضياعِ، ثوركِ الجامحِ فعلاً، ابنك الذي تَخلَّقَ في بحركِ، ثوركِ الذي لم يهدأ بالرغم من عبوره الثلاثة والعشرين. فحشدتِ العائلة كلها من خلفِ الستار عليه، فمنكِ لم أسمعْ كلمةً واحدةً فيها لوم ولا كلمة خدشتْ صبيتي أو مشاعري، لكن أبواب جهنمكِ يا "علية عبود"وجدتها مشرعةً في أولِ بيتٍ حللتُ فيه وكنت أظنهُ رحمي بعد بيتنا، ففي أول ليلة حَللتُ فيها في بيت أختي، هَبتْ عليّ عاصفتكِ التي حَرّكْتيها، هبَّتْ في جلسةٍ صيفيةٍ في حديقةِ بيتها الواسعة .

كنا نجلسُ في زاويةِ الحديقةِ جوارَ السياج الخارجي، موقع متطرف ومعزول كي لا يَسْمَعْ حوارنا أحدٌ، ودون مقدماتٍ، دون توطئةٍ، وبطريقةٍ صادمةٍ وجهتْ كلامها الذي كانَ وقعهُ مثل عاصفةٍ جارفةٍ، غير مراعيةٍ أنني لجأت إليها، فهي من رَعَتْنا وَفَتَحَتْ منزلها، نلتقي فيه سراً حينما يخلو بعلمها، رشقتني بجملةٍ لم أنسها أبداً:

طلعتْ صاحبتنه مو تمام!

انصعقنا أنا وزوجها، ودون أن نحرك جسدينا حملقنا بعيني بعضٍ على ضوء مصباح الشارع، ثم رجعنا ننظر نحوها بصمتٍ ننتظر تفسيراً. كان الليلُ ساكناً جميلاً عبقاً بروائح الجوري والشبوي الليلي ونسمات الليل الخفيفة المنعشة، جوٌ يدعو للحلم لكننا كنا متوترين، هي التي بدت وكأنها تورطت، ونحنُ من هول المفاجأة وجملتها الساخرة التي نسفتْ لوائح

منشورات «الفيا» AlFyaa«

إطرائها لتلميذتها الذكية الفاتنة حسب وصفها. انتظرنا حتى هبت في سردٍ لا رابط ولا تمهيد له عن علاقتها برجالٍ، وروت قصصاً فاضحةً، سيئة السبك، لا ندري كيف علمت بها خلال يومين هو عمر خِلافي وتركي بيت أهلي، علاقات بعشرات الرجال لصبية بنت السابعة عشر من عائلة محافظةٍ، قصص لا تتناسب مع إطار علاقة العائلتين. قصص لم تحرك بيّ شيئاً، قصص رخيصة مفبركة جعلتني أقاطعها بسؤال:

- خويه أتصدگين هذا الهذر!

أتذكر المشهد وكأنني فيه الآن، كان صوتي هادئاً واثقاً، فمَن تحكي عنها نبضُها أحسه حاراً على صدري، أنفاسها تلفحُ رقبتي، ذراعاها تشدني كأنها تبغى الولوج في أحشائي، كنتُ رابط الجأش واضحاً أنطق مفرداتي اللائمة، بقولٍ واضحٍ من القلب يعمي من هو محرضٌ يتكلم نيابةً، سألتني متوترةً:

ماذا تقصد؟!

أجبتها بتلقائية:

هذا ليسَ صوتكِ!

فارتفع صوتها بكلامٍ عنيفٍ، جعلنا نترسب في الصمت والدهشة، لبثتُ أنصتُ بذهولٍ شارداً، لم أعد أسمع ما تقول، أراها كأنها في فلمٍ صامتٍ، وجهها جميل، تقاطيعها مجسمة بشفتيها المتحركتين المرتجفتين وعينيها العسلتين الجاحظتين قليلاً الواسعتين واحتقان بشرتها البيضاء الصافية، سارحاً أفكر في تكوين الإنسان ووضعه الثقافي رجلاً كان أو امرأة، فهي تكبرني أحبت مبكراً زوجها الأسمر الجميل الجالس جواري، وذاقتْ لظى الانتظار سنتين حتى أطلقوه من السجنِ وصبرتْ

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

سنواتٍ أربع حتى أكملت دراستها الجامعية، وشاركت بإضرابات الطلبة اليسارية 1967. قلبتُ فكرة تبعية البنت لأمها بغض النظر عن ثقافتها وقناعاتها فهي الأكثر احتكاكاً بتلميذتها التي كانت تصفها بالفاتنة والذكية والشعلة، شيء فظيع، لم تنقطع عن الكلام، ولم أفِق من شرودي إلا على سؤالها الذي ختمت فيه قصصها:

هسه شنو رأيك راح تستمر وياها؟

لزمتُ الصمت، وليس لدي غير الصمت قارب نجاة في هذا الهيجان الاجتماعي العاصف، شعرتُ بمرارة وسخرية من المحيط بانتا على قسماتي ونظراتي وسكوني مما جعلها تَشتعلْ انفعالاً وتطالبني بقول شيء ما حتى تَفهَمْ، وكي أنهي الموضوع قلت جملة واحدة:

- ليسَ صُوتك هذا صوت أمي!

أوشكتْ على الجنون فصرخت:

- لا تذكر أمي لا تذكرها!

عدتُ إلى صمتي والتفتت إلى زوجها، كانَ يحملق بها شارداً وحينما أيقن من لزومي الصمت انتصب خارجاً من سروحه ليقول لها:

- كلامكْ غريبْ، ما كان رأيك هذا بالعكس أنتَ معجبة بها.

خرجتْ من طورها تماماً وهجمتْ عليه مثلَ لبوةٍ صارخةً:

- لا تِتْدَخَلْ المشكلة بيني وبين أخي لا تتدخل!

كانت ليلة في الجحيمِ!

منشورات «الفيــاء» «AlFiyaa»

لم أنَم ليلتها، أرقتُ متقلباً في فراشي مثل سمكةٍ على اليابسةِ، متوتراً، قلقاً، مختنقاً. نهضتُ جالساً وأرهفتُ السمعَ في سكونِ البيتِ الكبيرِ، ليس غير دوي رأسي المشتعل، بما واجهت من أقرب أختٍ لي، فقد كنتُ أعيش بينهم أشهراً منذ صباي، تسللتُ على أطرافِ أصابعي وفتحتُ الباب المفضي إلى الحديقةِ الواسعةِ لأنزوي على الكرسي نفسه جوار السياج أنفثُ دخانَ سجائري التي أشعلها الواحدة من الأخرى، وأرمي بصري إلى سماءٍ خفيضة النجومِ تارةً، وإلى مصابيحِ الشارعِ المتدلية تارةً، ضاقتْ عليّ الدنيا، إلى أينَ ألجأ في مدينةٍ ضيقةٍ كالديوانيةِ؟، فمن المستحيل النزول في فنادقها الرثةِ ولديَّ عدد لا يحصى من بيوتِ الأقاربِ، ثم أن ذلك سيعتبر عاراً ما بعدهُ عار على عائلتي، كانَ الضيقُ يزداد شدةً وأنا أستعرض وجوه أخواتي المتزوجات المتمكنات، فتأثير أمي القوية الصلبة كاسحٌ عليهنَّ، أدرك ذلك، فمجرد كلمة أو إشارة منها تُغلَق الأبواب في وجهي مثلما فعلت أختي الأقرب قبل ساعتين، كان حصاراً اجتماعياً لم أشعر بمثيلٍ لهُ حتى في زنازينِ الاعتقالِ، ففيها لا حول لك ولا قوة، يتطلب منك الصبر وتحمل ألم التعذيب، وحبس الكلام فتنجو، كنتُ أدرك ذلك، فعلتهُ ونجوت، لكنني محاصرٌ من أحبابٍ شديد التعلقِ بهم، أعوم في فضاءٍ لا مرسى له. جعلت أتمشى من شدة الحيرة، أنفثُ الدخانَ وزفير الغضب نادماً لتسرعي في حزم أمتعتي ومغادرة البيت، أنهكني التفكير وانسداد السبل، فتهالكتُ على كرسيي مرخياً رأسي على حافتهِ مبحراً بين مصابيح السماء الكثيفة الغامزة الغامضة، أغمضتُ عينيَّ المتوترتين وسكنتُ في نقطةِ التلاشي التي ينمحي فيها الموضوع، فيغيب الأمس والغد وتتجلى اللحظة الحاضرة والمستمرة فقط، وفيما أنا في العمقِ ذاك رأيتُ وجه أصغر

منشورات «الفيلياء» «AlFyaa»

أعمامي "عيسى"ناصعاً ضاحكاً يقف وسط سوق المدينة المكتظ وينادي عليّ:

- سلام.. سلام صار لي ساعةْ أَصَيّحْ!

اختلطَ مشهدُ مناداته بصوتِ آذان الفجر الذي أيقظني من حلمِ يقظتي مسروراً بباب الفرج المفتوح عمي "عيسى"أفقر أعمامي، وأقربهم إلى اسمه فهو فعلا قريب جدا إلى ابن الله، عامل نجارة كادح، كانَ نحيلاً معلولاً يكسبُ قوتَ يومهِ بعناء، تزوجَ من بنت عمه وكوّنَ أسرةً عانتْ شظفَ العيشِ، منحتهُ البلدية بيتاً في "حي الفقراء"بطرف الديوانية الجنوبي، وحينما أعجزه المرض تماماً وبات يصعب عليه السير دون عصا واستراحات، خصصَ لهُ "عبد سوادي"راتباً شهرياً يقتطعهُ من مرتبة البسيط.

حدثني عنه صديقي الشاعر عزيز السماوي المولع بالنكت والطرائف، قائلا:

- عمك "عيسى"من أشهر هتّافي تظاهرات اليسار العراقي زمن الملكية!

ورسمَ لهُ صورةً ساطعةً، من اللحظةِ التي يُحْمَل فيها على الأكتافِ فيرتجل أهازيج تهزأ بالحكوماتِ العميلةِ، وقدرته على ترتيبِ الهتاف والأهزوجة الحماسية بعفويةٍ، وعن قوةِ صوتهِ الجهوري الذي يشعل حماسَ المتظاهرينَ إلى أقصاه.

في الصبيحةِ التاليةِ حملتُ حقيبتي، وغادرتُ إلى بيتِه، أستقبلني بعناقٍ حارٍ، ودونَ مقدمات قلت:

- جاي أسكن عِدكُمْ!

منشورات «الفيا» «AlfYaa»

لا أستطيع وَصف مبلغ سروره، أشرقَ وجهه، أبرقتْ عيناه، عاودَ حضني مردداً:

- صدگ وراح يوميه أشوفك.

لم يسألني عن الأسباب، كانَ يُفكر بقلبهِ لا بعقلهِ والحياة قصيرة، عبَّر عن ذلكَ بجملتهِ العفويةِ كونهُ سيفوز برؤيتي، وهو الذي سيموتْ وأنا في منفاي، وسأقف على قبره بعد عودتي في سرداب عائلتي جوار أمي وأبي وأكلمهُ بحنانٍ. لم يسأل لكنني في الأيام التالية أخبرتهُ عن السببِ وأردتُ أن أشرحَ لهُ التداخلات التي أدتْ إلى المأزقِ، فقاطعني قائلاً:

- عمي لا تدوخني، الزبدة!

انفجرتُ في ضحكةٍ عاصفةٍ تحت نظراتهِ الحادةِ الذكيةِ التي سخرتْ من ثرثرةِ مثقفٍ يحلمُ بالكتابةِ، ضحكتُ من نفسي وشرحي، وأضحكُ الآن لحظة الكتابة بعد قرابة أربعين عاماً، ما أدق وأعمق البساطة والوضوح، سحرني بجملتهِ، فقلتُ:

- عمي أني أحب وحده وأريد أتزوجها وأهلي سووا عليّ ثورة!

- معقول شبيهم مخابيل، أسمع عمي تبقى عندي وقل لها خلي تزورك هنا! ولا يهمك عمي، معقول أخوي "عبد"ضد الحب، معقول!

ذهبتُ إلى سوقِ المدينةِ، اشتريتُ فراشاً وأغطيةً، كم شعرتُ بالذنبِ لإهمالي زيارته، عميّ العاجز الفقير المسكين الذي بات مع تقدم العمر لا يستطيع مغادرة بيته والتجوال في السوق أو زيارة أحد، شعرتُ باحتقارٍ شديدٍ لنفسي أنا الماركسي المتحمس

منشورات «الفـياء» AlFyaa«

للكادحين والمساواة والعدالة والثورة، المشغول في قراءةِ الكتبِ والجدل في المقاهي، والوسط الأدبي، أنا الثوري أو هكذا كنت أعتقد لم أفكر مرةً بزيارةِ عمي الفقير والإحساس بمعنى الفقر، أي تجربة عشتها في بيته الفقير الذي تحس أن جدران غرفه من ورقٍ على وشكِ أن تتهدم، أي تجربة ساحرة وكأنها حلم أكسبتني عمقاً فاقَ تجارب الاعتقال والجدل والعمل السري في التنظيمات، غرف متداخلة، وأرواح متداخلة، لم أعِش أروعَ من تلكَ الأيام وصبية عمري واصلتني، كنا نختلي في غرفة متطرفة ونغرق في بحرٍ من العناق والقبل، والأحاديث المهموسة، أيام كأنها أحلام، وكان عمي وزوجته وأبناؤه سعداء بنا، أحبوها لم يسأل أحدٌ من تكون؟.. هي حبيبة "سلام"وكفى!

أية ليالي ضاجة بحكايات وقصص نسفر بها، رويت له عن حادث جرى له في تظاهرةٍ من تظاهرات العهد الملكي في مطلع الخمسينيات، في وقت كانت السلطة فيه قوية وَهانَ عزم المتظاهرين قليلا، رفعه أربعة رجالٍ أشداء على الأكتاف فأشعل حماس المتظاهرين وجذب من كان على الرصيف بهتافاته العفوية المبتكرة عن المساواة ومعاداة الاستعمار والعمالة، وحينما بلغتْ التظاهرة ساحة المتصرفية جوار النهر وأمام مقر الحكومة وقتها، هجمتْ فصائل من شرطة المشاة والخيالة المدججين بالسلاحِ وأطلقت النيران فوق رؤوس المتجمهرين فتفرقوا هاربين في شوارع فرعيةٍ، فوجدتَ نفسك يا عمي وحيداً محمولاً على أكتاف أربعة رجال لا تعرفهم، ورفاقك هربوا ناجين بجلودهم، صرختَ بهم:

- رفاق نزلوني أجو الشرطة!

فضحكوا قائلين:

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

- ومنو ينزلكْ ولكْ دَمَرتْ العالمْ بهتافاتكْ!

ومشوا بك محمولاً إلى دائرة الأمن، كانوا من الشرطة السرية. المشهد ذروة النكتة التي يرويها الشاعر "عزيز السماوي"! في جلسات السمر بليالي الديوانية وقت الجبهة الوطنية، ليلتها كنتُ أسهر جالساً على فراشه المبسوط على حصيرة قديمة بطرف الغرفة، انفجر ضاحكاً بصخب مردداً:

- هاي شذكّرك بيها!

أكد صحتها وروى لي مرارة تلك التجربة، وأسهب بالتفاصيل؛ كيف حملوه إلى داخل المتصرفية، وكيف أذاقوه الذل والهوان وهو المسكين الذي لا يقرأ ولا يكتب لكنه عاشق لفكرة المساواة.

- عمي سلام شِفِتْ الويلْ بس ما تنازلتْ!

ما أسعد تلك الأيام في بيتِ عمي الفقير، لا أحد يسألني عن شيء، متى عدت، متى خرجت، أين كنت، بيتٌ فقير أَنساني أهلي وخلاني وصبيتي تزورني ونمارس حريتنا في المحبة والشوق دون رقيب.

نسيتكم يا أمي.. نسيتكم؟

كيف ينطلي وضع الابن الجديد على أمٍ مثل "علية عبود"كيف؟

في مساءٍ من مساءات حي الفقراء جنوب الديوانية، كنتُ أسترخي على فراشي في غرفةٍ متطرفةٍ هشة الجدران، هل جدران الفقراء هشة أم هذه أخيلتي؟ لا أدري، كنتُ سعيداً لا أحد يسألني، ولا أحد يقول لي متى تأتي، فإذا بِتُ في مكانٍ آخر لا

منشورات «الفيا» «Alfyaa»

يسألني لا عمي ولا أولاده، حالة إنسانية عميقة لا يعرفها إلا أبسط الناس، فهم حينما يرونني حياً حيوياً لا حاجة إذن للسؤال، في ذلك المساء المُغبر اقتحمتِ يا "علية عبود"بكل عنفوانك سلامي في بيت عمي وقلتِ جملة لم أنسها أبداً:

- گوم يمه گوم ما عندك أهل!

جاوبتكِ بهدوء:

- يمه هنا مرتاح، أشوفها يومية!

كنتِ قويةً نشيطةً سارعتِ بلف فراشي، وحملتيه إلى التكسي المنتظر أمام الباب، همستِ لي بخفوت:

- يمه أرجع و أش تريد يجْرى لكْ!

لم أعلق، فأردفتِ:

- يمه گوم وياى و تشوفها أشوكتْ ما تْريدْ!

لزمتُ الصمت، كنتُ مكبلاً بما لا أدريه، فقلتِ بصوت واهن مرتجياً:

- بسْ أرْجَعْ يمه

أنت ما تعرفْ إشگدْ صعبْ فراگكْ سلومي!

منشورات «الفـ ياء» AlfYaa«

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الفصل الثامن والعشرون

استسلام

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

رجعتُ وكانَ لي ما أَوْعَدَتني به، عشتُ ملكاً متوجاً واللقاء بالمحبوبةِ يجري علناً وكأنه تقليد معتاد وهو في حقيقةِ الأمر خرقٌ صادمٌ لصرامةِ عائلتنا المحافظةِ جداً بالرغم من تاريخها النضالي مع الحزب الشيوعي وأهدافه التحررية المعلنة. كنتِ "يا علية"تعانينَ وتجاهدينَ لإخفاءِ ضيقكِ وتبرمكِ ونظراتك المبصبصة من تحت أهدابكِ الطويلةِ، المتنقلة بين وجوه أخواتي الثلاث الصغيرات وبين فعلنا العلني في الخلوة وأنا أسحبها من ذراعها وأغلق الباب، كنتِ مُعَذَّبةً وتعاليمك لبناتك بالحشمةِ نُسِفتْ بفعل ابنك الكبير الذي عذبكَ كثيراً، والأم تتعلق بابنها العاق الذي يتعبها أكثر من المطيع السهل، وبكلمة أدق المؤدب.

هل يتخلى الشخص القوي العارف عن قناعاته؟!

لا ليس فقط لا يتخلى بل يعمل على تحقيقها حتى وهو ينصاع مثلما أنصعتِ أمام سيلنا الجارف المقتحم، فالقوي لا يعتقد إلا برؤاه، فبنيته بنية دكتاتور، وهذا ما فعلتيه يا قديستي، فلدى عائلتها أيضا قامتْ عليها ثورة مكتومة أيضا، فحبيبتي أخبرتْ أمها أول أيام العلاقة ضاربة نصيحتي بعرض الحائط، المحذرة من جهنم التي ستهب عليها. العائلتان كانت تتمنى أن يحدث خلاف حتى ينفرط المشروع، لكننا تجاوزنا العراقيل كلها؛ موقف أمها الرافض، أولاد عمها، كانت شجاعة واجهتهم. أخبرتني في لقاءٍ بأنها قالت للصغير منهم والذي يكبرها بعشرِ سنوات والمتعلق بها حينما سألتهُ:

- ليش معارض؟!

- عندي نَفِسْ بكِ؟!

تصور يا سلام؛ تزوج أول وحده وتركها من الليلة الأولى،

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

وتزوج ثانية، ويقول لي "نفسي بك"قلت له:

- أسمع أني وسلام نحب بعض وراح نتزوج، تقبلون زين، ما تقبلون نروح للمحكمة نعقد!

هددتهم فانصاعوا!

أتمتْ حديثها بوجهٍ منتصرٍ منتشٍ مقبل على التقبيل، تبسمتُ من قلبي متخيلاً المشهد، أبن العم المتعلق بها يتحاور ويتلقى صفعة بَوحها بحبها لغريبٍ، تخيلتُ وجهه المطعون من بنت عمه وجارته التي ترعرعت تحت عينيه حتى نضجتْ لكنها عصيةٌ على القطافِ قلتُ لها قبل أن نغرق في بحرٍ من القُبل:

- عفية شجاعة ومقدامة!

لم أحزر وقتها، وكيف أحزر وأنا بذلك الحماس والطيبة عناء العيش مع هذا النمط من النساءِ، وقتها مطلع ثمانينات القرن المنصرم كانت القوانين والمجتمع إلى حدٍ ما، وبالرغم من الدكتاتورية في صالح الحب والشجعان من المحبين.

أنتهى الأمر بمصارحتها لأبيها حينما سألها عن سرّ إلحاح عائلتي في طلب يدها بالرغم من ردهم مرات، وصفتْ لي المشهد فتخيلته متجسداً ومتُ من الضحكِ، فهو يثق بها جداً، وكانتْ لقوتها وجرأتها في طفولتها يأخذها معه إلى سوقِ القصابينِ وسط سوق المدينةِ فتجلس في دكانه وتساعده في العمل، روتْ لي بعد أن أخبرتني أنها صَفَتْ الموضوع وما على عائلتي سوى الاتفاق وترتيب موعد المشية.

كانت تتكلم مختنقةً بضحكتها، التي تنفلت من بين الجُمَل:

- البارحة الظهر أجه أبوي من الشغل ودون أن ينزع ملابسه

منشورات «ألفياء» «AlfYaa»

ويسبح كعادته صَاحَ عليَّ، بويه نهوده تعالي، وسحبني من يدي ودخلنه بغرفة الضيوف، سدْ البابْ وصفنْ بوجهي وسألني بويه حبيبتي نور عيني فهميني شنو سرّ "آل سوادي"، صار لهم نص سنة يروحون ويجون وأمك رافضة فهميني، فقلت له: بويه أنت مو تحب سلام وعمه "موسى"صديقك ودائما تحكينا عن حضورك لمباريات كرة القدم اللي يلعب بيها وبعدين تسولف عن أخبار اعتقاله ونضاله، كان صامت ينظر بوجهي ويفكر فلما خلص كلامي سألني: يعني أنت موافقه، فقلت: أي بويه. فاتسعت عيناه وتجمدتا قبل أن يقول:

- نسوان گحاب ما تتأمنن!

وفتحَ البابَ وصاح بصوتٍ قوي حتى تسمع أمي:

- أنتهى الموضوع بلا أي كلام زايد ونقاش، أني موافق!

كافأتها بعمق، أغرقتها بمزيدٍ من القُبلِ فتوهجنا واحترقنا في العتمة على سريري الضيق تحت مكتبتي المعلقة أدراجها على الحائط حتى السقفِ العالي.

تمَّ الأمر كما رسمنا، أتفقَ الرجال والبقية على النساء، وفي الحقيقة بالرغم من عسف القيم والأعراف العراقية على المرأة لكن الحل والربط في خفاء العلاقات الاجتماعية الحساسة كالزواج وغيرها بأيديهنَّ.

وأي موقف يا "علية عبود"وضعتنني فيه!

قبل عشرة أيام من موعد لقاء نساء العائلتين لترتيب مراسم الزواج المقدم والمؤخر والحفلة وما لا أعرف من مسائل أخرى، حزمتِ حقيبتك الصغيرة وسافرتِ إلى بيت أختي الكبيرة

منشورات «الفياء» AlFyaa»

"ساجدة"في "تكريت"، صحبتكِ حتى محطة الحافلات ولدي هاجس بأنك تهربين ، فقلت لك:

- يمه أخاف تتأخرين علينه!

- لا يمه، يومين وارجع!

أقلقتني نبرة صوتك، حملقتِ في وجهي قبل أن تضعي قدمك على أول سلالم الحافلة الثلاثة وقلتِ:

- يمه أش بيك وجهك أصفر، ليش خايف! دِير بالك أخوتك وأخواتك، مع السلامة.

لم أكن خائفاً فحسب بل مرعوباً من فكرة عدم حضورك لقاء النساء للاتفاق على التفاصيل فذلك سيقوض المشروع تماماً مهما كانت المبررات، مرضك مثلاً وعدم قدرتك على العودة أو غير ذلك، فأنتِ تدركين بخبرتك الحساسية المفرطة بين العائلتين من قصة حبنا المعلنةِ، يشعر أهل البنت المُحِبَةِ بالعار من بنتهم، وأهل الولد بالضيق بالرغم من جدية العلاقة، فغيابك سيفسر احتقاراً فاضحاً لأهل البنت التي كَسَرَتْ القيود والتقاليد.

ويا لتلكَ الأيام العشرة عشتها في فرنٍ محتدمٍ ليل نهار، في عملي والبيت، جفاني النوم، تشتتْ أفكاري، ومع تقلص الوقت وضيقه أدركتُ أنكَ لم تتزحزحي قيد أنملة عن موقفك الرافض للعلاقة، ووجدتني مثل لمح برقٍ في اليوم قبل الأخير، كنتِ كلما أتصلتُ بك هاتفياً تطمينني بصوتك الرصين بأنكِ ستحزمين حقيبتك في الساعات القادمة، لكن الأمر لم ينطلِ عليّ، أنا الخارج من رحمك، فرخكِ العوّام، أبنك العاق الذي غاص مبكراً في الأسرار وأنكشف عنه الحجاب، أحسستُ أن كل ما فعلناه من جرأة واقتحام وتجاوز وفرض سيتقوض بعدم

منشورات «الفياء» «AlFYaa»

حضوركِ، جعلتُ ألوب كسمكةٍ ابتلعت الطُعم وغصّتْ بالشصِ، صوتكِ عبرَ الهاتف وتطميناتك لم تنطلِ عليّ، لم تنطلِ.. أحس أنكِ تسمعينني يا أمي من العالم الآخر وأنا أكتبُ عنكِ مردداً ما أكتبهُ بصوت عالٍ في عزلتي ووحدتي في ليلِ المنفى الموحش، أراك الآن تجلسينَ بثوبِ الملائكةِ الأبيض وسط الغيوم خلف نافذة السماء مبتهجةً لخطابي الموجه لك.. أنكشفَ الحجاب يا "علية عبود"فهرعتُ إلى خالتي الوحيدة "زهرة"أختكِ الصغيرة والتي دعمتنا في تلك الأيام السوداء، ستينيات القرن المنصرم العجاف، كنا نزورها أنا وحبيبتي أحياناً في بيتها وتحبنا جداً، فروحها مرحة مثل روحي، شرحتُ القصة باختصار فهي بعيدة عنا، قلت لم يبق غير بكرى وإذا ما تحضر أختك يخربْ الموضوع كله، وختمت قصتي بالسؤال:

- خاله شنو الحل؟

نظرتْ من نافذة بيتها إلى السماء لدقائق، فأردفتُ:

- خاله شيء عملي، ما عدنه وقت!

تَملّتْني، كنتُ أتلظى في وقفتي المتوسلة أمامها كمصابٍ بحساسيةٍ، تبسمتْ ناطقةً بثقةٍ هَدّأتْ من روعي:

- معقولة سلومي، هي اللي تگول أني ما أدَخّلْ خليهم أولادي يحبون ويختارون، تأكل عسل!

وعاودت التحديق إلى الغروبِ الشاحبِ خلف النافذةِ المطلةِ على الحديقةِ الأماميةِ الواسعةِ لدقائق أخرى بقسماتٍ تقلصتْ، محاولة التركيز، ثم تراختْ واطلقتْ ضحكةً أثلجتْ قلبي وقالت:

- أختي وأعرفها، باچر نطلع من الصبح لـ "تكريت"نجيبها

منشورات «الفيـاء» AlFyaa»

ونجي!

وأية رحلة ممتعة كانت مع أختكِ الصغيرة الجميلة، صريحة لا تخجل من البوح والكلام بصوتٍ يسمعه أبعد راكبٍ، "خالتي أنجبت فنانين "عادل الهلالي""ورعد الهلالي"نجيا من الحرب مع إيران ولمعا بعد الاحتلال الأمريكي، الأول موسيقي وتشكيلي ويكتب القصة والثاني نحّات يُدَرّس في معهد الفنون الجميلة". خالتي مثلك يا أمي "تخلقتُ في رحمكِ وأخي المغدور "كفاح"الرسام التشكيلي، المثقف والمناضل الذي قضى تحت التعذيب.

كانتْ تجلس إلى جانبي على مقاعد ثلاثة متصلة حجزناها خلف السائق ، وتتكئ بظهرها إلى زجاج النافذة مكررة أن لا أحزن ولا أقلق سنأتي بها هذا المساء، وراحت تحدثني في قصٍ شيقٍ عن طريفِ ما مرّ بها في الحافلاتِ، إذ كانتْ تنتقل من مدينةٍ إلى أخرى حسب تنقلات زوجها الضابط في الجيش العراقي، ضحكتْ بصخبٍ قبل أن تروي قصة سفرها مع "حمزة"وهذا أسمه شخصية وديعة مثقفة عقلانية، كنتُ أدخل معهُ في حوارات حادةٍ، مشحوناً بأفكار اليسار المتطرف، وأعتبره رجعياً مؤيداً لعراقٍ ملكي مستقر، تبدأ قصتها الطريفة:

أسمع خالة كنت ويه "حمزة"مسافرة من الموصل إلى بغداد بسيارة مرسيدس 18راكب قديمة تغلق كراسي الممر فيها لتستوعب راكباً، وتصف المشهد بدقة مكان زوجها الذي جلس لصق النافذة وغفا حال تحرك السيارة وهي جواره بينما شغل الكرسي المتحرك الملاصق لها شاب تلاشت ملامحه حال حلول الظلام، صورتْ ما حدثَ بصوتٍ يسمعهُ من يجلس على المقعد الأخير، كان ذلك لا يحرجني بل يسليني ويجعلني انفجر ضاحكاً

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

كلما تقدمتْ في قصتهاً:

- خاله أول ما غابتْ الشمسْ ونزلْ الظلامْ بنصْ الطريقْ وناموا الركابْ، ما حسيتْ إلا وأصابعْ تتلمسْ فخذيْ، جمدتْ أول لحظاتْ أفكرْ أشلونْ أتصرفْ فـ "حمزة"يشخرْ جواري، تمنيتْ لو يصيرْ شريفْ ويسحبْ يده وتْعَدي لكن فسّر سكوني قبولْ فتمادى وراحْ يمسحْ ويقرصْ وأني متشنجةْ على صوتْ المحركْ الرتيبْ وأصابعْ ذاكْ السافلْ التفتْ فشفته ساكنْ وكأنه لا يفعلْ شيء وحرتْ خاله حرتْ.

كنتُ أنصتُ مبتهجاً بالحبكةِ وطريقةِ سردها وتصويرها، حراجة موقفها في بيئةٍ عراقٍ لم أصدفُ أقسى منها في كل الأوطانِ التي حللتُ بها.

- خاله سلومي يا بعد خالتك تعرف أشگد أحبك، وداعتك تمنيت يبطلْ وما تصير فضيحة، ويفز "حمزة"وتكبر المشكلة، بس تمادى، فقربتْ رأسي منه ولقطته بعْضّه من زنده بكل قوتي حتى حسيتْ أسناني تلاگنْ بلحمه من وره القميصْ فجمدْ مخنوگ بصراخه، نِفسه راد ينگطع وما گدر لا يحچي ولا يصيح، سحبْ أيده ولمْ جسمه فزغرْ بالكرسي ولمنْ فاخ گلبي هَديتَه وهو يئن بصوتْ خافتْ جدا!

أصابتني موجات متعاقبة من الضحكِ لم تنقطع حتى وصولنا تكريت وأنا أتخيل ذاك الشاب الصياد الذي عضته الفريسة في الظلام، أضحك وأضحك فأنا أعرف هذا النمط من الفتيان المحرومين الذي يركبون سيارات ما بين المدن العراقية بهدف الجلوس جوار امرأة لغرض التحرش باللمس في الضوء والظلام. يتسلل بأصابعه بخفه وخفاء ولا يهتم بردود فعلها سواء

منشورات «الفياء» «AlIYaa»

أكانت متقبلة أو ترفض فالكثير يستسلمن بسبب الحرمان والكبت، والقليل يرفضن لكن يصمتن خوفاً من الفضيحة، كنت أغرق بالضحك الماجن الذي ضجَّ الحافلة وخالتي تشاركني النوبة مردداً:

- سلومي أضحك، أضحكْ فَرح گلبك فالحياة قصيرة!

ضحككتُ حتى تقطعت أنفاسي متخيلاً ورطة الصياد المسكين الذي تحرش بها، لا بل رأيته وكأنه يجلس بيننا على المقعد الفارغ، وضعه ورعبه وألمه بعد أن ذاق أسنان لبوة شرسة، وحمدتُ ربيّ لأنني لم أقع في تحرشاتي بواحدة مثلها، لم أكن جريئاً أكتفي بالتلامس، فقد حباني الله بمخيلةٍ مشتعلةٍ تستطيع تقريب كل شيء، فكان اللمس الخفيف يكفيني، ففي مرة وسط بغداد المكتظة جلست جوار امرأة بيضاء عيناها تلعبان أكلتني أكلاً وأنا أقبل لأجلس على الكرسي المجاور لها، كانت الحافلة صغيرة، هيجتني نظراتها فعاد طعم اللحم والالتصاق مختلفاً، تلاحم فخذانا، كانت متينة البنية يضيق مقعدها بها فأشتعل اللحم، لم تسحب نفسها، أحسستها تستمتع وتتوهج لكنني لم أذهب بعيداً فاشتغلت مخيلتي راسمةً مشاهد حيةً فرأيتها عارية تحتي وفوقي، كنت أغمض عيني وأبحر وحينما أفتحها أجدها تحملق في وجهي بدهشةٍ وشهوةٍ كأنها ترى ما أتخيلهُ، ذهبتُ إلى الأعالي وفخذانا يمعنان في الإطباق حتى بلغتُ الشمسَ في دقائقٍ.

هلكتُ من الضحك، من قصصها، من ذاكرتي السافلة، وسط صمت الركاب المترسبين في السكون وكأنهم ينتظرون المزيد من القصص.

منشورات «الف ياء» AlfYaa«

لم أرك يا أمي صعدتِ إلى السماء زمن الدكتاتور، ورأيتُ خالتي في أول زيارة فحكت لي عن أشواقكِ وانتظاركِ الذي لم تيأسي منه، دلتني بمكان جلوسك كل غروب بمواجهة باب البيت، تحلمين بلحظة دخولنا أنا وكفاح، قالت باكيةً: خاله لم تكل عن أملها حتى موتها، في سفرتي السنوية لمرابع النشأة دأبت على زيارتها بانتظام، أقضي وقتاً طويلا جوارها، كانت تشيخ وتضعف ذاكرتها عاماً بعد أخر حتى عادت لا تستطيع رؤيتي بوضوح فتضمني إلى صدرها طويلاً غارقةً بنحيبٍ وهذيان وهي تردد:

- يا خاله بيك ريحة أخيتي، يا خاله كانتْ روحها بيك!، يا خاله ماتتْ بحْسرتكْ!

فتجعلني أنحب معها وكأننا فقدناكِ للتو.

هي الأخرى اقتفت أثركِ قبل سنوات وأنا في منفاي لكنني دأبت على زيارة قبرها في مقبرة السلام والحديث معها كلما نزلت إلى العراق.

رحلة الأربعمائة كيلو متر بين الديوانية وتكريت قضيناها بمثل هذه السوالف والمرح، عند انتصاف النهار دخلنا عليكِ، أتذكر المشهد وكأنه يجري أمامي الآن.

تفاجأتِ وارتبكتِ، نهضتِ على الفور وأخذتينا بالأحضان وبادرتي بالقول:

- أني محضرة نفسي أريد أطلع!

ردت خالتي ضاحكةً:

- أخيتي گومي هسه، گومي العالم كلها تنتظرك!

منشورات «الفيا» «AlFyaa

وأتينا بكِ فتمَّ الأمر.

من تلك التجربة أيقنتِ يا "علية"أن ابنك ليس سهلاً، لا حد لإرادته وصبره، ولا حل له ولا أفق وهو ضائع أجلاً أم عاجلاً، مثل الصغير "كفاح"الذي رَكَبَ رأسه حسب تعبيركِ.

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «الف باء AlifYaa»

الفصل التاسع والعشرون

اتفاق

منشورات «ألف ياء» «AlifYaa»

مثل نيزك اقتحمنا قيمكم وتزوجنا، كان الوضعُ مضطرباً، القمع اشتد، حملات اعتقال واسعة للمعارضين، جبهات الحرب مع إيران مشتعلة، تَرَكز الدكتاتور. بالرغم من هذه المخاطر لم نكف عن نشاطنا سراً بخلية للحزب الشيوعي، تحركاتنا كانت محسوبة بدقةٍ خَفَتْ على أجهزة الدكتاتور القمعية لكنها لم تخفِ عليك يا "علية عبود"لم تَخفِ، كنتُ أراها في عينيك الفاحصتين المفكرتين المتأملتين، وأنتِ تطيلين التحديق في قسمات وجهي وتغورين في عينيَّ بصمتٍ كلما زرتكِ وتطلقينَ حسرةً، كنتِ كَمن يرى الغيب. ستتدارك الأمور وتبلغ حملة الاعتقالات ذروتها وسيختفي أخي الصغير "كفاح"تاركاً دراسته الجامعية، كنت أراك تهيئينَ نفسك كأنك على سفر، أسألك فتموهين الأمر:

- لا يمه رايحة للطم!

لم أعلم أين كنت تذهبين إلا بعد انقطاع أخبارهِ تماماً، مما اضطركِ إلى سؤالي:

- يمه ما حصلت أي خبر عن أخوكْ؟

- لا يمه ماكو!

فتبتل عيناكِ بالدمع، تحبسينه في الأطراف وتنظرين إلى سماء الغروب من جلستك المواجهة للباب المفتوح وتُتمتمين بأدعيةٍ لا أتبين منها شيئاً، ستبوحين لي على انفراد بأنك كنت تسافرين للقاء به في بغداد، تبيتان في صحن الأولياء، في "الكاظم"مرة وفي صحن سيد "إدريس"بالكرادة مرة، أنت الشديدة الحذر، سلمت من الاعتقال عام 1963، ومن يومها هجرتِ كل نشاط سياسي، وزمن الجبهة الوطنية كنت تهدئين من اندفاعنا وحماسنا:

منشورات «الفيحاء» «AlFyaa»

- يمه لا تندفعون، البعثيين ما يتأمنون، قتلة!

تموت أطرافك مع قرع الباب، وتدعين الله كي يحفظ أبنائك وبناتك من هتك البعث وجلاوزته، لكنكَ من أجل رؤية أبنكِ المتخفي في ديار الله ركبتِ الخطر ودأبتِ على السفر إليه شجاعة مقدامة، تعودين في اليوم التالي منهكة مخففة من أشواقك؛ أشواق الأم التي لا مرسى لها ولا حد، ستروين لي بعينين باكيتين حواراتك معه عن جدوى تخفيه عاري اليدين أعزل إزاء سلطة مدججة بالسلاح وشعب تحول أكثر من نصفه إلى جواسيس، لم تفصحي عما ردَّ به لكنكِ لخصتِ الموقف بكلامٍ لم أسمعه منك طول العمر أنت الحكيمة القوية، قلتِ مستسلمة بصوتٍ خافتٍ:

- يمه سلام اخوكْ يَقنعْ الما تقتنعْ!

تنفثين حسرةً وتهمسين بصوت بالكاد يُسمع:

- ضاع أخوك كفاح ضاع!

ستتوالى الأحداث وكأنها الأقدار، أحداث تجري سراً، تتابعينها بصمتٍ، وتتصرفين وكأنها لم تحدث، كالتحاقي بالثوار وغيابي نصف عام بينهم، عودتي واختفائي قرابة عام، والتحاقي بالجيش بعفوٍ عام فرجعتُ جندياً في الجبهات بعد أن ضاقت بيّ السُبُلُ.

لم أكن أدرك إلا لاحقاً أن تلك الفترة كانت أسعد فترات حياتي معك وآخرها بالرغم من وضعي المضطرب حيث كنتُ أمشي على حد السكين، أتأرجح على صراطٍ مستقيمٍ مهدداً في أية لحظة بالقتلِ في الجبهةِ المحتدمةِ، أو الاعتقال في حالة انكشاف أمري، أبتهج في طريق عودتي بإجازتي الشهرية،

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

سبعة أيام من الحياة، أنزل سلالم عربة القطار وجه الفجر في محطة الديوانية، ومنها إلى بيتنا في العصري، تفتحين الباب أفرد ذراعي وأعانقكِ، تحضنينني بلهفةٍ مرددةً بصوتكِ العَذِبْ:

- الحمد لله على سلامتك يمه سلومي.. الحمد لله!

تردين الباب، تقفين مطلية بفضة فجر الله، ترفعين ذراعيك وتنظرين إلى السماء ضارعة، ترددين دعاء السلامة، تسحبينني إلى الهول، تجلسينني جوارك، تتلمسين بأصابعك الناحلة تقاطيع وجهي، يديَّ، تشمينني مع كل عناق فتنهد قواي غارقةً في فيض مشاعرك، أضع رأسي في حضنك وأغفو لدقائق متمنياً دوام تلك اللحظة إلى الأبد، تمدّني أصابعك الكريمة بالقوة والعزم وتذهب عني عناء يوم الجبهة المتعب، فأنهض جديداً، أُقبلُ على الحياة عابثاً ناهلاً منها بجلسات خمر مع صحبة يشبهوني من منتصف الظهيرة حتى آخر الليل، أشرب كعطشانٍ لا يرويه شيء ولا تطيح به الخمرة. كان الواقع صلباً والمخاطر المحيطة متزاحمةً تكاد تنقض عليّ في الأمكنة والأوقات كلها، في الجبهة والبيت والشارع، فيبقى الرأس متوثباً في أقصى اليقظة لا يرخيه سوى "عرق المسيّح"العراقي، كنت أزورك كل صباح لألبث غافياً في حضنك لدقائق فأشعر بالأمان، أما بقية الإجازة فأقضيها سكراً كأنها أيامي الأخيرة.

في غمرة تلك الأيام المتوترة الخاطفة، وجدتُ أخي "عادل"الذي يصغرني بثلاثة عشر عاماً يقترب مني، ويصحبني في تجوالي بين أصدقائي، انتبهتُ إلى شخصيته المقتربة من النضج، كان في الخامس الإعدادي، في يومٍ قرع بابي مبكراً فخرجنا معاً إلى المدينة، أفطرنا باقلاء وبيض في محلٍ جوار بناية البلدية، شربنا الشاي في مقهى قريب، زرنا أقرباء لنا في

منشورات «الفيـاء» AlFyaa»

بيوتهم، وتسكعنا في سوق التجار، نظرت إلى ساعتي وقلت:

- عندي موعد بالمصايف!

كنا على سلالم الجسر المعلق، رأيته متردداً لا يريد الذهاب فقلتُ له:

- إذا يعجبك تعال معي!

- أي!

نطقها بسرور ووجه باسم، جلس جواري، بدأنا نحتسي كؤوس البيرة على مهلٍ ونتبادل ما رأيناه في الجبهة من أهوال، الجميع جنود في إجازة من قواطع مختلفة تمتد على طوال الحدود العراقية الإيرانية، لاحظته يرمق كؤوسنا بعينين مشتهيتين، فسألتهُ:

- تشربْ؟

تضرجت وجنتاه وأرتبك رافضاً في بادئ الأمر، لكنه استدرك على الفور قائلاً بصوت منخفض بالكاد سمعته:

- قنينة واحدة!

طرب قلبي وفرحت جداً، وطمحتُ به نديماً في قادم الأيام بعد أن فقدتُ "كفاح"، قضينا وقتاً ممتعاً، لم يكتفِ بواحدة، ولم نكف عن الضحك والنكات من باب المصايف حتى دائرة التسجيل العقاري جوار محكمة الديوانية وقتها حيث تعمل "ناهدة"التي ما أن وقع نظرها علينا حتى سحبتني جانبا ولامتني قائلةً:

- سلام.. سلام.. مشَرَّبْ "عادل".. ليش؟

منشورات «الفياء» AlFyaa«

زادَ لومها من صخب ضحكنا، كنا مبتهجين من صفحة صداقة فُتِحَتْ للتو بين أخوين، من ناحيتي تُعيد لي أيامي مع "كفاح"الذي ابلغوا والدي في تلك الأيام بإعدامه شفوياً، أوصلته حتى باب بيت العصري.

في الصبيحة التالية قُرِعَتْ باب بيتي في "حي النهضة"فتحتها فانذهلتُ، كنتِ تقفين يا أمي بقامتكِ الطويلة الممشوقة وقسماتكِ الصارمةِ، حدقتُ بكِ بدهشةٍ فهذه أول مرة تقفين على عتبةٍ بيتي، وجدتني أهتف مكررا العبارة بسرور:

- أهلا يمه.. أهلا!

عبرتِ العتبة، تعانقنا، دخلنا صالة البيت، جلستِ في مواجهتي، كنا لوحدنا فناهدة في العمل، هممتُ بتحضيرِ الشاي، رفضتِ لضيق الوقت ولمشاغل تنتظركِ، فسادَ صمتٌ متوترٌ بيننا وكأننا غرباء وليس أماً وابناً إلى أن سمعت جملتك واضحة مفعمةَ:

- ليش يمه؟

- شكو يمه؟

- أمس مَشْرّبْ أخوك "عادل"!

- ...

- أسمع يمه.. أسمع ذاك أخوك (تقصد كفاح) راح، وأنتَ، وهنا شهرتِ سبابتكِ المهتزة نحوي قائلة بصوتٍ موشكٍ على البكاءِ:

- وأنت هَمْ رايح!

منشورات «الفياء» «AlIYaa»

لحظتها صعقتُ من أصبعكِ الراجف المؤشر وقولكِ، لكن بعد قرابة أكثر من ثلاثين عاما أدركت عمق رؤياكِ، فانا فعلاً ضعتُ ورحتُ عليكِ، بعد صمتٍ طويلٍ جعلني أدرك هول ما تريدين قوله:

- يمه أخوتك "عادل"و "علي"أتركهم!

لم أفهم كيف يترك الأخ أخاه، لم أفهم فأنا من ربيتهما حقا، سألتكِ ببلاهة:

- ما أفهمتْ يمه!

قلتِ كمن ينحت حجراً:

- ما أريدْ إدْليهُمْ على دَرْبُكمْ، والشربْ هو البداية!

- ...

- هذوله حصتي!

أزداد الأمر إبهاماً عليّ، هممتُ بسؤالك لكنك أردفتِ ما وضح الأمر برمتهِ:

- أريدهم يدفنوني!

وهذا ما كان!

"علية عبود"ما أبعد رؤياك!

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الفصل الثلاثون

من قطيعة إلى صداقة عميقة

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

أول ما فكرتُ بهِ في اليوم التالي لوصولي هو قطع المسافة التي كنت أقطعها كل يوم في طفولتي من بيت "العصري"حتى الجسر الرابط بين شارع علاوي الحنطة القديم وشارع الأطباء حيث دكان حلاقة عمي، هذه المسافة التي رأيت فيها العجيب الغريب في سنيّ طفولتي البعيدة.

كنتُ أهيئ نفسي للخروج مع هبوطِ الظلام تحاشياً لزحمة المعارف والجيران الذين فارقتهم خمسة وعشرين عاماً، ارتديتُ قميصاً وسروالاً واستلقيت في سرير ابن أخي الصغير الذي أحتلّ موقع سريري القديم. أنظر إلى سقف الغرفة متأملا لحظتي الراهنة وأنا على وشك تحقيق حلمي بالسير على تراب نشأتي وقطع المسافة التي طالما حلمتُ بها خطوةً خطوة في سنين الثورة المسلحة بالجبال، والتشرد بين معسكرات اللجوء بدول الجوار، وفي محطتي الأخيرة؛ منفاي الدنماركي ، فحضر بشدةٍ وإلحاح عمي بقامته المتوسطة وعينيه الضاحكتين اللامعتين وقسماته المنحوتة بأصابع ربٍ محبٍ، متناسقة تطوف وتتأرجح على حافةِ الضحكةِ وهو يتحضر لرواية نكتة جديدة لمن حوله في المحل أو الشارع أو البيت.

أشّدَ ما كان يثير عجبي تشوهها وتحولها إلى قسماتٍ مخيفةٍ ما أن يغضب من تصرف غير مقصود مني، هذا ما كان يحدث عدة مرات في يوم العمل الطويل، فأنزعج من رد فعله العنيف الذي يُذْهِبُ سلام نظرته ويُقسي قسماته أكثر، ومن كفه الثقيل وهو يصفعني بعد جمل التأنيب، إذ أشعر به متضايقاً من وجودي، فأتساءل مع نفسي:

- هل يمقتني إلى هذا الحد!

منشورات «الفياء» «AlfYaa»

مما دفعني إلى تلك الثورة العارمة التي خلصتني منه ومن عائلتي في أول مراهقتي فَسبتُ متشرداً في أسواق المدينة ومقاهيها وبساتينها وحقولها وأزقتها لِأُكمِلَ شهادة فسقي المبكر بتفوقٍ تامٍ.

في الفترة المحصورة ما بين ثورتي على "عمي"و "عائلتي"من أول المراهقة وحتى بواكير وعيي السياسي والثقافي ودخولي معترك الصراع مع السلطة انغمرتُ في حياةِ الشارعِ والسوقِ، جربتُ كل شيء، كل ما لا يخطر على بال عائلتي المتحفظة بقيمها الصارمة، فتحاشيتُ الاحتكاك بأعمامي وأخوالي، لم أعد ألتقي بهم إلا في الأعياد والمناسبات كموتِ أو عرسِ قريب، وحتى في هذه المحافل كنتُ أبتعد عنهم مشمئزاً، ثائراً على كل شيء في الحياة، لم تستمر هذه الفترة طويلاً، إذ أخرجني منها تشكل عفوي لمجموعة من شباب المحلة وزملاء المدرسة مدلهين بالقراءة وجمع الكتب وتبادلها فأدمنتُ القراءة، صارتْ أوقاتنا غزيرة صاخبة خففت من غليان شهواتنا الجنسية الهائجة، إذ القتْ بنا في عوالم غير العالم الواقعي الصلب، عوالم تضج بالحياة والجمال والشخصيات والأحداث والمعاني أنستنا قليلاً ضغط الكبت والحرمان. انغمرنا في عالم الكتب والروايات والحكايات إلى أن رمى "جاسم الصايغ"الذي يكبرني بسنواتٍ سبع شباكهُ فكسبني إلى خليةٍ شيوعيةٍ فَغّيرَ مجرى حياتي كلها، اعتقلنا معاً، وأُطلِقَ سراحنا فوجدتُ نفسي في موضعٍ لم أكن أحلمُ بهِ، إذ تَوَجَهَتْ أنظار المدينة كلها نحوي وكأنني بطلٌ من أبطالِ الأساطير، وفي حقيقة الأمر خرجتُ مكسوراً ذليلاً مرعوباً، فقد ضُرِبتُ بقسوةٍ وتلقيت أبذأ الكلام، شتم وفشار، لكن شدة الضوء الذي وجدتني فيه وَارى شعور

منشورات «الفيا» AlfYaa«

الخذلان ليحل محله شعورٌ بالفخرِ سيذيقني لاحقاً مرَّ العذاب في تجارب رحلتي الصعبةِ التي أفضتْ بيّ غريباً أجاور قطب الأرض الشمالي، معطوبَ الجسدِ، أعالجُ بؤسَ وحدتي في الكتابةِ التي تزيدني ألماً واغتراباً وتُمعنْ في انفصالي عن المحيطِ.

نهضتُ من السريرِ. اقتربتُ من النافذةِ المطلةِ على الحديقةِ. أَزحتُ حافة الستارة فبانتْ صفحة السماء العالية شاحبة. عدتُ إلى السرير واستلقيتُ منتظراً نزول المساء.

انقلبتْ علاقتي بعمي من علاقةٍ متشنجةٍ أفضتْ إلى ثورة إلى صداقةٍ عميقةٍ فيها محبة وود أمحى كل شيء وكأننا وقعنا على سرِ رابطنا المفقود، فعقبَ ثورتي وقياد أبي من دكان نجارتهِ حتى محله، وبالرغم من اعتذاري وتقبيلي كفيه ظلتْ تلاحقني نظراتهُ المخذولة من أبن أخٍ رباه وَعدَهُ ولده منذ الرابعة من عمره، بثُ أشعر بالعارِ من كُل كلمةٍ نابيةٍ قلتها بحقهِ في لحظةِ جنونٍ، مشاعر الخجل والخزي تعاظمتْ مع توهجْ وعيي ودخولي المبكر إلى الوسط الأدبي في الديوانية، حتى أنني لم أفضِ لأحدٍ بتلكَ الواقعةِ، بل بالعكسِ أخفيتها وكأنها لم تحدثْ.

في إحدى زيارات صديقي الشاعر "عزيز السماوي"للديوانية أوائل سبعينيات القرن المنصرم، الذي كان يشعل الوسط الثقافي والاجتماعي بحيويته المشعة، سألني عن سبب عدم ذهابي معهم إلى جلسات نادي الموظفين، فأخبرته أن زوج أختي الكبيرة "حازم مرتضى"يعمل مراقباً للنادي وهو سريع الغضب مكلف من العائلة بمراقبتي، كانت ليلة من ليالي صيف الديوانية الساحر، فحثني قائلا بأنه يعرفه عائلياً وكانا معاً في السجن لكنني تحرجتْ فبحثَ الأمر مع الصحبة وأقترح أن نتأخر إلى

منشورات «الفيـاء» «AlfYaa»

حين إيابه إلى بيته فقمنا أنا والشاعر "علي الشباني"بنزهة تسكع ثم التحقنا بالجلسة، وزيادة في الاحتياط تشاركتُ و "علي"بالكأس نفسه نحتسيه بالتناوبِ، كنا نسهر حتى ساعة إغلاق النادي فيتوافد العديد من الرواد والمثقفين لتحية "السماوي".

في ذلك اليوم أحاطَ بجلستنا جمعٌ من أصدقاء "عزيز"القدامى كان بصحبتهم "عمي خليل"الذي أرتبك حال رؤيتي وحاول التواري خلف قامة أحدهم، تابعتهُ بلا مبالاة فرأيتهُ ينسحب متجهاً نحو باب النادي الخارجي فحمدتُ السماء في سري لكن بعد نصف ساعة أقبل زوج أختي مسرعاً بما يشبه الهرولة نحو طاولتنا المتطرفة وخلفه بأمتار يسير "عمي"على مهلٍ، توقف ودون أن يلقي التحية أربد وأزبد مؤشراً نحوي لائماً من يشجعني وأنا بهذا السن على الجلوس في النوادي وشرب الخمرة مع رجالٍ كبار، كان مثل مجنون، سيروي لي لاحقاً بأن "خليل"وهما أولاد خالة ضخّم القصة بأسلوبٍ ورثته عنه وأتقنته في الكتابة، فأعمى بصيرته و "عمي"نفسه لم يتأنَ ليعرف مع من أجلس فرؤيتي في النادي مع رجالٍ يكبرونني بأكثر من عشرة أعوام أعماه هو الآخر وأغضبه لكنه لا يستطيع التدخل خشيةً من ثورتي التي ذاق نارها الكاوية وطعمها المرّ فهرع إلى بيت أختي القريب وأخبر "حازم".

احتدم الحوار وتحول إلى مشادة بينه وبين "عزيز"فانسحبت بصحبة "علي الشباني"سامعين صديقنا يخطب بصوته الجهوري وقامته الطويلة وكتلته الهرقلية:

- أنت تعرف و يا من تحچى ويه "عزيز السماوي"

منشورات «الفيـاء» AlFyaa

في اليوم التالي سينفرد بي "عزيز"في مقهى ليخبرني بما صار بعدنا، اعتذر "حازم"ورجع إلى بيته بينما أكمل "عمي"السهرة معهم، وختم عزيز بسخريته المعهودة:

- عمك شرب العرگ مالكمْ هههههه! بس شبّعنه ضحك بنكاته.

هدأت سورة ضحكنا التي ضجتْ المقهى، ربت على كتفي قائلاً:

- "سلام"ما كنت أعرف أنتَ من هذي العائلة المناضلة، أمك رابطية نشطة زمن عبد الكريم قاسم، وأختك الكبيرة "ساجدة"عضوة بالحزب، أبوك "عبد سوادي"من أقدم شيوعي الديوانية، وعمك "موسى"نقابي معروف، هو وخليل كانا معي بموقف "حي العصري"بثلاثة وستين وعمك "عيسى"هَتّاف التظاهرات، وبن عمتك "سعد عبد الباقي"زوج أختك الكبيرة كّنا بخلية واحدة، وزوج أختك الثانية اللي هوس جلسة البارحة "حازم مرتضى"عسكري شيوعي مطرود قضى سنتين بـ "نقرة السلمان"ابن مناضلة رابطيه شهيرة "أم حمد الله"، و "حمد الله مرتضى"مناضل عريق صار عضو لجنة مركزية. أفتخر بعائلتك وسعيد بك صديق حياة وأدب وموقف.

كنا نجلس في زاويةٍ من مقهى البلدية التي لم أجدها في عودتي بواجهتيها الزجاجيتين على شارعي البلدية وبائعي الخمور. صمت "عزيز"شارداً فاجتاحني ضجيج الرواد المبهم فيما كنتُ أركز في قسمات وجهه جانبياً، جبهة منحوتة بتناسق مذهل ترسو على حاجب كثيف غير معتنى به، شعره الطويل الفاحم غير المرتب، عين واسعة كمشحوف منحدر في تيه هور،

منشورات «الفيل» AlfYaa

وجنة مكورة كأمٍ تحنو على وليدها، أنف بارتفاع منسجم مع تضاريس الوجه يهبط على نصف شفة محتدمة بالرغم من إطباقها في شروده وهو يحملق في سماء شديدة الزرقة تبدو من نافذة المقهى الزجاجية. انتفض كنائم يستيقظ والتفت نحوي بعينين حزينتين توهجتا بعد لحظات ليقول بصوتٍ أقترب من الصراخ:

- تعرف عمك "خليل"إنسان عظيم!

أربكتني جملته وأثارت لدي دهشةً ممزوجةً بالفرحِ والفخرِ، فرددت مع نفسي بغبطة:

- شاعر كبير يكني "عمّي"بالعظمة!

لزمتُ الصمت منتظراً فأردفَ بسؤال:

- تعرف ليش؟

- ...!

- تعرض لموقفْ مهولْ شِفْته بعيني!

لم أفهم شيئاً، ولا أستطيع حثه على التوضيح، وقتها كان ضمن آلهتي الثقافية التي نهضت بيّ من حضيض "العصري"إلى جحيم الوعي.

نفض رأسه مرة أخرى وسوى شعره الطويل بأصابعه، وارتسم على قسماته وفي عمق عينيه فزعٌ وكأنه يرى مشهداً حياً تلك اللحظة:

- أسمع سلام، كانت ليلة فظيعة، بعد 8شباط بثلاثة وستين كنا أنا وعمك "موسى"و "خليل"موقوفين بموقف "العصري"!

منشورات «الفيحاء» «AlFyaa»

أتذكر ذلك بوضوح، فبعد أن هدأت الأمور ولم يعتقلوا والدي وأمي وأختي الكبيرة، أخذتني أمي في صبيحة شتوية باردة معها إلى موقف "العصري"حاملين أواني طعامٍ طبختـه لعمي، كان طابور المواجهين المنتظرين طويلاً ووجوه شرطة السجن القرويين الغاضبة ينعتون الموقوفين بنابي الكلام، كان عمري تسع سنوات وكنتُ مبتلاً أرتجف برداً ولا أستطيع وضع الأواني على الأرض الموحلة من أمطارٍ لم تتوقف منذ الليلة الماضية.

أخذ نفساً عميقاً ثم أطلق حسرة وقال بنبرة صوته العميقة:

- تعرف إشْ سَوْوْ "الحرس القومي"بعمك خليل؟

نفث حسرة أخرى، كرر نفضة رأسه وأردف مغمض العينين:

- شيء يا سلام يفوق طاقة تحمل إنسان بسيط محب للنكتة والحياة!

قطع الكلام وراح ينهج كمخنوقٍ ضاعَ عليه الهواء، فاستعجلته:

- أش صار؟

أحتل الرعب ملامح "عزيز"وصوته فبدتْ عيناه وهو يحملق نحوي جاحظتين جزعتين تريان ما كان يَقصّهُ في مشهدٍ حي:

- بعد منتصف الليل أجتْ شلة منهم إلى الموقف، دخلوا بضجيج، وتوزعوا في باحة السجن الوسطية، وصاحوا: نهوض.. نهوض شيوعيين خونة نهوض، وواحد منهم طلع ورقة من جيبه وصرخ: كل اللي يسمع أسمه يطلع!

قطع استرساله وسألني:

منشورات «الفيـاء» AlfYaa

- شَايفْ موقف "العصري"؟

- نعم، متوقف بهِ مرتين!

كان عبارة عن بناية عالية الجدران جداً، من الآجر المتين صماء دون نوافذ، يتطرف جانبها الأيسر بوابة حديدية عالية مغلقة على الدوام، في أركانه الأرضية وعلى سطحه نقاط حراسة يقف فيها مسلحون على مدار الساعة، وخلف البوابة مدخل عريض وغرف الإدارة، ثم باحة مبلطة فسيحة تسورها الردهات من أربعة جوانب بأبوابها الحديدية، المشبكة، المتينة، الواطئة، الردهات طولية معتمة من الداخل لا نوافذ فيها، مثل إسطبل خيول محشورة بالموقوفين المتزاحمين خلف قضبان الأبواب، وهو محطة يحل بها السجين عقب التحقيق في دوائر الأمن والشرطة بانتظار موعد المحاكمة أو محكوم ينتظر نقله إلى السجون الدائمة في "الحلة"أو "نقرة السلمان"، مكان تاريخي حلَّ فيه طوال تاريخه مئات الآلاف من السجناء السياسيين والعاديين، وبدلاً من تحويله إلى متحف وشاهد تاريخي على فترات حكم السلطات الجائرة، فلشه الفقراء ساكني أطراف المدينة عقب الاحتلال الأمريكي 2003وسرقوا آجره.

أكمل مصوراً المشهد بطريقته الآسرة فجعلني أعيشه كأنني أقف جواره خلف قضبان الباب:

- بدأ قائد المجموعة بقراءة الأسماء، وكانَ "عمك خليل"من ضمنهم، كنا ننظر من خلف أبواب الردهات، مسلحو الحرس القومي بملابسهم الخاكية ورشاشات "بور سعيد"المصرية يوثقون أيدي عشرة موقوفين ويعصبون عيونهم بخرق سوداء، أجساد رفاقنا أخذ بعضها يرتعش تحت مصابيح الباحة الخافتة.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

تابعت "عمك"كان الثاني من اليسار لصقَ الجدار يرتجف مثل سعفة في مهب ريح، تعمدوا السكوت وقتاً طويلاً مما زادنا وزاد الموثوقين رعباً إلى أن صدرت ضجة من مدخل السجن، فظهر مسلحٌ أخر طويل القامة توسط الباحة وأخرج ورقة صغيرة سلط عليها ضوء بطارية يدوية وبدأ يقرأ قرار حكمٍ بإعدام المجموعة رمياً بالرصاص، فانهار بعض السجناء ساقطا على البلاط البارد، والبعض راح يصرخ باكياً طالباً الرحمة، أوسعوهم ضرباً بأعقاب البنادق:

- بلا كلام شيوعيين خونة.. بلا كلام!

صفوهم من جديد فالتصقوا ببعضٍ، بينما صدر من آمر الفصيل أمر الرمي، سُحِبَتْ الأقسام وصوبت البنادق ومع صوت الرصاص الخُلَّبْ تداعى صف السجناء مثل بناءٍ قديم أسفل الجدار، صارخين باكين، أصيب بعضهم بالإسهال وأغمى على البعض الأخر، ومن تماسك راح يتحسس بصمت جسده، ومن داخل الردهات تعالى الصراخ والبكاء والهتافات المتقطعة، وسط قهقهة المسلحين السكارى الذي أعدوا هذه المسرحية المرعبة ليستمتعوا، ضحك لا أنسى وقعه يا سلام، ضحك كشف لي منذ تلك اللحظة مقدار ما يكنه رجال البعث من استهانة واستهتار بالعراقي وبالبشر وبالوجود.

الرواية فسرت لي الكثير من شخصية "عمي"وطبيعتها، إذ فتحت عيني على نكتهِ وقصصهِ الطريفة فهو خالق نكات وحكاية ينسجها بطريقة ساخرة فيها إبداع، لقطتُ منهُ هذه الطبيعة فعدت أحور وأزيد أو أحذف في الأحداث التي تحدث أمامي أو أسمعها بطريقة تخدم غرضي من الحكي وحسب طبيعة السامع، فاكتشفت أمي ذلك، فحذرتني قائلة:

منشورات «الفيا» AlfYaa«

- يمه لا تصير مثل عمك خليل!

أمي ربته صغيراً، سألتها:

- أش بيه عمي؟

- بصغره كانْ أكبرْ چَذابْ، وما فد يومْ رجعْ من دكان أبوكْ وسولفْ قصة صحيحة، يگلبها ويزودْ ويحورْ، فصرتْ لمنْ يگولْ الشطْ زايدْ أگول ويه نفسي معناه ناقص!

هذه المخيلة المتقدة قد تكون سبباً جوهرياً في تشكيل شخصيته وشيوعها في الديوانية كأبرع منكت، وخالق النكت من أكثر البشر تعلقاً بالحياة.

ما رواه "عزيز"جعلَ "عمي"يتحاشى العمل السياسي بقية عمره، محولاً ومطوراً همه السياسي إلى نكتٍ ذكيةٍ تعّرض بالوضعِ القائم لكنها تجلب الضحك والبهجة لخفتها حتى بالنسبة لرجالِ السلطةِ، فمن النكت التي شاعت زمن الحصار عن مسؤول منظمة حزب البعث في الديوانية يحلق لديه أهداه قنينة ويسكي، رتبَ عليها نكتةً سرتْ في اليومِ التالي في المدينة سريان الهشيم؛ عن استيقاظه صباحاً، وسؤال زوجته "أم مازن"مستغربةً:

- ما تگلي منين جايب المشروب مال البارحة؟

فسألها:

- ليش أش صار؟

- سودنتني الليل كله تهوس!

"هلهوله للبعث الصامد... هلوله للبعث الصامد"

منشورات «الفياء» «AlfYaa»

النكتة فيها تعرض وغمز واضح للخوف الذي زرعه قمع السلطة وحزبها بقلوب الناس في اليقظة والمنام، فبعث المسؤول بطلبه ليسمعها منه بمقر البعث، فرواها له فسقط على الأرض من الضحكِ.

أتذكر حينما أُطلق سراحه من موقف "حي العصري"وعاود فتح محل حلاقته، بعث بطلبي، وأول ما كلفني به هو الذهاب إلى محل الخطاط "جبار التقدم"والإتيان بـه فـوراً مـع عـدة أصباغه، فحمل حقيبته القماشية وجاء معي، طلب منه الاقتراب ووشوش في إذنه كلاماً لم أسمعه، فاشتعل فضـولي، فـرش الأصباغ والمحاليل على الرصيف تحت واجهة المحل الزجاجية وبقطعة قماش نقعها في محلول أبيض أنهمك في مسح أسم المحل الذي كان "حلاقة الجمهورية"بالرغم من أن الاسم لا يدل على شيء محدد عدا النظام الجمهوري الذي يؤمن به البعث أيضاً إلا أنه لارتباطه بعبد الكريم قاسم تخلصَ منهُ، العملية مثل لغزٍ بالنسبة لي وقتها، انتظرت بلهفة وأنا أساعد الخطاط في مناولته الأدوات البعيدة عنه، ما خطه بلونٍ أخضر غير الأحمر القديم، تتبعت الفرشاة المارة برشاقة على الزجاج الشفاف إلى أن أتم الاسم الجديد "حلاقة العروبة"، لم يستمر هذا الاسم طويلاً، ففي تشرين من نفس العام 1963أطاح "عبد السلام عارف"بالبعث بانقلاب عسكري وحلَّ الحرس القومي فابتهجتْ النـاس، فأرسـلني مـرة أخـرى إلى الخطـاط نفسـه فمسـح "العروبـة"وسـط بهجـة عمـي والخطـاط وأصـحاب الـدكاكين المجاورة ليخط بدلا عنها بلون أسود بارز "حلاقة خليل"سيبقى هذا الاسم حتى تقاعده عن العمل، من يومها تمسك باسمه دون ميل أو دوران مطوراً موهبة خلق النكتة في شـقي الجنـس

منشورات «الفياء «AlFyaa

والسياسة التي وظفها كمادة لنكت خفيفة تضحك الجميع ولا تجلب الضرر، كما أنزل صورة "الزعيم"الكبيرة المحتلة الجدار المقابل للشارع وعلق محلها صورة فوتوغرافية كبيرة محاطة بإطار مذّهب وخلف زجاجة شفافة منظر بقى راسخاً بذاكرتي، ساحة واسعة وسط "بودابست"عاصمة هنغاريا التي طالما حلمتُ بالتمشي على أرصفتها وفعلت ذلك بعد أكثر من خمسين عاماً.

في ذروة تحالف البعث والشيوعي بجبهة وطنية حنَّ لأيام نضاله القديمة بصفوف الحزب الشيوعي، فسألني مرةً حينما مررتُ للسلام عليه عن الوضع ومستقبل الجبهة وهو منهمك في حلاقتي، فقلت له:

- عمي راح تخرب بوقت قصير، أنت مو تعرف البعثيين زين!

توقف وهو يطقطق بمقصه ونظر إلى وجهي في المرآة وبدا شارد النظرات غاطساً في أفكاره، حزرت ما يشغل باله فأكملت بلهجةٍ واثقةٍ وحاسمةٍ:

- خاف عندك نيه ترجع للحزب، لا تسويها، تره ما ينعرف أشوكت يشنون حملة على الشيوعيين!

- هيچ أتشوف.. أهاااااا!

وقتها كنتُ أدرس في بغداد، وأزور المدينة في نهاية الأسبوع فأحلُّ بمحله نتجاذب أطراف الحديث ويسمعني أحدث نكتة، في مرة وكنت على عجل أستوقفني ليروي لي جديده، وقبل أن أواصل طريقي وأنا غارقٌ في الضحكِ رأيت من على الرصيف صورة صغيرة بالأسود والأبيض بإطار مذهب معلقة تحتل

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

مكان صورة "عبد الكريم قاسم"الكبيرة في واجهة المحل، يقف فيها صدام حسين و كاسترو بوضعِ الاستعدادِ في مطار "المثنى"يستمعان إلى الجوق الموسيقى يعزف في زيارة "كاسترو"الوحيدة للعراق فانفجرتُ ضاحكا وعلقت:

- شنو هاي عمي وين لگيتها!

أقترب مني متلفتاً وسط زحام المارة على الرصيف وهمس وهو يبسط كفيه ويحركهما مثل كفتي ميزان:

- عمي شي يشيل شي!

لم تترك ليّ الحياة فسحةً لتعميق علاقتي التي توهجت به، إذ باشرت الأجهزة الأمنية بحملة اعتقالات للشيوعيين لتبعيث المجتمع والقضاء على الأصوات المختلفة والتهيؤ للحرب، اعتقلتُ فيها مرات متقاربة متكررة فأمسيت أعيش كالمتخفي، لا أظهر في المقاهي إلا لفترة وجيزة، ثم أستبدلنا المقاهي بغرف البيوت، نلتقي فيها ونتزاور بعد حلول الظلام. بالرغم من تلك الظروف تزوجت بعد إعلان الحرب بعام، صار لدينا طفل ما أن بلغ شهره السادس حتى ساقوني جندياً إلى الجبهة، لفتني دوامة رعبٍ جعلتني أعيش متنقلاً من كابوسٍ إلى كابوسٍ، مهدداً بين موتٍ في حربٍ طاحنةٍ لا تعنيني، وموتٍ في زنزانة مظلمة في حالة كشف ارتباطي في حلقات يسار تشكلت سراً وراحت تبحث عن صلة بالحزب الشيوعي الذي أنتقل للعمل السري في المدن والمسلح في الجبل. أيام كنت فيها كمن يمشي على الصراط المستقيم فأقل زلة تنعدم كينونتي. فانغمرت في أيام الإجازة السبع في الخمرة، أشرب من الضحى حتى ساعة متأخرة من الليل، أمزح وأرقص وأبكي ولا أفكر فليس ثمة أفق،

منشورات «الألفياء» «AlYaa»

وسلسلة الاعتقالات والإعدامات طالت عدداً كبيراً من أصدقائي سواء من وقع تعهداً وأعتزل العمل السياسي، أو من أختفى، في تلك الأيام الرمادية القاحلة اقترحتْ "ناهدة"لكسر دوامة الشرب أيام الإجازة، كان ذلك في شهر رمضان قائلةً:

- سلومي اليوم بلا شرب!

- والبديل شنو حبي؟

- نطلع بجولة طويلة مثل ما كنا نفعل أيام العلاقة، ندور في شوارع العروبة حتى ساعة متأخرة نسولف ونعيد أيامنا!

وجدتها فكرة معقولة، ومحاولة باسلة للتوازن، مع هبوط الشمس غادرنا بيتنا المستأجر، اخترقنا المدينة من حافة سوق خضارها المكتظ متوجهين إلى شوارع العروبة مرتع ذكريات حبنا الأولى، فتلبسني شعورٌ غريبٌ كأنني عدتُ إلى تلك الأيام دون حربٍ دون قمعٍ، وجنبي تسير الحبيبة كفراشةٍ، لا أتذكر ما كنا نتحدث وأي أحلام خضنا غمارها، لكن أستطيع لحظة الكتابة تحسس مبلغ غبطتنا بتلك الجولة والشوارع خالية وقت العشاء.

بلغنا حافة الحقول، فتوقفت ناهدة وقالت:

- سلام بيت عمك "خليل"مو هنا؟

- أي هنا قريب

- خلي نزوره ونشبع ضحك!

راقت ليّ الفكرة، قرعت جرس الباب ففتحه أحد أولاده، وصرخ:

منشورات «الفيــاء» «AlFyaa»

- بابا أجه سلام وزوجته!

فهبّ من غرفة الاستقبال مرحباً، تلكأت جوار باب الغرفة بعد أن نزعت حذائي أحملقُ بعينين مدهوشتين بزوجة عمي وبناتها والأطفال مرتدين وزرات بيضاء ويقفون مثل ملائكة على سجادات صلاة صفت على طول الغرفة، منشغلين بالبسملة والركوع والسجود، التفت إلى عمي فوجدته ينظر نحوي بعينين في طرفيهما بسمة خفيفة وسخرية، سألته:

- هاي شني عمي؟

فأجاب ضاحكاً:

- ما تدري عدنه جامع بالبيت!

اختنقتُ بضحكتي فأضاف:

- أدخل أخذلك چم ركعة!

فانفجرنا بضحكٍ عاصفٍ. بعد التحية والسؤال عن الأحوال، نهض من جواري، دخل المطبخ، ليظهر بعد دقائق ويقف بزاوية حيث أراه دون "ناهدة"، أشّرَ كي أذهب إليه، خطفتُ خطوي فقادني من يدي إلى كاونتر المطبخ الطويل مصفوفة عليه القدور وعلب البهارات والصحون والأقداح. رفع غطاء قدرٍ كبير وأشار إلى كأسي عرق مسيح عراقي بلونه الحليبي الساحر ونظر نحوي ضاحكاً وقال يحثني:

- جرٌّ عمي.. جرٌّ!

لم أتماك نفسي انفجرتُ بضحكةٍ عاصفةٍ طويلةٍ حتى تهالكت جالساً على ركبتي، فنظر نحوي مندهشاً يردد:

«AlYaa منشورات «الفـياء

- هاي اش بيك سلام!

زاد سؤاله من نوبة ضحكي، فرشف رشفتين وملعقتي لبنٍ في انتظار هدوئي، نهضت مستندا على كفيَّ وقلت لـه بصـوت خافت:

- عمي مو اليوم مواعد ناهدة ما أشرب!

نظر نحوي بسخرية وسحبني حتى حافـة القدر ونـاولني كأسي:

- عمي صارَ لي سنة ما شايفك، يله بصحتك مـا عليـك بالنسوان!.

- عمي.. عمي مو!

قاطعني

- بلا مو ده شرب.. هو أني وين أشوفك وأشرب كـاس وياك.. أشرب!

عببتُ ما بالكأس مرةً واحدةً، رجعنا إلى غرفة الاستقبال فوجـدنا العيـون مصـوبة نحونـا، مـا أن رأيـت عيـنيّ ناهد المتسائلتين حتى تحولت ابتسامتي العريضة إلى قهقهة صاخبة، انفجر على أثرها "عمي"بضحكته السريعة مثل موسيقى تبدأ خفيفة ثم تصعد بسرعة فائقة حتى ذروتها الشبيهة بالصراخ، فراحت تردد:

- هاي شكو.. ها شكو؟!

فيصطخب الضحك، فأخبرتها "أم مازن"الجالسة جوارها:

- شكو.. شَرَّبْ أبن أخوه!

منشورات «الفيـاء» «AlFyaa»

صمتت للحظة وأضافت:

- العم شَرَّبْ ابن أخوه، كُرّت عينه!

مما جعل الجميع يصاب بعدوى الضحك.

هبطَ مساء الديوانية الشفيف الذي حلمتُ بهِ قرابة خمسة وعشرين عاماً في النوم واليقظة، غمرني بحنانهِ حال خروجي إلى الحديقةِ، كانَ الشارعُ ضاجاً، تريثتُ جوار شجرة النارنج التي زرعتها يا أبي، لفحتني رائحة أوراقها ورائحتك مزيج من النارنج ونشارة الخشب وعرق المسيّح العراقي، رائحة عصفت بكياني منذ الطفولة وأهلكتني وجداً في سنوات المنفى، ها هي تهبُ قويةً من فروع الشجرة وأوراقها، من أمكنة جلوسك في هذا الوقت من مساء البيت تحتها تحتسي كؤوس المساء وتمارس طقسك، ستعصف بيّ، تبكيني وتدفعني في أقصى الوجد والأشواق إلى الرقص والصراخ في البيت، في الشارع، على رصيف محطة قطار، ساحة عامة، ساحل بحر، غابة منسية، قمة جبل بعيد.

حزمتُ أمري. سحبتُ الباب الحديدي، غمرني ضجيج مساء العصري، ضجيج طفولتي، ضجيج ذاكرتي، فرميتُ الخطوة الأولى في المسافة من عتبة بيت النشأة حتى رقبة جسر العلاوي، مسافة لم أكن أظن أنها تشكل عصب حياتي ومعناها وموطن حلمها، مسافة تحضرني كل يوم في المنفى، مسافة فيها أصدقاء قضوا في الزنازين والحروب، بنات متُ في عُشقهنَّ مراتٍ، مسافة أقطعها متحاشياً الشوارع العامة كأنني أطوف بين أشباح معارف ووجوه رجال ونسوة، أفياء وشموس، أمطار وعواصف، برد وحر، أطوف بين أزقة ما تبقى من محلة

منشورات «الفيا» «AlfYaa»

"الجديدة".

في المساء ذاك أمسيت واثقاً أن هذه المسافة هي جـوهر وجودي، ما زلت أحلم بقطعها.

عبرتُ الجسر وجوار عمارة عاليـة أُشـيدتْ محـل مقـهى "اللواء"أحاط بيّ جمعٌ من أصـدقاء قـدامى ورجـال جـدد لا أعرفهم، عانقوني وكأنهم يعرفونني، كان صديقي الشاعر "علي الشباني"بقبعته المائلة يُعرّفني عليهم واحداً.. واحداً، وفيما كنت مغموراً بفيض الترحاب، سمعتهُ يقول:

- ها.. سلام!

كمن أستيقظ من نومٍ عميقٍ التفتُ نحوه، كانَ يقف مبتسماً ابتسامة خفيفة مسافة مترين وكأننا تفارقنا بالأمس.

صرخت:

- عميييييييييي

أفردتُ ذراعيَّ مقترباً من وقفته، أخذته إلى صدري، عانقته بشدةٍ، شممته بعمق عاباً من رائحته الأليفة فهو الوحيد الباقي من أخوتكَ، وجدتهُ يا أبي كما هو، تقاعد عن الحلاقة، يرتاد مقهى شُيِّد فوق محله القديم، يُصعَد إليه بسلالم مجاورة كانت سابقاً محل تصليح درجات هوائيـة، ليلعـب "الدنبلـه"مـع أصـدقائه القدامى، ما زال ينسج نكتاً ويرويها، ظَلَّ يزورني كل مساء فيجتمع عدد كبير من الجيران والأصدقاء نستمع إلى نكاتـه المبتكرة ونقضي الليالي في ضحكٍ متواصلٍ، أخبرني أنه حج مكة، وزار مرقد "الرضا"في مشهد، مع ذلك وضعت أمامه كأساً جوار كأسي وَعَمَّرتُ له من قنينة "الريان"، سألني عن

منشورات «الفـ ياء» «AlYaa

مصدره فأخبرته بأني جلبت معي صندوقاً كاملاً من دمشق، تفتحت ملامحه وتبسم، لم يبد اعتراضا، بل علق:

- لا يرد الكريم إلا البخيل!

وبعد ثلاثة كؤوس، ضجَّ البيت بالضحك العاصف على نكاتهِ المتتاليةِ، فمدتْ عمتايّ نعيمة، وسهام رأسيهما من باب الغرفة في اللحظة التي رفعنا فيها الكؤوس فقالتا بصوتٍ واحد موجهاتٍ اللوم ليّ:

- ليش عمه ليش تشْرِّبْ عَمكْ حرامْ عليك مو صارْ حجي!

فأنفجر الحضور بالضحك وعمي يرد:

- ما يحسبه.. ما يحسبه صار لي عشرين سنة ما شايف ابن أخوي!

أخبرني في الأيام التالية بأن بنته "شعوب"فقدتْ زوجها "أحمد"في جبهة الحرب مع إيران، وبنته الكبيرة "انتصار"فقدت زوجها "عادل مهدي"مدير مصرف الرافدين في أحداث انتفاضة أذار 1991أخذه الحرس الجمهوري الذي اجتاح المدينة، ولم يُعْثَر على جثته في المقابر الجماعية. "عمي"نفسه سيق إلى جبهات الحرب في قاطع جيش شعبي. لينعطف عن السرد الجدي الذي لا يجيده ولا يفضله سارداً طريفة تتعلق به عن قيام مجند من حضيرته بأطلاق نار لصيد الطيور، كان ذلك ممنوعا، أسرع أمر القاطع إلى مصدر النار، فاتفقت الحضيرة على إنكار الأمر لكنه في التحقيق الجماعي سأله المحقق عمن أطلق النار، فرفع ذراعه مشيراً إلى الفاعل:

- هذا!

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

وحينما لاموه لاحقاً، هز يده ساخراً وردَّ:

- أنت مخبل حزب أش كبره اعترفت عليه (يقصد الحزب الشيوعي العراقي) أنت ما أعترف عليك!

في أخر زيارة لي قبل رحيله، أسرَّ لي بجملة بليغة تعبر عن شدة محبته للبشر قائلاً:

- عمي ما بقى غيري من الجماعة يضحِّكْ الناس إذا متت أشلون؟

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الفصل الواحد والثلاثون

عمي "موسى سوادي"

منشورات «ألف ياء» «AlifYaa»

هيأت نفسي لزيارة بيت جدي "إبراهيم"الذي كان يجمع أولاده الأربعة وبنتيه في غرف مرتبة بأركان حوش واسع تشهق وسطه شجرة سدر معمرة لطالما صعدتها وتلذذتُ بمذاقِ ثمرها الناضج، البيت صفا لعمي "موسى"الذي كان يصغر أبي بأربعة أعوام، كنتُ أحبه بشدة، إذ ربطتني به علاقة روحية خاصة تجاوزتُ فيها خلافات عائلية حدثت وتحدث على الدوام بين الأخوة في البيت الواحد مع تقدم الأعوام وزحمة الأطفال وتنافس الزوجات، كانت أمي تحثني على زيارته بالرغم من برودة علاقتها به، علمتني حكمة المحبة ودلتني على جذرها المتوهج مُحِيلةً الجحيم الذي مررتُ به إلى فسحة للتأمل والفهم جعلتني أسامح وأحب جميع من حولي من يحبني ومن لا يحبني لا بل حتى الذي كرهني وآذاني.

أخاطبك يا أبي وأنا أراك تخطر حولي في بيتنا تُعّمدْ خطوي وتباركهُ حتى في غيابك، لم استسلم يوماً لا للألم ولا للمغريات ولم أخَف من قول كلمة الحق حتى على نفسي فحرزتُ أعداء كُثر لكنني فزتُ براحة البال ونوم الأطفال، واجهت الموت بجلدٍ ووجهكَ في كل تلك المخاطر يظهر ويحوم حوليّ وأنت تردد:

- لا تذل نفسك أبداً فتعيش معذباً! عش بعزّ ومُتْ بكرامة.

قلتها مرات عديدة وبطرقٍ مختلفةٍ، سأروي لكَ عندما أزور ضريحكَ ما تعرضتُ له وكيف نجوتُ في كل مرةٍ بأعجوبةٍ، الله والأقدار حرستني لأعيش وأكمل رحلة سرد ما رأيته من أهوال وغرائب ومصائب وأشجان وأحزان، فليس لدينا في رحمنا الدامي يا أبي الحبيب غير حروب تولّد حروباً وفواجع تتبعها فواجع.

منشورات «الفيلاء» AlFyaa«

أعّدُ نفسي للذهاب إلى بيت أبيك الذي ولدنا أنا وأنت فيه، جدي الذي لم ألحق به، رحل إلى عالم الأضواء عام 1942كنت أقف على شاهدة قبره، وأكلمه كلما حللتُ في مقبرة السلام. ترككَ بعمرِ الخامسة عشر تعيل عائلة من ثماني نفرات، أكبرهم عمي "موسى"الذي بقى حتى مماته يعيش في البيت نفسه، أرى طيفه الآن حياً يحوم حولي باسماً بنظراته العميقة المُحبةِ، يرمقني بودٍ من عينين زرقاوين واسعتين متناغمتين مع قسماته ولون بشرته الأبيض المضرج بحمرةٍ خفيفةٍ، اليوم سأزور مأواه وأتنفس بقايا رائحته في الكراسي والأسرة والغرف.

قبل الاحتلال الأمريكي للعراق واختفاء الدكتاتور في حفرته بسنتين أتصلَ بيّ تلفونياً القاضي "زهير كاظم عبود"المقيم في السويد وطلب مني كتابة فصل عن عائلتي "آل سوادي"لكتاب يعده عن الديوانية، وَشَجنَ الحديث وتحمسَ قائلاً في معرض الحديث عن أفراد منها:

- في فتوتي لما أصادف عمك "موسى"، أرى فهداً يمشي في الشارع!

كنت أفخر يا أبي بهذه الآراء، فتحضرَ بقوةٍ فأنت من ساهم بصياغته صبياً، عَلمتهُ مثلما علمتني الحِكَمْ والمواقف والعِبَرْ. كرر الوصف بتشديد وحماس فجعلني أنتشى محلقاً من نافذة طائراً فوق الحقول والغابات والبحيرات أرفرفُ بسعادةٍ عميقةٍ، نَقَلتُ انطباع "زهير"إلى "ناهدة"التي كان والدها يحكي لهم عنهُ، وعرّفتها عليهِ في زيارة بعد زواجنا، كان انطباعها مذهلا خرجتْ مثلَ مخدرةٍ، سألتها عما صار بها فقالت:

- هسه عرفت ليش أبوي يحچينه عن عمك بإعجاب!

منشورات «الفيحاء» «AlFyaa»

لكنها أضافت:

- أش دعوة مثل فهد!

أدرك ما يجمع ويفرق بين انطباعيهما؛ فصديقي القاضي لم يخضْ تجربة العيش اليومي المباشر مع قادة الحزب الشيوعي بينما "ناهدة"عاشت في عِز شبابها ولسنوات خمس في تجربة النضال المسلح بالجبال فَعَرِفَتْ الخفايا التي يتم فيها نسج أسطورة الشخصيات القيادية، استنكارها يحمل في طياته بعداً إنسانياً عميقاً كأنها تقول لا مقارنة بين كيانٍ مسالمٍ جميلٍ اعتزلَ العمل السياسي في أحلك الظروف وثوري صَعَدَ حبل المشنقةِ.

لكن ما تفكر فيه "ناهدة"شيء، وما يُقِيم في ذاكرةِ "زهير عبود"أو ذاكرتي شيء آخر.

كان "موسى"رمزاً بالمقاييس الاجتماعية والسياسية والنفسية والروحية وبالتالي السلوكية.

رمز زمنٍ غير هذا!

كيف؟ سأوضح لك وللقارئ، كما أسلفت توفى جدي باكراً فوقعَ ثقل تربية العائلة على عاتق أبي،- فَكدَّ وربى أخوته وأختيه وزوّجهم، كانتْ أمي مساهمةً في بناءِ شخصيات عمومتي. حدثتني يوما عنه قائلة:

- عمك "موسى"صاحب غيرة!

أثارني كلامها فاستفسرت عما تقصده.

فقالت:

- كانتْ بناتْ الجيرانْ يَهَبنه لأنْ اللي تتحرشْ بهِ، واللي

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

يشوفْ سلوكها مو صحيحْ يخبرْ أَهلْها!

كنت وقتها في أوج مراهقتي وأدرك مبغاها من الحديث عن عفاف واستقامة "عمي"إذ أنها كبستني أكثر من مرة أتلصص على الجيران وأرتكب حماقات الرغبة المكبوتة، وأتعلق في كل فترة بواحدة، قلت لها هازلاً:

- خطيه يعني ما حصلْ شيءْ بشبابه!

كنا نجلس لوحدنا في الغرفة المواجهة للحديقة، رمقتني بعينين غاضبتين، وقالت بلهجة شديدة:

- كانَ أشرفْ منكْ وهو من أجملْ شبابْ زمنه يا مْسَلَعْ، يا فاسد!

ما قالته أمي حقيقي، فعمي كان أشقر الشعر أزرق العينين، بياض بشرته مشرب بحمرة خفيفة، برئ القسمات، لم يقرب الخمرة أو التدخين في حياته، مهتم بتربية الطيور والحيوانات الداجنة، وظّلَ هكذا طوال عمره، حتى أنه في سبعينيات القرن المنصرم أفتتح مقهى في "الگرفت"وسط المدينة، فيها أقفاص طيور وأرانب، وببغاوات، وطيور حب، وغيرها. كنت أمرَّ عليه في زيارتي الأسبوعية قادماً من بغداد التي قضيت فيها القسم الأكبر من ذلك العقد في الجامعة والجيش، نجلس ساعة أو أكثر نتبادل حواراً في السياسة، كان يسألني عن أخبار الحزب وينتقد تحالفه مع البعث مرددا:

- عمي البعث ملطخ بدم الشعب وهذا التحالف خَسّرْ "الجماعة"الشارع.

أتفق معه وقتها أعتزلَ العمل السياسي نهائيا وَرَكنَ إلى مقهاه

منشورات «الألفياء» «AlYaa»

وطيوره وحيواناته وروداه من هواة الطيور البسطاء، أقضي لحظات من أمتع ما يكون وأشفها قربه، فأنا مدلـةٌ بـه منذ الطفولة، تعامله معي يختلف عن جميع أفراد أسـرتي، كـان مسالماً لم يضربني بالرغم من شكسي، يميل للحديث بهدوء بطريقة تشعرني بقيمتي، ويميل للدعابةِ والتنكيتِ، ولم أنسَ ما حييت حينما كانت أمي تأخذني معها كل صباح إلى موقف "حي العصري"القريب من بيتنا حاملين أواني الطعام بعد صبيحة 8شباط 1963الدموية، يعبث بشعري ويداعبني بالكلام باسماً في الدقائق القليلة تلك، وقتها لم أكن أدرك التفاصيل، لكن مع تبلور وعيي وبداية اهتمامي بالتاريخ الاجتمـاعي والسياسـي للمدينة عرفت أنه قاد وقت المد اليساري، نقابة عمال الديوانية أيام عبد الكريم قاسم، وكان عضـو محليـة منظمـة الحـزب الشيوعي، والوحيد من بين عمومتي من أستمر في التعليم حتى الثـالث المتوسـط، لكنـه تـرك مقاعد الـدرس ليتفـرغ للعمـل السياسي، هو من أسماني "سلام"على اسم "سلام عادل"الذي سيصبح سكرتير الحزب الشيوعي لاحقاً ويُقتَلَ تحت التعذيب على يد البعثيين"، كان معلماً في مدرسة الهاشمية طُرِدَ من الوظيفة لنشاطه السياسي فسكن في بيت جدي إبراهيم "مختار المدينة"وعمل في مطعم مشويات، أمي مـن أخبرتـني بـذلك فسألتها لِمَ أسماني "عمي"وليس أبي أجابتني قائلةً:

- أبوك كان يشتغل بالكويت!

نضجتُ واندفعتُ بحماس للعمل السياسي وخضت تجارب أشّد عنفاً من تجارب أبي وأعمامي، ففقدتُ فيها أربعة من رجال عائلتي قضوا تحت التعذيب، لتنتهي بيَ الأيام معزولاً في غرفة بشمال الأرض أجلس معلولَ الجسدِ أتأملُ أيامي باحثاً عمن فتحَ

منشورات «الفـياء» AlfYaa«

لي باباً إلى العمل السري ولذته، إلى العناد والنضال فوجدت أن "موسى"من فتحَ عينيَّ على السرِّ.

سأروي لك وللقارئ يا أبي قصتين كانتا باباً سحرياً أدخلاني عالم السياسة وحببا لي العمل السري، كنت لم أتجاوز الثانية عشرة، أسلك أزقة "الجديدة"الضيقة بعد ظهر كل يوم في طريقي إلى محل الحلاقة فأمرّ لأسلمَ على عمي "موسى"في مخزن الحنطة المجاور للجامع والمكون من غرف واسعة فيها الحنطة تلالاً وزاوية فيها مكتبه، كرسي ومنضدة خشبية بأدراج عديدة، لا أجده أحياناً فأنتهز الفرصة للعب بين أكوام الحنطة في انتظار رجوعه طمعاً في العشرة فلوس يوميتي الثابتة، ومع تطوري في القراءة والمعرفة أشتعلَ فضولي فرحتُ أقلب أوراق مكتبه وأبحث في الأدراج وأكتب على أوراق دفاتره بقلم حبره الأنيق ما أشاء من كلمات لكن في مرةٍ وجدتهُ خالياً من الحبر، فقلبت الأدراج بحثاً عن محبرة لم أعثر عليها إلا بعناءٍ، كانت مخبأةً في عمقِ الدرج السفلي، أخرجتها من علبتها الورقية فلمحتُ ورقة صغيرة ملفوفة ومكبوسة تحتها، أفردتها وبدأتُ بقراءة حروفها الصغيرة جداً، تسارع نبضي وارتجفتْ أصابعي، وثمة سحرٍ تملكني، سأتدله لاحقاً بالورق السري وحروفه الناعمة المقدسة أتخيلها معمدةً بأصابعِ عمي، أعدتها على عجلٍ خوفاً، وأدركت أنه يخفي سراً، ومن يومها يا أبي أضحيتُ أراقبه منتظراً خروجه من المخزن، فأسرع إلى المحبرة، أخرج الورق السري وأنزوي بين أكداس الحنطة أقرأ على عجل ما يسمح به الوقت ثم أعيدها إلى مكانها، أول الأمر صَعبَ عليّ الفهم، لكن مع الأيام عرفت أن الكلام المكتوب يحرض على سلطة "عبد الرحمن عارف"والصحيفة اسمها

«AlIYaa منشورات «الألف ياء»

"طريق الشعب"ناطقة بلسان الحزب الشيوعي المحظور الذي سُجن وعُذِّبَ أبي وأعمامي وغالبية أفراد عائلتي من أجله، لم يحس بيّ أبداً، وما أأسف عليه الآن وأنا بهذا العمر بعد نصف قرن هو عدم إخباره بقصة الجريدة والمحبرة، فوقتها لم أصل بعد إلى ناصية تأمل التجربة.

القصة الثانية تعود لنفس الفترة، ربطتني رفقة طفولة قوية ببنته الكبرى التي في سني، نلعب طوال سنوات يومياً في باحة البيت الكبيرة، أتسلق السدرة، أقطف لها النبق، تآلفنا جداً لكن حدث ما أرعبنا وجعلنا ننظر بريبة إلى ما حولنا، كنا نصعد إلى السطح كل صباح لنلعب بصحبة جارنا ابن الخياط، في ذلك الصباح لعبنا لعبة البيت، رتبنا أحجاراً غرفة نوم، حوش، مطبخ، حمام، كنتُ الزوج وهي وجارنا الابن بعثناه إلى السوق ليجلب ما نحتاجه لعمل الغداء وجلسنا ننتظر نحملق بوجهي بعضٍ، كان الجو مشمساً وحاراً، فاقترحتْ النوم إلى حين عودته، نزعنا دشاديشنا الفضاضة، وسعنا حدود غرفة النوم وتوسدنا تراب السطح مقلدين ما نراه كل ليلة على سرير نوم أمنا وأبينا، وفيما كنا متعانقين سمعنا صرخة غضب، قفزنا مذعورين، كانت أمها تعيط وتلطم على صدرها، فهرعتْ بقية زوجات أعمامنا وأطفالهن متزاحمين على السلالم الحجرية المكشوفة، لا زلت أرى المشهد بوضوح كنت بسن الخامسة، أمها تسحبها من ذراعها وتنزل الدرج، تتبعها أختي الكبيرة تسحبني من ذراعي، كنا نحملق نحو بعضٍ، نحو جمهرة الأطفال، وجهي أختي وزوجة عمي مذهولين من الصراخ والاتهامات المتبادلة والوجوه المكفهرة دون أن نفهم شيئاً، ما زلت أتذكر جملتين علقتا بذاكرتي إلى الأبد، زوجة عمي تستنجد

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

وتردد متشنجةً وبصوتٍ عالٍ:

- يا ناس يا عالم "سلام"فَسّدْ بنتي!

فترد أختي بصوتٍ أخف نبرةً:

- بنتك فَسِّدتْ ابننا!

من يومها لم يدعوننا نلعب وحدنا، صرنا تحت الرقابة إلى أن انتقلنا إلى "الحي العصري"، يضربني الشوق بأجنحته الخفية فأتسلل إلى بيت "جدي"بانتظام، نلعبُ معاً في أرجاء البيت الكبير وغرفهِ، كم كنا نبتهج حينما يخلو البيت، وزوجات أعمامنا يذهبن للتسوق من سوق الخضار القريب، فنصرخ ونعبث بحرية دون عيون، ستزورني بنت عمي في اليوم التالي من عودتي، وجدتها "جدة"لعشرة أحفاد، وأكبر أولادها يعمل مترجماً مع الأمريكان، سأروي قصة ضبطنا بطريقتي الساخرة وسط ضحك العائلة الكبيرة.

في إحدى المرات كنا نعلب لعبة التخفي، خبأتُ نفسي داخل خزانة الملابس في غرفتهم وفيما كنت أزيح الأثواب لترتيب مكان اصطدمت أصابعي بشيءٍ صلبٍ، أمسكته بأصابعي ورفعته كان كتاباً مجلداً تجليداً فاخراً ورسمة الغلاف وجه رجل بلحية طويلة شيباء وسيماء وقورة ينظر بقوة في عيني، ناديتُها وسألتها، فقالت:

- كُتُبْ أبوي، أكو بعد جوه الملابسْ!

أخرجناها كلها، تصفحناها فرسخت في ذاكرتي تلك الوجوه الملتحية قوية التقاطيع صارمة النظرات، المزينة أغلفةً سميكةً ميّزتْ طبعات دار التقدم موسكو لمؤلفات ماركس وأنجلس

منشورات «الفياء» «AlYaa»

ولينين، وجوه ارتبطت بعمي ارتباطاً وثيقاً، رافقتني في أحلام اليقظة، فأراها مع عمي في حله وترحاله، وجوه هي السحر بعينه، ملفوفة بالأسرار ومخفية في الأدراج المظلمة، يخرجها سراً ويطالعها حذراً من انكشاف أمره، سأتوله بها بقية العمر وما زلتُ وأنا أعبر النصف الثاني من ستينياتي، ما زلت لا أجد حلاً معقولا لمشاكل البشرية دون منهج ماركس وأفكاره الاشتراكية.

لم ينجح في مكتب تسويق الحنطة الذي أضطر إلى إدارته بعد وفاة صاحبه "مهدي الصياح"زوج عمتي الصغيرة "سهام"سيشهر إفلاسه بعد سنوات قليلة، ستخبرني أمي لاحقاً:

- يمه أَكَلوه الفلاحينْ!

كان يُسّلِفْهم على الحصاد، والمستلف لا يجلب الحبوب إلى مخزنه، لم يكن يغثهُ الأمر بل يبرر لهم ذلك متعاطفاً مع ظروف حياتهم السيئة وقسوة واستغلال مالك الأرض، مدينة ماركس الفاضلة أرتني عواصف ومخاطر ومحن ومهاوي وألقتني في أخر المطاف غريباً عاجزاً في بقعةٍ منسيةٍ بريف الدنمارك هي نفسها التي جَعلتْ "عمي"يعلن إفلاسه ويغلق المخزن بعد خمس سنوات ليبحث عن مهنةٍ أخرى ويستقر في مقهى الطيور، فأين لمن تَشَرّبَ بمفاهيم ماركس بالمساواة والعدالة والاشتراكية بصدقٍ وبراءةٍ لا بمكرٍ وارتزاقٍ كما وجدتهُ لدى عدد من قادة الحزب الشيوعي في محك التجربة والحركة المسلحة، أينَ لهُ، وأية علاقة تربطهُ بالتجارةِ القائمةِ أساساً على الكسبِ من المُنْتِج الحقيقي.

أفلسَ، فتحرر ليتفرغ إلى عالم الطيور والحيوانات وبيئة

منشورات «الفياء» «AlIYaa

المقهى، عالم يزخر بالبراءة والهم الخفيف والهوى الشديد فكان سعيداً!

وفيما كان في قمة استقراره وعزلته بعد مشقة عيشٍ اتعبه دخلت معهُ في تجربة لم أدرك مدى خطورتها وقتها، التسلل من بين الثوار في الجبل والتخفي في بيوت أقرباء وأصدقاء وتعريض حياتهم للخطر في حالة القبض عليّ، كنتُ متحمساً لا تهمني المخاطر ولا حتى الموت، صحيح أنك لم تهتم يا أبي كنتَ شجاعاً وأويتني أشهراً طوالاً، لكنّ لأخيك "موسى"رأياً آخر في محكٍ هو الورطة بعينها، في أذار 1983أستقر بيَّ المقام متخفياً في "إرسي"عمتي وسط "الجديدة"أي في مخزن المؤونة، غرفة صغيرة جداً تُشاد في البيوت القديمة فوق الحمام والمبطخ، بعد أيام فكرتُ بمكانٍ بديلٍ في حالة الطوارئ، ورحت أفكر متصفحاً الأقارب فلم أصل لمكانٍ أمين فجعلت "وصفي"ابن عمتي يفكر معي فوجدنا المكان المناسب، غرفتان من أطلال بيت جدي تركهما عمي على وضعها القديم معزولتين عن البيت الذي بناه فوق ثلاثة أرباع المساحة، كان لها بابان واحدة بنهاية دهليز على الشارع والأخر ينفذ إلى البيت الجديد، وللغرفتين سطح متصل بسطوح الجيران المظاهرة حيث الشارع الخلفي، بمعنى مكان نموذجي للتخفي والتملص يصعب حصاره في حالة الخطر، تحمسنا وكنا نظن أن الأمر محسوم نظراً لتاريخ "عمي"السياسي، كتبتُ رسالةً مكثفة شرحتُ وضعي وظروفي وأملي بتهيئة غرفة من الغرفتين كي تكون صالحة للسكن في حالة اضطراري وأشرتُ أن إقامتي ستكون مؤقتة إلى حين ترتيب مكان جديد، طويتها حتى أصبحت بحجم الأظفر دسها "وصفي"في جيب قميصه مع نزول المساء وذهب

منشورات «الفيــاء» AlFyaa»

بها.

في ساعة متأخرة عاد وأخبرني، بأنه انعزل به في غرفة الضيوف، وقرأ الرسالة بتمعن عدة مرات، ثم رفع رأسه، تفحصه طويلاً بصمتٍ قبلَ أن يناوله الورقة قائلا:

- اعدمها أمامي!

فمزقها قطعاً صغيرةً وألقاها في سلة المهملات الصغيرة قرب الباب، وعاد إلى جواره، سألهُ عن مكاني، وهل يستطيع اللقاء بيّ، فأجابه حسب اتفاقنا بأنه لا يعرف والرسالة وصلته بيد صديقٍ، بطبيعة الحال لم يقتنع بإجابات "وصفي"كما قدرت، فكيف يقتنع صاحب خبرة عمل بتنظيمات الحزب السرية سنواتٍ طوال.

في صبيحة اليوم التالي، قُرِعتْ الباب فأسرعتُ إلى السلالم المؤدية إلى مخبئي بينما توجهتْ "عمتي"بوجهٍ شَحَبَ بغتةً نحو المجاز لفتح الباب. سمعتُ صوته الأليف يحيي أخته الصغيرة التي كادت تطير من الفرح فهو نادر الزيارة للأقرباء، من المؤكد أنه ألقى نظرةً من باب غرفة الضيوف في طريقهِ إلى باحةِ البيتِ، وَقَفَ وسطها تحت الشمس الساطعة، كنت على مبعدة خمسة أمتار عنه وبارتفاع مترين، أحملق من عتمة مخبئي وثقوبه بقسماته الجميلة المشعة تحت وهج الشمس وهو يَدور عينيه في الباحة وغرفتيّ النوم أثناء حديثه مع عمتي التي هرعتْ إلى المطبخِ لتصب له استكان شاي، كنتُ أكتم أنفاسي بالرغم من ضجيج الصباح والسوق القريب، ارتشفَ الشاي ببطءٍ واقفاً، كانَ من المستحيل أن يتخيلني أطل عليه من ثقوب "إرسي"متهرئ الآجر ضيق ومعتم بمساحة قبر، ناول أخته

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

المبتهجة القدح الفارغ وسارع بالخروج.

لم أره بعد ذلك سوى مرة واحدة، فبعد قرابة عام من التخفي اضطررتُ تسليم نفسي والرجوع إلى وحدتي العسكرية في عفو عام، عشتُ قرابة عامين شبه متخفٍ، أعود من الجبهات المشتعلة بإجازة شهرية أتحاشي فيها الظهور العلني، مقتصراً اللقاء في بيوت الأصدقاء، كنت أنتظر فرصة سانحة لألتحق بالثوار من جديد، ولا أخرج في نزهة أو زيارة لبيت صديق إلا مع حلول الظلام.

كان حادث الرسالة وموقفه قد ألقى ظلاله على علاقتنا.

في غروبٍ شتوي شاحب كنت في إجازة أسير بصحبة زوجتي في زقاق من أزقة "الجديدة"، وعلى ضوء مصباح بيت ظهر بغتة من فرعٍ وأمسينا وجهاً لوجهٍ تلكأتُ بمشيتي، توقفتُ أمامه مرتبكاً والقيتُ تحيتي متلعثماً وشيء ما انكسر بيننا من تلك التجربة:

- أش لونك عمي؟

رحب بيّ بوجهٍ مكتظ بالأسئلة لكن الوقت والموقف ووجود زوجتي، وظهوري العلني المفاجئ جعلهُ يحجم، ألقيت تحية الوداع وأسرعتُ مبتعداً، كان ذلك أخر لقاء، فقد التحقنا بعد أيامٍ قلائل بالثوار ودخلنا درب "الصّد ما رد"، خسرنا التجربة المسلحة، فالجيش العائد من جبهات الحرب التي توقفت طردنا إلى دول الجوار، فعدنا نقيم في معسكر للاجئين العراقيين في أقصى شمال إيران.

في شتاء1989وصلني خبر عن وصول جارة لنا في الحي العصري اسمها "سميرة أبو شامة"هجروها مع ولديها بعد إعدام

منشورات «الفيـاء» «AlfYaa»

زوجها، قيل أنها تَحّلُ ضيفة ببيت عائلة عراقية في أصفهان، سافرت إليها متلهفاً لسماع أخبار أهلي، فطمأنتني وتلكأت قائلة:

- بس أكو خبر خاف أگوله وأأذيك!

ألححتُ عليها فقالت بوجل:

- عمك "موسى"مات قبل سنتين!

انفجرت على الفور بنحيبٍ أفجع من نحيب امرأة في ذلك البيت العراقي الغريب في حي من أحياء "أصفهان".

طرقتُ باب بيت جدي في الفاضلية، فسمعت صوت زوجته تسأل من الطارق

- سلام.. سلام

فتحت الباب نَشَجَتْ وضمتني إلى صدرها مرددةً:

- عمّه سلومي أنت عدلْ.. عدلْ.. أشكر لله..

جلستُ جوارها على الأريكة وسط الباحة وأمامنا على الجدار القريب المقابل كان يطلُ من إطار صورته الفوتوغرافية يافعاً يحضن ابنه الكبير "كوكب"ناظراً بعينيه الزرقاوين الباسمتين وزوجته تسرد لحظاته الأخيرة وكأنه مات البارحة لا قبل أكثر من عشرين عاماً.

منشورات «الفيـاء» «AlFyaa»

الفصل الثاني والثلاثون

أدوس على الخطر

منشورات «الف ياء» AlifYaa«

الحزن ظلال الحياة
جوهرها..
الإنسانُ ضيفٌ إقامته قصيرة
المعنى سلوى وحيدة
الجبن موتٌ
ومواجهة الأخطار حياة
"أدوسْ على الخَطَرْ عَمْدَاً وأنا حيْ"
النجاة من الأخطار
النجاة من غمرة الصراع لذة،
من السجن لذة
من المعركة لذة
من
ومن
ومن
سأسرد حكاية الأخطار يا والديَّ
أما النجاة من حرب تلو أخرى
فلذة اللذائذ
مثل السندباد البحري
في قصص الليالي

منشورات «الفـيـاء» AlFyaa»

نجا من سفينةٍ غارقةٍ

تعلق بخشبة

عانق الحياة

فعاش ما تبقى

متحسساً تفاصيل اليوم

بشغف عاشق

وحدي والسندباد ندرك

فلسفة التمتع باللحظة

جوهر الوجود

البارحة أتممت عامي السابع والستين لينطبق عليَّ المثل الشعبي "عمر الشقي بقي".

العام الفائت كدتُ أصعد إلى السماء، بالنسبة لي ليس هناك أشَدَّ ألفة من الموت، وسأروي لكما يا حبيبيَّ "علية عبود"و "عبد سوادي"كيف رافقني، حام حولي منذُ الطفولة حتى العام الماضي حينما وقعتُ في دوامةِ ألمٍ مُبَرّحْ، غامض حيَّرَ الأطباء هنا في الدنمارك حتى أنهم طَرَدوني من المستشفى بعد أن تكرر إدخالي لأكثر من خمس مرات خلال شهرين والفحوص لم تسفر عن شيء، تمنيتُ الموتَ مثل معلولٍ لا شفاء له، تمنيتهُ لكن مصحوباً بالأسفِ واللوعةِ إذ كنت قد بدأت بتأليف هذه الرواية عن ظروف نشأتي وعلاقتي بكما، وددتُ الإفضاء بما خفي عنكما من أكبر أولادكم الذكور، كنتُ في غمرة الروي، أبحث

منشورات «الفياء» «AlIYaa»

وأكتب محطات وأسراراً حينما هاجمني الألم عاتياً، وككل مرة نجوتُ بعد عملية جراحية أتاحت لي بلوغ الفصل الختامي من صفحة نشأتي سأحكي فيه لكما يا حبيبيَّ كيف رأيت الموت والمرات التي كاد يضمني فيها.

المراتُ كثيرةٌ وخطيرةٌ لو سردتها كلها لن يُصدق القارئ وسيقول أن "سلام إبراهيم"يؤلف من مخيلته ما يشبه قصص الليالي حيث تنجو الشخصية المحورية فيها من الموت بأعجوبة في كل مرة، مثل السندباد البحري، أفلت من عشرات الميتات الأكيدة، لذا سأنتقي منها ما يجعل من القصص معقولة بالرغم من أن العيش في العراق يشبه من يعيش فلم رعب لا نهاية له، خيال لامعقول فالموت صار ضرباً من الفنتازيا، إذ عاد قوت اليوم منذ نصف القرن الفائت.

أخذني أخواي "عادل"و "علي"إلى سرداب العائلة في النجف بعد أيام من عودتي، طلبتُ منهما تركي وحيداً معكما، تلمستُ الآجر النائمين خلفه، بكيتُ إلى أن ارتويتُ، تلوتُ لكما آياتٍ كريمات، وقليلا.. قليلاً رأيتكما تطوفان حولي في العتمةِ الضيقةِ مغسولين كأنكما خلقتما للتو ثم تلاشيتما، تهالكتُ على ركبَتَيَّ أحدثكما عما جرى لي في ديار المنفى الموحش، عن أشواقي المبرحة، عن صدمتي يا أبي حينما بلغني خبرك، كنتُ في "دمشق"وقتها، حيث تمكنت من مراسلتكم عن طريق رفيق لنا يسكن "الكويت"، فعلاقة الدكتاتور سيئة مع السلطات السورية وقتها، نبعث له رسالتنا فيبعثها بدوره على عنوان أهلنا، يرجع الجواب فيرسله لنا، كنتُ عائداً لتوي من عملي في "إذاعة صوت العراق من دمشق"، أكتب تعليقات تحريضية لا أستلم ثمنها البخس إلا بعد إذاعتها، اضطررت لذلك فظروف المعيشية

منشورات «الفيل» AlFyaa«

قاسية جداً، كنا ننتظر فرصة السفر إلى دولة توفر لنا عيشاً كريماً، أتذكر تلك الظهيرة الحارة كأنها الأمس، استقبلتني ناهدة بوجهٍ به شيء وجل وارتباك لا يخفي عليّ، عزوته أول الأمر إلى قلقها من مصيرنا المجهول وهي حامل بأبنتنا "همسة"، جعلتْ تحوم حولي في المطبخ والصالة فسألتها عما بها، بصمتٍ أخرجتْ ورقةً من جيبِ ردائها المنزلي وناولتها لي، فتحتها على الفور، كانتْ رسالةً من أختي الصغيرة "ناهدة"ما أن قرأت جملتها الأخيرة:

(أما وَالدنا فتعيش أنت منذ العام الماضي)

حتى انفجرت بنحيب مذبوح استمر أياماً، أعجز عن وصف وصياغة ما صرتُ إليه، فقد انطفأتْ أحلامي التي أدمنتها سنوات النضال المسلح والتشرد لاحقاً في معسكرات اللاجئين باللقاء وتناول النخب الذي تواعدنا به فيما لو بقينا أحياء وزالت غمة الدكتاتور، لا أريد وصف ذلك تحولت إلى إنسان محطم أقضي وقتي شارداً أطوف معك في الأمكنة كلها، وأبكي بخفوت بين الحين والأخر، عرفتُ التفاصيل أَغبُطكَ الآن وحافتي قريبة، أغبطكَ لأنك صعدتَ إلى السماء من بيتنا في "العصري"، استيقظتَ باكراً كعادتك، تناولتَ الفطور، تفقدتَ حديقتكَ الصغيرة، رجعتَ إلى غرفة الضيوف لتستلقي على الأريكة خلف جلسة أمي مقابل الباب بعد أن أخبرتها أنك تشعر بتعبٍ مفاجئ، لتسقط سريعاً في نومٍ عميقٍ وبدأتَ تشخر، فنادت أمي أخي الصغير "عادل"وقالت له:

- يمه أبوكْ موَدِعْ، ساعدني؛ نرتبْ البيتْ راحْ تنگلبْ الدنيا علينا!

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

اجتمعت الأسرة، واحتدام نقاش، لم يأخذوا برأي أمي التي ارتأت أن يَدعوكَ بسلام حتى تسلم الروح ولا يضعضعوك بالنقل إلى المستشفى، في الطريق إليها غادرت العالم فاسترحتَ من عناء العيش.

الموت في "بيت العصري"أدمنتهُ حلماً في اليقظة والمنام لكن لا الأوضاع استقرت ولا الزمن يتوقف، جرى بيّ العمرُ حتى لم يعد بمستطاعي صحياً النزول إلى رحمي الدامي، البيتُ طَعَنَ في السنِ وأنتقل عنه أخي "علي"فباعوه، تفتتَ حلمي، عدتُ لا أدري من أي بقعةٍ ستغادر روحي من حيث أتت، أكيد سأكون وحيداً وغريباً، والجميع أنفرط من حولي مشغولاً بشأنهِ.

بقيتِ أملي الوحيد يا أمي عشتُ على أمل رؤيتك واللوذ بحضنكِ وشم رائحتكِ، وسماع أنفاسكِ، وهمسكِ المهدئ وأنت ترددين المعوذات والأدعية الحافظة من الأشرار والأقدار، رؤيتك مرة واحدة فقط، واحدة فقط، لو تحققت لما عشت بقية أيامي مكسورَ القلبِ.

بعد استقراري في الدنمارك مطلع تسعينيات القرن المنصرم رتبتُ صلتي مع الجميع، داعبني الأمل، تكلمتُ معكِ تلفونياً مكالماتٍ طويلةٍ كنتُ انتشى بعدها أياماً، أعودُ صبياً نزقاً مثلما كنت فأمشي مسافاتٍ طويلةٍ جداً، عشرين كيلو متراً أو أكثر، أقطع مسافاتٍ بين مدنٍ صغيرةٍ، أخطو بخفةٍ كأني أطير صارخاً مغنياً في الدروب الريفية وسط حقول تشتعلُ خضرةً، وطيفك يطوف حولي حانياً دافئا يشّد من عزمي على السير والسير كأنني أبغى وصول حافةِ العالمِ.

أي بهجة يبعثها صوتك الحي في نفسي.

منشورات «الفيا» «AlfYaa»

ترجيتك يا ملاكي، ترجيتك طويلاً:

- يمه تعالي لدمشق حتى أشوفك!

كان جوابك واضحاً:

- يا ريتْ يمه، شوفتَكْ حِلِمْ، بس أني ممنوعة من السفرْ ولازم أراجع دائرة الأمن حتى يشيلون المنع، وهمه بالينا بلوة، يومية داگين الباب يسألون عنك، يمه أخاف هذي ناس بلا ذمة ولا ضمير ولا شرف!

وتداركت الأمور عقبَ القبض على حفيدك "محمد حازم مرتضى"ابن أختي "وداد"الذي شارك بانتفاضة 1991، وبدلاً من اللجوء إلى دول الجوار كما فعل الآلاف أختفى في بغداد لدى خالته "ناهده"ثم تسلل إلى المناطق الكردية المحمية دولياً وقتها، لكنهُ عادَ سراً مثلما فعلتُ قبلهُ بعشر سنوات، متجاهلاً نصائحي بعدم المغامرة بالعودة إلى الجنوب، قلت تلفونياً

- خالو لا تفكر مطلقاً بذلك تره تنعدمْ!

ليعتقلوه من كورنيش الديوانية ويبقى سنة لديهم قبل أن يعدموه ويسلموا جثته لأهله صيف 1995. أي قساوة تجرعتِ مرّها في عمرك يا أمي، أبنك "كفاح"أبلغوا عن إعدامه شفوياً، وها هو ضريحه الرمزي فوق تجويف مرقدك بالسرداب، وحفيدك أنزلوا تابوته من سقف سيارة أجرة لتراه أمه ممدداً في تجويف خشبته أمام بيتهم في "العروبة"، وصفوا لي المشهد كنت تحيطين بجسد بنتك التي أوشكتْ على الجنونِ فهو وحيدها بين أربع بنات، أي طاقة تحمّل لديكِ يا ملاكي، أي قوة وتماسك جعلكَ تواصلين الحياة بعزمٍ وتخبرينني تلفونياً بأن رسالتك لا تكتمل في الحياة إلا بزواج "علي"أخر العنقود، كففتُ عن

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

مطالبتك بالسفر إلى دمشق، اكتفيت بسماعِ صوتكِ والنظر طويلاً إلى صوركِ التي تصلني مع الرسائل الورقية، إلى أن سمعتُ صوتك يوماً وأنت تخبريني مبتهجةً بأنكِ ذاهبةً عصر الغد لخطبةِ بنت لأخي "علي"خاتمةً كلامكِ:

- يمه رسالتي راحْ تكْمَلْ، الحمد لله والشكر على كل شيء!

يومها أصابتني بهجتك فهببتُ في نزهةٍ طويلةٍ وسط الحقول المحيطة، أكلمك، أشمك، أشبع من عينيك، استعيد نبرة صوتكِ، أخلّقكِ من الشجرِ، من الهواء، من العشب، ألثم كفيك الطاهرين وأبكي، أعيش هذه الطقوس بسريةٍ وكأنها حرزي الدفين الذي يُقوّيني ويجعلني أحتمل يوم المنفى الموحش الثقيل.

وصقعني خبركِ بعد يومين من المكالمة الأخيرة، عدت متأخراً ذلك المساء من ندوةٍ أدبيةٍ، استقبلتني "ناهدة"بذراعين مفتوحين وعانقتني في مدخل البيت، استغربتُ من حنانها المفاجئ وشدّ ذراعيها الملتفين حول ظهري، استبقتني قرابة دقيقة، ما أن جلسنا في الصالة حتى سألتها عن الجديد مخمناً أن لديها خبراً يخصني، لكن لم أحزر أبداً يا أمي.. لم أحزر إلا حينما قَدّمَتْ كثيراً حتى أني قاطعتها بحزم قائلاً:

- بلا مقدمات رجاء خبريني شنو الخبر؟

- أمك.. البقاء بحياتك!

لا أريد وصف ما حلّ بيّ، فأنت تعرفين مدى هشاشتي وضعفي عند فقدان حبيب يا "علية عبود"فكيف بكِ؟.. لا أستطيع سوى القول لم تندب وتبكِ امرأة واحدة بالعالم مثلما فعلتُ، نَحبت حتى مَلَّتْ مني الجدران والحديقة والصور والحقول والأفق والسماء فلامتني:

منشورات «الفـياء» «AlfYaa»

- كافي سلام راح تْموّتْ حالكْ، البچى ما رجع ميت!

سيروي لي "محمد مجيد"ابن أختي "سهيلة"ما جرى تلك الليلة:

- بعد إتمام الخطبة، تجمعنا في بيت خالتي "وداد"وسهرنا محتفلين، نروى النكات والطرائف ونضحك، وكانت جدتي "أم سلام"تجلس جواري، وكلما أتت على سيجارة ناولتها الأخرى حتى قالت لي:

- موتتني بيبي!

فأقول لها:

- بيبي دخني اليوم فرحة خالي "علي"!

في الثالثة صباحاً، تهاوتْ فجأة على الأريكةِ ماسكةً صدرها، كنتُ الأقرب، هرعتُ إليها، وتحلق الجميع حولنا، ساد الارتباك، لم تطلق آهةً بالرغم من شدة الألم الذي بدا طاغياً على قسماتها فاتصلوا بخالي "عادل"الذي أخبرنا بأنه سيأتي بصحبة زميلة الطبيب، رأيتها تنظر إلى سقف الغرفة العالي وكأنها تتابع شيئاً يدور فيها، حدقت إلى حيث تنظر، لَمْ أرَ شيئاً، طلبت مني تعديل جلستها ففعلت فترجتنا قائلة:

- لا تضعضعوني.. لا تنقلوني للمستشفى، أني مودعه وهذا ملك الموت يفتر بالغرفة، فأفترت الرؤوس تبحث عن الرسول المرعب دون جدوى، رجعت العيون إليها مستفهمةً فأوضحت:

- أنتم ما تشوفوه بس أني أشوفه يفتر منتظر حتى أودعكم ويأخذني!

لكن لم يقتنعوا برؤياك، فحملوك إلى المستشفى دون جدوى،

منشورات «الفياء» AlfYaa»

بعد ساعتين ومع تنفس الفجر صعدتْ روحكِ إلى بارئها، تحقق خاتم أدعيتك الذي أسمعه منذ صباي كل يوم وقت الغروب وأنت تجلسين بمواجهة الباب التي تُظهِر صفحة من السماء، رجائك باستلالها بهدوء وسرعة "هينةً لينةً يا إلهي"بأقلِ ألمٍ، لبّاه محبك في الأعالي فكانت هينةً لينةً، لم تتعذبي أيتها الرائية يا من كنت ترين ما لا يراه الآخرون.

العام الماضي نجوتُ من بحر ألمٍ حيرَّ الأطباء، خف قليلا.. قليلا بعد عملية جراحية جعلني أعيش أطول وأكمل هذه الرواية.

فجر كل يوم حينما أستيقظ بألمٍ أخف أنظر إلى السماء، أكلم خالق الكون، صاحب السر الأعظم وأشكره على قلة الألم ثم أترجاه بجعلها هينةً لينةً فقد تعذبت ما يكفي للعيش أكثر من مرة في الجحيم.

البارحة أتممت عامي السابع والستين. لينطبق عليَّ المثل الشعبي "عمر الشقي بقي".

قبل أن أسرد قصصي مع الموت لابدَّ من ذكر ما جعلني متماسكاً في مواجهة وجههِ الباردِ وهو يكاد يطبق عليّ في لحظاتٍ بَدتْ كأنها الأخيرة خصوصاً عقب نضجي وخوض تجربة المعتقل والحروب، ما جعلني متماسكاً أواجه بقوة أقسى الظروف، هي كلماتك يا "عبد سوادي النجار"التي قلتها حينما أطلق سراحيّ مخذولاً من أول حفلة إذلال في زنزانة أمن الديوانية، كنت غضاً بعمر السادسة عشر، اختليتَ بيَّ تحت نخلتكَ وسط حديقة البيت الأمامية، تأملتني طويلاً بعينيك الجاحظتين الواسعتين، وأوصيتني:

منشورات «الفيلياء» «AlFyaa»

- اسمع يا ولدي الإنسان يعيش مرة ويموت مرة فكن قويا ففي كل الأحوال سنموت.

سأتذكرها لاحقاً في الزنازين، وذروة التعذيب، في جبهات الحرب مع إيرانِ وبين الثوار بالجبل، أكسبتني تجاربُ الموتِ ومخاطره صلابةً صَبَّتْ قسماتي وصقلتها بما يشبه الحجر حتى عدتُ أكاد لا أتعرّف على وجهي في الصور الفوتوغرافية، وجه صارم، حازم النظرات وكأنه ليس لي أنا الهش الذي يَنهمر دمعه لرؤيةِ متشرد أو موقف في فلم أو مأساة يرويها عابر، ولطالما أجهشت باكياً بغتة، زوجتي وأولادي فقط خير من يعرف ذلك

1- بين يديكِ يا أمي

رأيتُ الموتَ يتقطر من بين أصابعكِ قبل أن أبلغ السادسة، تَجَسّمَ في مشهدٍ لم يفارقني كل العمر. كنا نسكن في بيتِ جدي الكبير بـ"الفاضلية"، كنتُ شديد التعلق بكِ، أتبعك أينما تذهبين حتى أني في مرةٍ ضِعْتُ في سوق الخضار القريب فأعادتني جارة لنا، وجدتني أبكي والمتسوقون يلتمون حولي، رأيتني ألوذ خلفَ نافذةِ غرفةٍ معتمةٍ تطلُ على باحةِ بيتِ الجيران المكشوفةِ، المكتظةِ بنسوة متلفعات بعباءات سود، كنّ يحبسن النشيج المخنوق في القسماتِ المتغضنةِ الواجمةِ الحزينةِ، ووسطهن جلستِ متماسكةً جوار رأس جارتنا الطاعنة في السن تسقيها قطرة.. قطرة من قطعة قماش بيضاء تغطسها في طاسة نحاسية صغيرة موضوعة جوار الوسادة، كنتُ أختلس النظرَ مرتعداً من خلفِ الزجاجِ المغبرِ متتبعاً أصابعكِ وهي تعصر القماشة عصراً محسوباً بحيث تُسقِطُ قطرةً واحدةً فقط من ذلك السائل

منشورات «الفياء» «AlYaa»

الغامض الذي ظل يلاحقني ويرهبني في الأيام اللاحقة والمشهد يرتسم واضحاً، القطرةُ تسقطُ في بطءٍ شديدٍ في جوفِ الفمِ الفاغرِ المختلجِ. أحملق بعيونِ عشرات النسوة الدامعة الملاحقة حركة أصابعكِ الخبيرة. لم أدرك ما تقومين به وسر سلطتكِ الطاغية على الحضور الحاشد، فما إن دَخَلَتِ الباحة الضاجة بالبكاءِ والعويلِ حتى عمَّ الهدوء بانتظار كلمتكِ التي ألجمتْ الأفواه:

- إسكتنْ.. إسكتنْ.. ما يصحْ.. ما يصحْ.. تسمعچنْ.. ما يصحْ الواحدْ يودعْ أحبابه آخر مرة هِيچْ!.

حبسنَ العويل والصراخ فحلَّ صمتٌ مضطربٌ أثقلَ من حرّ الظهيرة الخانقة، وجعل لانهماككِ في جلستكِ جوار الرأس المنتفض بمركز الحلقة وقع مرعب ظل يرافقني ولم ينفع معه محاولاتكِ للتخفيف من وطأته. انتبهتِ إلى صراخي خلف النافذة بالرغم من صخب النسوة وعويلهن حال إعلانكِ صعود الروح إلى بارئها، لم أفهم كيف ميّزَتِ عويلي وسط سيل العويل الجارف والهذيان واللطم، سحبتيني من تكومي تحت النافذةِ، وعدتِ بيّ إلى البيت مرددة:

- ليش لحگتني.. گلتلك ألف مره جوزْ من هذي العادة.

لم أكف عن العويلِ ومحاولة التملص من أصابعكِ المخيفةِ التي أتخيلها كلما دنتْ مني تعدل رأس العجوز المحتضرة عند انزلاقه من حافة الوسادة، وتستمرين في إسقاط قطرة من ذلك السائل الذي حيرني، لم أعرف أنه مجرد ماء إلا في الأيامِ التاليةِ، عندما اضطررتِ إلى الخلوة بيّ وأنت ترينني أرتعد بحضوركِ ولا أدعكِ تلمسني بالمحافظة على مسافة تفصلني

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

عنكِ في غرفِ البيتِ أو الحوشِ أو السطحِ أو الشارعِ، بعد أن وقعتِ بذكائكِ الحاد على السبب، حكيتِ عن الحياةِ والموتِ والعالمِ الآخر، عن دارِ الفناءِ ودارِ البقاءِ، الخيرِ والشرِ، الثوابِ والعقابِ، الفضيلةِ والرذيلةِ، عن ملائكةٍ ساهرةٍ لا تنالها سِنةٌ أو غفلة تسجل السيئات والحسنات، رحلتُ وقتها مع وجوه وأجنحة الملائكة، تراءى لي عزرائيل الذي قبضَ روح العجوز وأنسل بها إلى السماء تحت ناظري. تجسّد في مخيلتي القبر المعتم مضاءً بشامات الجسد، البرزخ المظلم الفاصل بين الدارين، منكر ونكير، يوم الحشر حيث لا يعرف الأخ أخاه، والأب ابنه، والابن أمه، يوم تلطش العيون فتسير الجموع عيونها معلقةً بالسماءِ، عاريةً إلى ميزانِ أفعالها، تخيلتُ الله طيراً هائلاً يسبح في زرقةِ الأبدِ، يطلُ منها على ساحةِ الحشرِ الفسيحةِ، الملائكةُ تفرز البشر كلٌ حسب موازينه، والمحشورون يغوصون في الصمتِ سائرينَ نحو الميزان وبابيّ الجنة والنار متقابلين. ومن خضم ذلك العالم الذي اقتحمني ملتُ برأسي لأسألكِ:

- يعني ما أگدر أشوفك يوم القيامة؟!.

- لا يا ولدي.. كل واحد سيكون وحده، مسئول عن أفعاله.

فأجفلتُ من وحشة ذلك اليوم، وجعلتُ أبكي مردداً:

- ما أريد أموت يُمه.. ما أريد أموت!.

وارتميتُ إلى حضنك الدافئ، مستنشقاً رائحتكِ العذبةِ، خليط من أريج الورد والحناء والمَحَنّة فهدأ روعي قليلاً، همستِ بأذني:

- كن صالحاً يا ولدي.. ولا تخفْ!.

منشورات «الفيـاء» «AlFyaa

* * *

2- على مسافةِ أمتار منكَ يا "عبد سوادي"

هذه القصة المرعبة كنتُ أرويها في مراهقتي حينما تجتمع العائلة في المساء كطرفةٍ تثير دهشتكم وسط تعليقاتي التي تثير المزيد من الضحك، والحادث لم يحدث مرة واحدة بل ثلاث مرات نجوت فيها، في كل مرة تَذوقتُ طعم الموت وهو يتدفق إلى صدري ماءً يلقيك على حافة الخدر في ميتةٍ هي أخف من غيرها من الميتات التي مستني مساً وعبرتْ لتخطف جنديا جواري في جبهة الحرب أو مقاتلاً من رفاقي الثوار، عن أخف الميتات سأقص عليكم حادثة واحدة فقط والبقية مجرد تكرار لكن الهلع نفسه!

قبل بلوغي العاشرة ذقتُ طعمه ماءً، كنتُ مجنونا بنهرِ "الديوانية"، ودكان عمي "خليل"الذي أخدم فيه في العطلِ وبعد خروجي من المدرسةِ لا يبعد عن النهر سوى عشرين متراً، يعجُ بالأطفالِ العراةِ في الصيفِ الحارقِ، وعمي يتركني وحدي كل ظهيرةٍ ليعود عصراً، أقاوم، وأقاوم، ثم أتداعى فَأسّدَ باب الدكان بالقفلِ وأركض إلى الماءِ مثل طيرٍ عطشان.

كنتُ لا أعرف العوم، أغطس وألعبُ بالجرفِ الضحلِ، أُكتُشِفَ أمري إذ كان الماء يسحرني وما يزال فأتأخر فيه إلى أن عَثَرَ عليّ "عمي"مشغولاً بارتداء ثوبي فأوسعني ضرباً، كنتِ الوحيدة يا أمي تشرحين لي خطورة الأمر بعد أن تُبَرّدين غضبكِ بِصفعي:

- يمه تريدْ تسودني وأصيرْ مثل أمْ ولدْ غرگانْ مجنونة أباري

منشورات «الفيلاء AlFyaa»

الجروفْ، يمه الشطْ كلْ سنة يأخذ ضحية!

فعلا كانَ شط الديوانية الصغيرة يسحب طفلاً إلى قاعه المسحور كل عام!

تحملقينَ شاردةً في وجهي بصمتٍ ثمَ تُكملينَ:

- أشْ لونْ تسْبَحْ بالشطْ وأنتَ ما تعرفْ تفوجْ، موْ الماي ياخذكْ.

تسكتين وتشردين بعينيكِ البنيتين الجميلتين نحو حديقةِ المنزل متخيلةً غرقي، فتخفت نبرتك متوسلةً:

- يمه أش راح يصير بينه!

ثم ترفعينَ رأسكِ نحو سماء الدار وتخاطبين الله:

- ربيّ أشلون أفهمه!

لم ينفع معي شيء لا الضرب ولا الكلام، فاستنفر رجال العائلة متناوبين، أعمامي وأخوالي، يقف الواحد منهم على الرصيف يتصفح حشود الأطفال، فابتعد عن مرمى نظرهِ وأضيع بين جموع الأطفال المتحركة الصارخة العارية المالئة مجرى النهر الصغير.

في يومٍ رأيت أبي يوقف دراجته الهوائية ويساعد أخي الصغير "كفاح"الملتزم العاقل، في النزول من أمامه، أسندها إلى حافةِ الرصيفِ واقتربا من سور النهر الواطئ، أصعده فوقه ليساعده في البحث، ولا أدري كيف وقع بصره عليّ فأشار نحوي، أصابني الهلعُ، ولما كنتُ لا أستطيع العوم، خرجتُ من الماء، حملتُ دشداشتي وركضتُ مع حافةِ النهرِ من جسرِ العلاوي الخشبي باتجاه سينما الحمراء والمحكمة الحديثة الآن،

منشورات «الفياء» «AlIYaa»

ركضتُ عارياً إلا من لباسي الداخلي، لم تكن لدينا أردية سباحة وقتها، جريتُ حتى تقطّعتْ أنفاسي، مفزوعاً ألهث وأبي يدور بقدميه دواسة الدراجة على الجادةِ المبلطةِ بموازاتي، واضعاً "كفاح"أمامه. كفاح الفنّان المطيع المؤدب الملتزم سيصبح شيوعياً ويموت تحت التعذيب أوائل عشرينياته دون أن يشي برفاقه، ألهثُ محاصراً فمجرى الماء إلى يميني وأبي إلى يساري، أركضُ وأنا موشكٌ على الانهيارِ، فهذه أول مرة أُمسَك بها متلبساً، فالضرب سابقاً على قول "عمي"أما بقية العلقات فعلى التخمين. ما زلتُ أتذكر اضطراب مشاعري في تلك اللحظات وشيءٌ صغير حرقَ قلبي، نسخ نگتف أفلام أجمّعها من نفاياتِ سينما الجمهورية الصيفي القريبة وأعرضها بعارضة يدوية في غرفة الطين المظلمة المنزوية بنهاية الحوش تتساقط من جيوب دشداشتي ولا أستطيع التوقف لجمعها، فيتضاعف حزني، عبرتُ المحكمة وسينما الحمراء ومتوسطة الديوانية والشاطئ أقفر فلا أحد يسبح هناك، اضطررتُ إلى التوقف مثل طيرٍ وقعَ في الشباكِ فالشاطئ المقابل لمستشفى الفرقة الأولى ضاقَ ثم تلاشى، صار مجرى النهر يصطدم بسياج النهر، عارياً حائراً مستسلماً تماماً أنتظر لحظة القبض عليَّ، أمسكني "عبد سوادي"، كان شبه مجنون مشتعلاً غضباً من شدةِ حرصهِ، أَجْلَسَ "كفاح"على مقعدِ الدراجةِ الخلفي ووضعني أمامه عارياً، يصفعني بكفهِ القويةِ على ظهري كلما قطع مسافةً قصيرةً فأشتعلُ ألماً حارقاً.

ويا لتلك التجربة الفادحة، ضرب ابنٍ عارٍ مستسلمٍ، ضرب ولا سعير النار، ضرب جعلني أحلف أن لا أمسَّ أطفالي بكفٍ أبداً.

منشورات «الفـياء» «AlFyaa»

هل كففتُ عن الماءِ؟

- لا.. لا.. أبداً!

ما أن أبقى وحيداً في الظهيرةِ الحارقةِ، أنضح عرقاً وعلى مسافةِ عشرين متراً الأطفال عراة يلقون بأنفسهم من سياج الجسر الخشبي إلى الماءِ حتى أنسى كل النصائح والضرب والتجارب، فأغلق باب الدكان وأهرع إلى الشاطئ ألقي بردائي وأتسلل إلى الماء الضحل شاعراً بلذةٍ فريدةٍ لا تزال تنتابني حتى الآن كلما دخلتُ بحراً أو مسبحاً.

أذاقني النهرُ رعبَ العقاب، ولذة الماء، وطعم الموت.

في يومٍ لاحقٍ تكررتْ التجربة، لمحتُ أبي يُوقِف دراجته ويركنها إلى حافة الرصيفِ ويستعين بكفاح كي يشخص مكاني، أصابني الهلع وبدلاً من الخروج والتخفي على الشاطئ جعلتُ أنحدر قليلاً.. قليلاً إلى الماءِ العميقِ معتقداً بأنَ ذلك سيخفيني، دفعتُ طينَ الشاطئ الضحلِ بأطراف أصابع قدميَّ حتى عامتْ ساقيّ في الماء ووجدتني أغطس عميقاً، نسيتُ كل شيء شاعراً بالماء يتسرب إلى رئتيَّ ثقيلاً، لكن الموج دفعني إلى سطحهِ لثواني، فصرخت بأولادٍ كبار كانوا يسبحونَ قربي:

- عمي.. عمي!

جرفني المجرى نحو منتصف النهر وسحبتني الأعماق فأحسستُ بالماءِ يتدفق مالئاً فمي، ضاقتْ أنفاسي وضاعَ الهواءُ، رفعني الماءُ مرةً أخرى فظهرتُ على السطحِ وصرختُ وأنا أجود بنفسي، غطستُ مرةً ثالثةً حاساً بخدرٍ خفيفٍ جعلني أنتفض فطفوتُ للحظات شعرتُ فيها بمن يدفعني نحو الشاطئ الضحلِ القريب فتنفستُ الحياةَ، كان المنقذُ مفتولَ العضلاتِ

منشورات «الفيا» «AlfYaa»

مذهولاً يحملق نحوي وموجهاً كلامهُ لرفاقهِ:

- ولكم هذا صدگ چان يغرگ!.

* * *

3- على الرصيف

تتذكران يا والديَّ طرفاً من هذه القصة، أخبرتكما لاحقاً بعد أن نجوت بأني كنتُ على الرصيف ولم أشعر إلا وأنا أسقطُ وشيءٌ هائلٌ صعد فوقي وأدخلني في لجةٍ مضطربةٍ وفوضى فضعتُ في الصراخ والضجيج والألم، كنتُ غير قادرٍ على الكلامِ أولَ الأمرِ.

في ظهيرةٍ حارقةٍ من ظهائرِ تموز، كنت عائداً من السوق، توقفتُ جوار عربة خشبية يبيع صاحبها المثلجات على الرصيف، اتكأتُ على خشبها مظاهراً تقاطع طرق، منتظراً صحني، فجأة رأيتُ الفزعَ يَنهب وجه البائع الكهل، وبدون أن ينطق بحرفٍ هرب وبقية الأطفال كل إلى ناحية وعيونهم تحملق نحوي بهلعٍ، التفتُ مدهوشاً، فرأيت كتلة هائلة الحجم تهبط عليّ مثلَ طائرٍ ينقضُ من السماءِ، كان لوري ركاب خشبي قديم، فَقَدَ السائق السيطرة عليه، فصعد الرصيف وأسقطني تحت عجلاته. لم أعد أعي ما يجرى، ما تبقى في ذاكرتي؛ تنادى بشر وأصوات متداخلة وعشرات الأذرع تسحبني من تحت العجلة الأمامية التي تبين أنها داست حافة دشداشتي العريضة ولفتني إليها كاتمةً أنفاسي، الوجوه قريبة تضخمت وهي تنحني عليّ، تحملني أذرعها، شيء مثل كابوس لا ترتيب لأحداثه، صورٌ متفرقة، سريعة متحركة، سيارات متوقفة، حشد تضّخم،

منشورات «الفيا» «AlFyaa

ووجدتني محمولاً بذراعي شاب قوي أتجه بيّ إلى سيارة مفتوحة بابها الخلفي، أجود بأنفاسي باحثاً عن الهواء، ترجّى السائق كي يسرع إلى المستشفى الجمهوري القديم القريب الذي لا يبعد سوى 200متر، كنتُ بين ذراعيه، تخيلتني ميتاً محمولاً على الأكتاف بتابوتٍ ملفوف بإيزار والمكبِّر يتقدم جنازتي مكبراً. مشهد أراه بين الحين حينما يُشيَّع ميت من "حي العصري"حتى الصوب الصغير ومحطة سيارات النجف سيراً على الأقدام. كنتُ أدرك معنى الموت يا أمي، ورأيته يتقطر من بين يديك في باحة بيت الجيران، تخيلتك تعوّلين عليّ وهم يحملونني إلى حفرتي الباردة، ومن بين أنفاسي الضائقة، وشهيقي الذي يشبه الشخير، رحت أتوسل بـ "سلطان الشطاوي"المتماسك النظرات مردداً:

- عمي خاف أموت، خاف أموت!

أتذكر عينيه الواسعتين الحنونتين وهو يطمئنني بقسماتٍ وديعةٍ واثقةٍ:

- لا تَخَفْ عمو لا تَخَفْ دقائق ونوصل المستشفى، لا تخف.

منحتني كلماته أماناً كأنها منقذي، من يومها أدركتُ ما للكلمة من قوة وفعلٍ وقت المحن والألم، سأتيقن من ذلك في تجارب أشدّ سأمر بها.

وقت الحادث، كنتُ قد بلغت سنتي الثانية عشرة.

لم أَغِب عن الوعي تماماً، كنتُ ألهث ساعياً خلف الهواء، وضعوني على سريرٍ أبيض، وثبتوا ماسكة الأوكسجين حول وجهي، ما أن تدفقَ الهواء إلى رئتيَّ حتى هدأتُ، خَفَّتْ لوعتي فسكنتُ ساقطاً بنومٍ عميق لأستيقظ على صوتكِ المفزوع وأنت

منشورات «الفياء» AlFyaa

تتلمسين جسدي وتمررين أصابعكِ المرتجفةِ من قمة رأسي حتى كعب قدميّ مرددةً:

- أبني صاير ها طوله وما ادري.. يا ربي ليش.. ليش تريد تاخذه مني ليش!

قبل أن تبعدك الممرضات. جملةٌ انحفرت بكياني أسمعها حتى الآن بوضوحٍ، كيف تنتبهين وأنتِ مشغولةً بإطعامِ وإكساءِ ومتابعة عشر أخوةٍ وأخوات، بينما كنتَ يا أبي متماسكاً تضحك مع صديق لك وتربت على رأسي بوجهٍ محب لا خشيةَ فيه وتردد:

- أبني سلومي أنت بطل.. بَطَلْ!

لم أفهم حكمة قولكَ، لكن تماسككَ شَدَّ أزري في مواجهةِ الحياة، ذلك ما أدركتهُ متأخراً وأنا أستعيد التجارب كتابةً.

لم أمتْ، نجوتُ لأشهد الويل في صُوَرِهِ المتنوعة.

أيها الموت

يا صديقي

تعاشرنا حتى أحببتني جداً

فأحجمت في كل مرة

توشك فيها على عناقي!

مثل من يضاجع أجمل النساء

ولا يريد أن يصل الذروة

منحتني وقتاً، لإكمال الرحلة،

منشورات «الفيـاء» «AlFyaa»

وتصويرها

* * *

4- في الزنزانة

ماذا تعني حياتك يا أبي وأنت تُخْطَفْ من الشارع، من مكان العمل، من المقهى، من أي مكان تتواجد فيه، كما حدث معي في المرات الخمس، مرة وأنا مراهق من شارعنا في "الحي العصري"، تلقفتني أيادٍ قوية شرسة ووضعوني في سيارة "فوكس واكن"قديمة، وهي الوحيدة تمتلكها دائرة أمن الديوانية، والثانية بعدها بسنتين في سيارة أحدث، والثالثة بعد سنوات أربع أنزلوني في نقطة تفتيش بطرف المدينة وكنت قاصدا مقر عملي في دائرة زراعة الشامية، والرابعة بعدها بأشهر من وسط حقول حنطة في ريف آل بدير، حيث كنتُ أعمل مشرفاً تعاونياً، والخامسة بعدها بسنة وبالضبط يوم 6-6-1980من بارٍ بصحبة صديقي "عبد الحسين داخل"الذي كان يعمل معكَ في شركة البزل اليونانية، وشيوعيين متخفّين من أصدقائه، لم يريا النور أبداً إذ سيعدمان، كنت وقتها عسكرياً مساقاً إلى خدمة الاحتياط قبيل اشتعال الحرب العراقية الإيرانية بثلاثة أشهر.

ماذا تعني حياتك؟ وبأدق ما قيمة الحياة نفسها حينما يَنْقَضُّ عليكَ رجال أقوياء غلاظ مسلحون في أي مكان ولحظة يختارونها، وسط لا مبالاة أبناء جلدتك من العراقيين المذعورين السائرين في الشارع حولك، يقيدون يديكَ إلى الخلفِ بجامعةٍ حديديةٍ، ويضعونكَ وسطهم في المقاعد الخلفية لسيارةٍ أنيقةٍ، يحجبون عينيك بقطعة قماش تفصلك عن المحيط فلا تعرف منذ

منشورات «الفيـاء» «AlYaa»

تلك اللحظة أين أنت وإلى أين يتجهون بكَ، فتعود مثل من يُهبَطْ به إلى ظلام العالم السفلي في الأساطير القديمة، تحاول شحذ الحواس الأخرى؛ الشم والسمع واللمس مستسلماً تنتظر حتى يضعونك في زنزانة لا نافذة لها، تشعر بها مدفونةً في جوف الأرض كأنك دخلتَ عالماً طالما تخيله البشر عَقِبَ الحياة، عالم مظلم لا مخرج منه، مكانٌ لا يعلم به أحدٌ إلا الله، في تلك الأماكن المعتمة الباردة أو الحارة لا يسأل عنك أحدٌ، ولا يعرفك أحدٌ، تكون بالضبط مثل حالكَ في يوم الحشر كما صورتهُ الكتب السماوية حيث تكون وحيداً محاطاً بأدوات الله، ملائكة من نار لا قلب لها، مثل سجاني الأقبية العراقيين لا قلب لديهم ولا رأفة ولا شفقة، يتعاملون معنا كأشياءٍ مصابةٍ بوباءٍ مهمتهم التمهيد للتخلص منها، انتابني هذا الشعور في أخر اعتقال، زمننا غير زمنك يا أبي، كانت أمي تجلس في موضعها أمام باب الغرفة بحيث تستطيع رؤية السماء وتخاطبني دون أن تنظر صوبي كأنها ترى المشهد الذي ترويه:

- يمه كان أبوك بزمن الملك يحجزوه لما يتظاهر بمقر الفرقة الأولى بذاك الصوب، ونقابله ونعطيه أكل وشرب، حاطيهم بقاعة ويگدرون يطلعون للحديقة بالنهار وبالليل ينامون بيها. هسه واحد يخاف يروح يسأل على ابنه!

كانت تشكو انقطاع أخبار أخي "كفاح"المتخفي عن أنظار السلطة الذي كانت تلتقيه سراً في بغداد، وهي محقة جداً، المعتقل يتحول إلى شيء، أباحت السلطة للسجان فعل أي شيء بنا، لا أتكلم عن التحقيق والتعذيب لغرض انتزاع الاعتراف والمعلومات، هذا ما لم أستطع وصف وقعه أبداً لا في قصصي ولا في رواياتي، حاولت لكنه عصيٌ على الوصفِ، كيف

منشورات «الفياء» «AlYaa»

يستطيع أي كائن التعبير عن خلجات ما يَسبق خروج الروح التي تتكثف وتتجمع في البلعوم في ذروة تسبق مغادرتها، وهم يعلقونك مقلوباً كالذبيحة بكرسي خشبي، أو يصعقونك بالكهرباء، أو يغمرون رأسك في حوض ماء، كيف تصف وتصور ذلك، حتى السينما لم تستطع تصوير أثرها على النفس البشرية هذا ما توصلت إليه في بحثي بأفلام تصور مشاهد التعذيب الجسدي ومقارنتها بما شعرت به واقعاً من هلعٍ كوني، هذه خلاصة بحثي لا في السينما فقط بل في الكتب التي صورت التعذيب، ما تمنيتهُ وأنا على صراطِ العذابِ ذاك في عتمةِ العالم هو أن تغادرني الروح لأستريح، لكن هيهات أنهم يحسبونَ كل شيء، في الأمن العامة ببغداد لم أبق سوى ثلاثة أشهر، لم يضعونني في زنزانةٍ بل عزلوني و"عبد الحسين"مع المشتبه بهم، ولكوني عسكرياً لم يطلق سراحي، بل أخذوني مع معتَقلٍ أخر إلى دائرة الشعبة الرابعة استخبارات عسكرية، كانت وقتها في وزارة الدفاع بباب المعظم، سلمونا، فأوقفونا إزاء جدار بناية يحرسنا جنديان في مقتبلِ العمرِ منتظرينَ تسجيل إدخالنا، وفجأةً جاءَ من الغرفةِ جندي راكضاً وسألنا:

- منو منكم "قاسم"؟

- نعم سيدي!

قال صاحبي فضربهُ بأخمص بندقيته على ظهره، عَصّبَ عينيه بعنفٍ وأوثقَ يديهِ إلى الخلفِ، ودفعه حتى لاصق آجر الجدار، "قاسم"من الأنبار يكبرني بخمس سنوات، كان في لقاء مع خاله الشيوعي المتخفي حينما أُعتُقِلَ كما سيخبرني لاحقاً في قاعة الحجز، كنت أراقب ما يجري مدوراً عينيّ دون تحريك رأسي، جاء بعصا من حديد وراح يضرب ساقيه من الخلف

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

صارخاً:

- كلب.. شيوعي..

أخذ يبرر متوسلاً وهو يتلقى الضربات من شابٍ بعمر أبنه، كونه بريئاً وترك الحزب الشيوعي، لم تكن مهمة الصبي التحقيق، كان يمارس فعل الإذلال بما مُنِحَ من سلطةٍ وكأننا عبيد، مشهدٌ ظلَ يعاودني في مستقبلِ الأيامِ، فكنتُ أتفادى التوسل عند الوقوع بمأزقٍ وأحاولُ التماسكَ مهما كانتْ شدة الموقف، لحظتها لم أكن أعلم أن هذا المشهد ما كان إلا مقدمة لعالمٍ سفلي يجري في وضحِ النهارِ دونَ حجب العيون.

قادونا إلى الموقفِ المكون من غرفٍ طويلةٍ متلاصقةٍ تظاهر قاعة الشعب المواجهة لبابِ المعظمِ، القاعة التي حكمَ فيها "المهداوي"على أسلاف سجانينا من القوميين بالإعدامِ "عبد السلام عارف وجوقته"فعفى عنهم الزعيم الأوحد "عبد الكريم قاسم"بكلمته الشهيرة "عفا الله عما سلف"لينقلبوا عليه ويعدموه في اليوم التالي لصبيحة الثامن من شباط 1963في غرفةٍ بإذاعةِ بغداد بالصالحية، وقتها كانتْ تتدرب في القاعة الفرقة القومية العراقية للفنون الشعبية، نسمع صوت الموسيقى أوقات مرانهم، في الواجهة مركز فنون وبظهره جهنم محشور فيها أكثر من سبعين نفراً في غرفة طولها سبعة أمتار وعرضها ثلاثة. وفي يومٍ حدث حريق فسمعنا نداءات أنثوية تستنجد وصياحاً فزعاً، تخيلناهن يهربن من لهب النار، وأي ليلة عاشها الموقوفون تلك، نسى البعض مصيبته وانشغل بوقع الصرخات وكلماتِ الاستنجادِ، أي نشوة تراقصتْ في الوجوهِ المصفرةِ الملتحيةِ لسماعهم أصوات أنثوية تستغيث، أي نشوة وكأنهم ضاجعوهن للتو.

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

في غرفة من غرف قيامة الشعبة الرابعة لَمَستُ جوهر الذل وفداحته، أغلب الموقوفين إلا قلة أنهوا التحقيق وينتظرون التسفير، من ثبتتْ التهمة عليه إلى سجن رقم واحد في معسكر الرشيد، ومن لم تثبت إلى وحداته العسكرية مثل حالي، بعد مرور ثلاثة أيام لم أعد أشم عطن الأجساد الذي خنقني أول يوم، كنا شبه عراة نتلاصق في الجلوس، أما عند النوم فأذرعنا وسيقاننا تتشابك حتى نبدو مثل قتلى بعد معركة طاحنة كوموا على عجلٍ.

في حيزٍ ضيقٍ قربَ الباب والشباك الصغير المطل على باحةٍ صغيرةٍ تكومت الأحذية العسكرية السوداء تلاً حتى حافة الشباك، يستخدمه المناوب في النوم جلوساً لتوفير فسحة يحشر السجين فيها جسده ويغفو، كان غالبية الموقوفين يرددون وقت مناوبتهم على كدس الأحذية أدعية أو يكررون قراءة آية قرآنية مئات المرات طوال الليل وبصوتٍ خافتٍ يسرى فوق الأجساد المنهكة الغاطسةِ في كوابيسها، يرددون حتى مطلع الفجر الوقت الذي سيسمح فيه للمناوب النوم بكامل طوله حتى قصعة الغداء، نصحني شاب يصغرني بسنواتٍ يناوب جواري على تل البساطيل همساً وكأنه يفضي بسرٍ بعد أن أطالَ التحديق بصمتٍ في وجهي والأجساد المبعثرة في غفوتها:

- خويه ليش ما تقره أدعية يگولون إذا عبرتْ المية دون استراحة راح تفرج عليك!

في أيامٍ قليلةٍ صرتُ مثلهم، كائن بدائي، حيوان في قفص، ننتظر قصعة الصباح المكونةِ من شوربة العدس والصمون العسكري اليابس بشهية وشوق ولهفة تتقد كل يوم. قبل قصعة الشوربة تفتح الباب فنركض وسط صياح الحراس الواقفين في

منشورات «الفيل» «AlfYaa»

صفين وكل واحد منهم يحمل عصا طويلة وغليظة:

- أركض ابن الگحبة..

تلسعنا العصي المشهرة من الجانبين، ندخل المراحيض الستة المتجاورة، بعد دقيقة واحدة أو أقل تنهال العِصِي على الأبواب الحديدية القصيرة مصحوبة بشتائم ودعوة للإسراع، فنقطع برازانا، ونخرج راكضين لتفادي ضرباتهم، يفعلونَ ذلك بلذةٍ وحبورٍ، مشرقي القسمات، وجوه عجيبة تأملتها طويلا من خلف القضبان، مبتسمة، واثقة من نفسها، مقتنعة بما تقوم به، تتكلم بمرح، لم ألحظ في وجوههم علامة ألم أو تعاطف مع وضعنا، وفيماً عدا لحظات غضبها وفقدانها الأعصابِ أراها لا تحمل لنا أي مشاعر وكأننا لسنا بشراً بل أشياء، خرق بالية أو سقط متاع.

كان جو الريبة يَعُم حيز الجحيم الضيق ذاك، إذ يدسون بين الحين والحين جاسوساً ينقل لهم ما يجري، لكن حينما دفعوني بعنف إلى وسطهم، لبثتُ واقفاً بمكاني وعشرات العيون تفحصتني لدقائق، ثم أحاطوا بي بوجوههم المرحبة وكأن لديهم فراسة تشخص المدسوس من عدمه، عراقيون منسيون منذ سنين في الزنازين، بعضهم أخبرني بأنهُ منذ سنتين يتنقل بين المواقف وملفه كُتِبَ عليه "استخبارات حفظ"، أخر همس في أذني بعد أن عادَ من التحقيقِ وهو يقفز قفزاتٍ قصيرةٍ كملسوعٍ من شدةِ الألمِ:

- أش احچي سمعّوني تسجيل أشتم به الرئيس بمحلي.

ميكانيكي سيارات بالحي الصناعي بالنجف، أخر مهندس همس بأذني عن حلمٍ أدى به إلى هذا العالم المنسي حسب تعبيره، حَلم بثورة ضد الدكتاتور فهتف في نومه مؤيدا كما

«AlIYaa منشورات «الفـ ياء»

أخبره المحقق، فالجندي النائم جواره بقاعة منام المعسكر، سمعه وأَخبرَ عنه، بشر مذلون مهانون لا يعرفون مصيرهم، بعضهم شجاع ينظر باستخفاف لمن أعترف وضعف وهو يُمَسِحْ ندوب ظهره المُحَقّر من أثار التعذيب، ندوب لم تزل طرية، ويقول بصوتٍ يسمعه الجميع:

- مع الأسف يضعف الإنسان مع الأسف

يصمت قليلا، يتحسر مردداً بخفوت:

- يا جماعة هي موته وحده!

سيأخذونه إلى زنزانة الإعدام، وهو يهتف بالحرية وسط الحراس الذين لم يتجاسروا ويضربوه.

ماذا أحكي لكما يا "عبد سوادي"و "علية عبود"ماذا؟

بعد قرابةٍ شهرٍ اشتدت ثقتهم بيّ، فسمعتُ قصصاً تدير الرأس وتعمي العيون وتقلب المعدة، وعشرات الجنود والعرفاء ونواب الضباط والضباط الموقوفين يهمسون بأذني وسط الحشر لِيرون كيف ولماذا اعتقلوا؟ قصص تقشعر لها الأبدان، والأخ يشي بأخيه، الجار بجاره، الصديق بصديقه، الزوجة بزوجها، والابن بأبيه، قصص تجعلك تُشَكِكْ بكل ما يحيطك، عالم يريكَ العراق مجسداً بقباحةٍ والعراقي يشي بالعراقي، عالم سفلي مشوش رأيتُ مشهده الأخير قبل ترحيلي إلى وحدتي العسكرية بيومٍ واحدٍ، مشهدٌ ظلَّ يتجسد حياً كلما تذكرته وكأنه يجري أمامي.

ثلاثة أمتار كانت تفصلني عن جسدِهِ النحيف العاري حد الحزام، ثلاثة أمتار، أي لوحة مُجَسّمة في منتصف ظهيرة

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

حارقة سترسخ معاشرةً باقي أيامي في كوابيس اليقظة والمنام، أي جرح غارَ في قلبي، أي شعور بلا جدوى الحياة ومآلها كافحت بشراسة كي أخرج منهُ وأتوازن، قبل أن أصف المشهد يا والديَّ أخبركما شيئاً عنهُ، عراقي في الثلاثين، شديد السمرة، نحيف طويل، دفعوه بخشونة وسطنا من باب الزنزانة فهتف العديد من الموقوفين:

- هَمّ جابوه المسكين!

استفهمتُ من الواقف جنبي، فنفث حسرة وقال بأسى:

- هذا مسكينْ، يمكنْ مَجنونْ يَدّعي "لواء بالجيش"خطط وقاد معارك كثيرة ضد الأكراد العصاة بالشمال، يُعتقل ويدخل الصراط اللي أحنه عليه لما يتأكدون أنه مختل، يكون شِبَعْ گتل!

وفعلاً هَرَجَ القاعةَ هرجاً بأوامره العسكرية الصارمة، اندهشتُ أول الأمر لتنفيذ الموقوفين أوامره لكنهم أخبروني لاحقاً بأنهم يفعلون ذلك حتى لا يحدث هرج وصياح يؤدي إلى تعذيبه من الحراس كما يحدث في المرات السابقة. أفسحوا له حيزاً يستطيع الوقوف فيه وتأدية حركاته العسكرية وأوامره التي تثير تعاطف الوجوه الشاحبة المحيطة، لكن من سوء حظه، أن حرس حدود إيراني لجأ والحرب لم تشتعل بعدُ، مع صبي صغير جميل ناعم إلى قوات مخفر عراقي، الإيراني الطويل الضخم يحيط الصبي بذراعيه الطويلتين طوال الوقتِ، كانوا بانتظار التحقيق وصراط العذاب، أتوا بهما قبل أيام، لا يتكلمان العربية، فاستغلا انحسار الموقوفين فاحتلا الفسحة مما أثار غضب "اللواء"فقز صارخاً ورفس الصبي ببطنه فانفجر باكياً، ليتحول الإيراني العريض المنكبين بوجهه التتري إلى أسد يطلق

منشورات «الفيــاء» AlFyaa»

زئيراً مخيفاً دافعاً بذراعيه المتينتين الصلبتين من مركز صدره إلى الجانبين بحركة سريعة كونت فراغاً أبعد الأجساد عن الصبي المذعور الباكي. جلبتْ الجلبة أنتباه الحراس، استفهموا عن الأمر فعرفوا، أخرجوه سحباً عنيفاً من كتفيه الناحلين فتَمَزقَ قميصه الأبيض الخفيف، أوقفوه لصق عامود حديدي يسند سقف الطارمة، صار أمامي لا يفصلنا سوى قضبان النافذة وثلاثة أمتار، قبل أن يربطوا قدمية ويديه إلى العامود سحب أحد الحراس قميصه الممزق فأصبح عاري الصدر، كان ينظر بعينين شاردتين وكأنه لا يراهم:

- تتراهن هذا المخبل ما راح يگول أخ!

- شلون؟

يبدو أن الجندي المندهش كان جديداً، أتما الرهان ضاربين كفاً بكفٍ لينفتح المشهد، تناوبا على ضربه، تناوبا يا علي بن أبي طالب، تناوباً جعلني أضغط بقبضتيّ المتوترتين قضبان النافذة، متابعاً قسمات وعيني الجلاد الهام بالضربِ أينما يشاء، في الجذعِ الأعلى العاري، في الأسفلِ، بين الخصيتين، في أم الرأس، أَنقل بصري المضطرب بين وجه المهاجم ووجه المربوط النحيف الذي كان شارد النظرات كأنهُ في مكانٍ أخر، بدا منصهراً بالعامود مصبوباً فيه يتلقى الضرب بوجهٍ لا يصدر منه سوى خفقة ألمٍ خاطفٍ مثل من وخَزته إبرة ليعود إلى صلابته وجهامته ثم شروده إلى عالمٍ غير المحيط به، فيلتفت المتراهنان ينظران في عيني بعضٍ بدهشةٍ يخاطب الجندي القديم صاحبة بنشوة:

- مو گتلك ما يگول آخ!

منشورات «الفيلياء» «AlIYaa»

يشحذ الجديد قواه متحولا إلى وحشٍ كاسرٍ لا قلب فيه يتفنن في طرقِ وأمكنةِ الضرب، في أخر جولة التفت إلى زميله وقال له:

- هذي الضربة راح أخليه يصرخ!

أبتعد حتى جدار البناية البعيد ثم َ هَبَّ راكضاً نحو الكتلة الناحلة محنية الرقبة إعياءً، صارخاً صراخاً مبهماً وأصطدم به رامح الركبتين، شاد القبضتين، صلد الهامة، نطحه برأسه وضربه بقبضتيه على صدره وصدمه بركبته في وسطه بنفس اللحظة، الاصطدام وقعهُ مثل انفجارٍ مكتومٍ صداه عاشرني بقية العمر، لم يتداعَ الجسد الناحل، رأيته ينتفض كأنه يهرب من هاويةٍ انفتحتْ تحته، رفعَ رأسه، لاصَقَ حديد العامود. أصبح بمواجهتي بعد أن دفعتْ بهِ الضربةُ عكسَ جهة الشمس، رأيتهُ ساكناً مطبق الأجفان لثانية أو اثنتين كأنه ينتظر شيئاً ثم أنهمر الدم شلالاً من فتحات أنفه وأذنيه وفمه، أرتبكَ السجانون وجعلوا يتصايحون، فيما ضجتْ الزنزانة بالنحيبِ وكأن حسيناً يذبح أمام أعينهم. لا أدري ما أصابني في اللحظةِ التي تحول فيها رأسه المتدلي النازف إلى علامةِ استفهامٍ جارحةٍ، لا أدري، لكنها كانتْ لحظةً مفصليةً في حياتي شعرتُ أن أمامي مسارين لا ثالث بينهما، فأما الاستكانة وقبول كل شيء للتخلص من مصيرٍ مشابهٍ لمصير "اللواء المزيف"المسكين المربوط النازف والتحول إلى عبدٍ ينفذ ما يؤمر به، أو التمرد ومواجهة مصير مشابه، موتاً مأساوياً في زنزانة.

هل التقية كما فعل أصدقاء قلوبهم ضعيفة حلاً؟

مجرد صيغة السؤال كانتْ تثير لدي الغثيان!

منشورات «الغـيـاء» AlYaa»

كانت لحظة مفصلية في حياتي، حضرتني يا "عبد سوادي النجار"، وسمعت جملتك الأثيرة:

- هي موته وحده فلنمتْ بشرف!

كان من سابعِ المستحيلات تخيل نفسي مخبراً، أما على الحياد، أو لزوم البيت والسير لصق الجدران، أو الخلود إلى الصمت وتحاشي قول الحق تقيةً، هذه ليست من طباعي، وما لم تورثني إياه، أنا مثلكَ يا أبي؛ شعلةُ نار تسير في الشوارع وَتَحِلُ في الأمكنةِ والأزمنةِ.

الناحل الأسمر المسكين الذي طلعتْ روحه أمام ناظري حزَّ بقلبي جرحاً أبدياً دفعني لمعانقة الحياة بعنفوان وشرف.

أسمعا يا "عبد سوادي وعلية عبود"، لم يحس الحياة أحدٌ مثلي، لا فيلسوف يرى في الأشياء ما لا يراه البشر، ولا شخص هش تلذذ بالمباهج لثروة عائلية هائلة، ولا فلاح قرية أحب جارته وفاز بها حتى مات طاعن السن بين يديها، ولا.. ولا، لذتي بالحياة لم يتذوق مثلها إلا نبي، لذة هي الحياة في لحظتها التي يظنها من كان يمشي جنب الحائط كل العمر أنها في متناول يده وهو لا يدري بأنه لم يلمس عمقها أبداً مثل فقاعة تنفجر في أية لحظة أو في نهاية عمره،

كيف أوضح الأمر

حسناً

هو لا يدرك معنى الهواء حينما يَعِزُّ النَفَسْ، هذا مسني في الغرقِ، وفي ضغط عجلة لوري الخشب الذي دهسني، ثم لاحقاً في منتصفِ العمر حينما أصبتُ بقصفٍ كيمياوي أعطبَ رئتي

منشورات «الفيلاء» «AlIYaa»

إلى نهايةِ العمرِ، لا يحس أبداً لذة عَبَّ الهواء يظنها من موجبات الحياة، وهي كذلك لكن لا يشعر بلذتها العميقة أبداً.

أزداد تشبثاً بالحياةِ بعد كل تجربةٍ، فتحولتُ من كيانٍ مهزوز الثقةِ إلى كيانٍ ساخرٍ، يخلقُ النكتةَ من أبسطِ تفصيلٍ، ملتصقاً بِمَثَلِهِ الأثير "الحياة فقاعة فصورها قبل أن تنفجر". لم يثنِ عزمي مقتل "اللواء المزيف"على مسافةِ ثلاثة أمتار مني، بثُ أكثر حذراً من أبناء جلدتي القساة وسلكتُ دَربَ الصد ما ردْ متعقباً أثر أخي "كفاح"وأولاد عَمْتَيَّ "صلاح و علي"الذين صُفُّوا بطريقة مشابهة، تتبعتهم بيقينٍ منقوصٍ، وبعزمٍ أجدهُ اليوم يشبه النبوءةِ أو الرؤيا، أُطلقَ سراحي وبدلاً من السيرِ جنبَ الحائط، ألقيتُ نفسي في غمرةِ تنظيماتٍ سريةٍ قادتني من خطرٍ إلى خطرٍ أشد، ومفرق الجماعات يخطفُ من جواري جنوداً في الجبهة وثواراً في الجبال، ورفاقاً في الزنازين ويتركني.

أترجاه الآن أن يدعني إكمال روايتي عنكما.

اندفعتُ بعزمٍ لا يعرف الكلل، خضتُ معركةَ الحب وتزوجتُ، رغماً عن العائلتين المعترضتين، رفيقة العمر، انغمرت معي في الأسرار والمخاطر وصورة "اللواء"النحيف متدلياً وقدميه غاطستين في بركةِ دمٍ تتسع لم تغادرني بل قَوّمَتْ معنى العيش وفتحت لي أبواب وطرائق للتخلص من موتٍ كموتِ خروفٍ يقادُ إلى المسلخِ،

فماذا فعلت؟!

مع إيغالي بالعمل السري وضعتُ تحت يدي حبوباً شديدة السم، لم أضطر إلى بلعها، إذ يحدث في كل مرة ما يجعلني أفلت بمصادفة، وفي "إرسي"عمتي الذي اختفيت فيه أشهراً

منشورات «ألف ياء» «AlYaa»

باعتْ "ناهدة"ذهب صغيرنا "كفاح"واشترتْ مسدساً كانتْ تظنُ ويظنُ صديقي الشاعر "علي الشباني"الذي كان مصدر السلاح أنني سوف أواجه به، لكني كنتُ عازماً على وضعِ رصاصةٍ في رأسي حال محاصرتي وهذا ما لم يحدث.

لم أعِشْ على صراطٍ مستقيمٍ واحدٍ بل على عدةٍ منهُ فحينما اضطرتني ظروف التخفي للتسليم إلى وحدتي العسكرية عشتُ جندياً في الجبهة قرابةَ عامين، في كل الأحوال وسط هدوء الجبهة أو اشتعالها كنت ألقم بندقيتي طلقةً متهيئاً للمقاومة ثم الانتحار فيما لو حاولوا القبض عليَّ.

تقلبتُ بين لذة عيش اللحظةِ بعنفوانٍ وَعَدَمِ الموت المحيط بيّ، بين ذروة الغبطةِ وهوة اليأسِ فعشتُ وقتاً متفجراً عصياً على الشرحِ يا والديَّ، كان عيشاً تلذذتُ فيه باللحظةِ والأيامِ بعمقٍ ومسرةٍ وشغفٍ لا يوصفْ ولا يقاسْ.

أترياني يا حبيبيَّ "عبد وعلية"أي عمق بلغتهُ في عمرٍ حينما رويته كُتُبَاً ظنوني معذباً ولم يفهموا سر مقدرتي على الضحكِ والتنكيتِ والرقصِ وارتكاب الحماقاتِ، تذوقتُ الحياة من أعمق جذورها وحتى ندى الأوراق، عن الموت الذي لاعبني سأواصل قص ما لم أحكِه لكما وقتها.

* * *

5- عنه دقيقة واحدة.

تعلمان قصة عودتي مرة أخرى جندياً في جبهة الحرب، تسللتُ من بين الثوار في الجبل سراً مطلع 1983وتخفيتُ في بيوتٍ كثيرةٍ منها بيتنا في "العصري"وقتها لم أكن أعلم بأني

منشورات «الفيلياء» «AlfYaa»

أعيش أحلى أيامي وآخرها قربكما، ضاقتْ بيّ السُبل فاضطررتُ إلى تسليم نفسي في عفوٍ عامٍ، عدتُ إلى وحدتي في شرقِ البصرة، مكثتُ فيها سنتين مرعبتين في أتّون معارك "مجنون"الطاحنة قبل أن التحق مع "ناهدة"بشكل نهائي بالثوار، سأحكي لكما كيف خطف "هازم اللذات ومفرق الجماعات"جنبي ومسني مساً مباغتاً، كان على مسافة دقيقة فقط أو أقل.

من ناحية "الدير"الواقعة بين البصرة والقرنة تحملُنا شاحناتٌ عسكرية إلى وحداتنا المنتشرة على طول الجبهة مع إيران، تُلقي بنا إلى حافة النار. إلى يسارنا حقول "مجنون"النفطية وسط الهور، كانت الدنيا تضج وتصطخب كيومِ القيامةِ مع كل هجوم إيراني جديد، نلازم فيه مدافعنا ونرمي وقوفاً لأيام دونَ استراحةٍ ولا نومٍ، ومن حسن الصدف أن صنفي مدفعية بعيدة المدى.

في ظهيرةٍ مشمسةٍ هادئةٍ نادوا بمكبرات الصوت على أمراء الحضائر للحضور إلى مقرِ الطبابةِ لاستلام عدد طبية جديدة، ذهبتُ واستلمتُ، في طريق عودتي رأيت نائب العريف "سعد"المعين ينحني على جهاز تضبيط المدافع المنصوب باتجاه الأهداف المعادية بإرشادات من ضابط الرصد، قبل أيام طلبتُ منه أن يعلمني كيفية تحديد الأهداف وقتها لم أزل متحمساً للحرب الثورية التي كنت أظن أنها ستخلق حياة كريمة لأبناء جلدتي بقوة السلاح، كلمته بالأمر فرحبَّ دون أن يسأل لمَ وأنا قداح، ناداني ما أن رآني مقبلاً:

- سلام حبوبي تعال اشرح لك شلون نوجه المدافع!

على بعد خمسة أمتار منه ينهمك "عبد فرج"رامي مدفع

منشورات «الفيا» «AlfYaa»

مقاومة الطائرات بحفر ساقية يدفن فيها السلك الموصِل موقعه بغرفة القيادة، الظهيرةُ حارقةٌ، سقطتُ برغبةٍ جارفةٍ بغفوة قيلولة، رغبة استفحلت فعدتُ أباعد أجفاني بعناء، و "سعد"البصراوي الحبوب يشرح "كان شابا جميلا طيباً خريج معهد التكنولوجيا"، يشرح و يشير نحو الجهاز المزود بناظور، تحول كلامه إلى لغطٍ والنعاس أفقدني التركيز وجعل أجفاني تتعانق فتمايلتُ في وقفتي المنهكة.

لا أدري هل هو القدر؟

هل هي غريزة البقاء؟

هل هو الله؟

هل ثمة ملاك حارس يخفق حائماً حولي ويحثني على الابتعاد؟

لا أدري!

صارت رغبتي بالنوم مطلقة، فاعتذرتُ منه:

- سَعّودي تعبان.. ونعسان، في وقت أخر!

فرد جملة لا أنساها أبداً

- بكيفك حَبوبي سلوم بكيفك!

تابعتُ السير قاطعاً مسافة الثلاثين مترا إلى الحضيرة، هبطتُ درجتين من الدرجات الست، أهتز الملجأ بانفجار قريب أسقطني فتدحرجت حتى آخر السلالم الترابية، الوقْعُ كان فادحاً رَجَّ السقف ونثر التراب فوقي، هببتُ بعد ثواني منتفضاً منتصباً، تسلقتُ السلالم الترابية، وركضت صوب زميليَّ اللذين سقطا

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

"سعد"تحت جهاز الناظم الذي لم يمسسه شيء وعلى مسافة أمتار خمس كان "عبد فرج"هامداً ممزق الجسد ساكناً في أبديته، أسرعتُ غير آبه بقذيفةٍ أخرى عبرت لتسقط خلف ساتر الموقع الترابي، كان "سعد"يرفس بساقيه بصمتٍ غير قادرٍ على الصراخ، يمسك ببطنه النازفة، حملته بين ساعديّ وضممته إلى صدري في المقعد الأمامي جوار سائق سيارة جيب أسرعت بنا إلى طبابة الكتيبة، نقعّني دمهُ الساخنُ المتدفق، وفي منتصف المسافة القصيرة بدأ يهذي بجملٍ لاهثة قصيرة مكلماً أباه:

- يا بوية لحگتك!.

وأبوه قُتِلَ في معارك "القرنة"القريبة من حافة الهور قبل شهرين، كان مساقاً في قاطع جيش شعبي.

لا أستطيع وصف وتصوير إنسان ينزف ويهذي ممزقاً في حضني، لا أستطيع، كنت فيه وكأنني هو، إلى أن فصلوه ووضعوه على سرير إسعاف انطلقت به إلى مشفى في البصرة، لكنه مات في الليل بالمستشفى التعليمي، بكينا ليلتها جميعاً الجنود والضباط.

الفرقُ كان دقيقة يا والديّ، دقيقة فقط!

إنّه الله

الله الكامن في قلبي.

* * *

6 – العودة منهُ

أتذكرْ يا أبي كم كنتَ فرحاً حينما همستُ بأذنك بأني سألتحق

منشورات «الفيا» «AlIYaa»

بالثوار، ترجيتك أن لا تخبر أمي إلا بعد مرور عاصفة اختفائنا أنا وناهدة، كنتُ مقدراً جنون السلطة في حالة نجاحنا بالإفلات من قبضتها، كنا مراقبين خطوة خطوة، وما توقعته جرى بالضبط، لم يبق قريب ولا بعيد لم يحققوا معه حال إفلاتنا، حتى أنهم اعتقلوا زوج بنت عمي نضال "مهدي رديف"الذي أخبرني عند عودتي عقب الاحتلال بأنهم حققوا معه وكان جوابه واحداً:

- لم أتبادل مع سلام في حياتي كلمة واحدة!

كان صادقاً لم نتبادل تحيةً أو حديثاً، بالرغم من صلة القرابة بيننا.

ظننتَ يا والدي بأنني سأكون في الجبل بين رفاقي آمناً، ولا تدري بأنني صرتُ على مساسٍ مباشر ويومي مع الموت القادم من قصف الطائرات والمدفعية للمقرات، وكمائن الطرق العامة، والمعارك، والسموم التي يدسها المندسون في حباب الماء والأكل، أو الاغتيال، وكان كل ما يحيط بنا موتاً، حام حولي مثل طيرٍ لا يكل ونجوتُ بمحضِ الصدفة في العديد من المرات، إلى أن أُصبت بقصفٍ كيمياوي في غروبٍ صيفي موحش من طائرات خطفت لدقائق ليس إلا، لم نكن نعلم أن ما قصفنا به كان سموماً، سأختصر التفاصيل التي دونتها في روايتي "في باطن الجحيم"لكن ما أود أن أخبركما به هو موتي لأيام عقب ليلة القصف الأولى، أحترق جسدي وأمتلأ بالفقاعات، فقدتُ الإحساس بالحياة والمحيط في منتصف ليلة القصف، لم أعد أتذكر شيئاً سوى أنني هبطتُ مثل ريشةٍ إلى عالمٍ أظلم مرئي لعينيَّ لأتيه في شوارع فارغةٍ جدرانها عالية أفضت بيّ إلى بيت قديم واسع الباحة، غرفه مرتبة بنسق غرف صحون الأضرحة المقدسة، مضاءة بشموعٍ مخفيةٍ في الزوايا، ووسط

منشورات «الفـياء» AlFyaa»

كل غرفةِ ضريح، في غرفة من تلك الغرف رأيتك يا أمي تقرئين بكتابٍ مفتوح موضوع على حامل قصير، حاولت الوصول إليكِ، زحفتُ وزحفتُ على بلاط الباحة وصوتك يملأ أذنيَّ، وفوق واجهة الغرفة رأيتكَ يا أبي تجلس في تجويفٍ محفورٍ بالجدارِ يسعُ حجمكَ، تنود بصمتٍ، متناغماً مع صوتِ أمي المنتشر، حلمتُ بعناقكما، النومُ في حضنيكما، شم رائحتكما، أسرعتُ في زحفي، فوجدتُ نفسي على سلالم تصعد وتستدير خلف الغرف والباحة وتضيع في يم الظلام العظيم، كان المشهد ورؤيتكما ناصية مدخل أفضى بيّ إلى ساحةِ الحشرِ المكتظة بالبشر العراة المتوجهين صفوفاً نحو ميزان أفعالها وبابَي الفردوس والجحيم، كل شيء عزمتُ على تصويره حال عودتي إلى جسدي.

بعد عشرة أيام عدتُ إلى العالم الأرضي شاعراً بضيق نفس شديد، وبالرغم من ذلك طلبت قلماً وورقةً من رفيقة دربي "ناهدة"التي سألتني مستغربةً:

- ورقة تريد حبيبي؟

- نعم! ورقة أصور ما كنتُ فيه!

نجوتُ مرةً أخرى يا أبي، وسأنجو بعد مرور سنة على ذلك الحادث وبمحض الصدفة أيضاً، بقينا في المقر نفسه الذي قُصفنا فيه؛ تُركنا مجموعة صغيرة من الثوار نقضي وقتاً ممتعاً بعيداً عن صرامة الواجبات في المقرات المكتظة، واجبنا حراسة المكان والانسحاب عند الخطر.

في غروبٍ موحشٍ مرّ صدفةً رفيق من تنظيم "العمادية"المدني، تعشى معنا وأبدى استغرابه من وجودنا قائلاً:

منشورات «الفيا» AlfYaa«

- رفاق القرى كلها نزحت للحدود التركية والجيش يقصف كيمياوي ويتقدم وأنتم جالسين هنا وكأن لا شيء يحدث!

ما أن غادَرَنا حتى استشاط مسؤول الموقع غضباً وأمر العوائل بمغادرة الموقع حالاً، كنا عائلتين، ترجيته فـ "ناهدة"كانتْ مريضة لكنهُ أَصرّ، فنزلنا قبيل حلول الظلام، عبرنا نهر "الزاب الأعلى"بالعربة المعلقة قاصدين موقعاً أقرب إلى الحدود التركية، توجهنا نحو موقع المكتب السياسي وهو أقرب موقع فالظلام حلَّ، بعد منتصف الليل بقليل دكت راجمات الصواريخ الموقع الذي كنا فيه، رأيناها تتساقط في رشقات متوالية، في الصبيحة التالية كُلِفتُ مع أربعة رفاق للاستطلاع ومعرفة ما جرى لرفاقنا، دفنا ثلاثة منهم على عجلٍ في حفرة قديمة، وأتينا بالمتبقين وهم شبه سكارى من غاز الأعصاب.

نجوتُ يا والديّ معطوبَ الجسدِ، سوف لا أكتشفُ ذلك إلا هنا في الدنمارك حينما وصلتها، كنتُ أجود بنفسي باحثاً عن الهواء ومستمر في التدخين والشرب بإفراط مثلك تماماً لكنهم ساعدوني هنا، مَدّوا في عمري، فعبرت السابعة والستين قبل أيام، صار الاختناق يتكرر في الشتاء والصيف وفكرة الموت مألوفة تشبه مقالة موضوعها مستهلك وممل، المرات التي أُدْخلتُ فيها المستشفى تاه عليّ عدها، وفي جميعها كان الهواء يضيع، وتحت ظل هذا التهديد المشهر طوال الوقت وتفاقم عجز رئتي كنت أجدّ وأكتب ما مرّ بي، وأخرها هذا الكتاب عن نشأتي وفيه ما خفى عنكما، كما هو حال كل الآباء والأمهات في جميع الأجيال لا يعرفون أبداً كيف نشأت فلذات أكبادهم الماشية على الأرض لا يعرفون، لا يعرفون، مثلكم لا يعرفون حتى الممات.

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

* * *

7- المفتوح

أُستُبيح عراقنا يا أبي، أُنتُهك من أفنيت شبابك وتَحَملتَ الجوع والسجون من أجل أسقاط الحكومات الملكية العميلة وخروج المحتل البريطاني، فالدكتاتور الذي أشعل حروباً وصفى كل مناوئ، وأحتل "الكويت"طُرِدَ بالقوة و حُصِرَ فجاع الناس وَتُلِفَتْ أخلاقهم، ليُسّلَم البلد إلى محتلٍ أمريكي أشد قذارة وقسوة من سالفه البريطاني، هرب متخفياً في جوف حفرةٍ ببلدة نشأته، أخرجوه منها ملتحياً قذراً مثل فأرٍ مذعورٍ وحاكموه وأعدم، اشتعلت بعدها حروب داخلية يقتل فيها العراقي أخاه في كل مكان؛ الشارع، المقهى، المطعم، البيت، المدرسة، مكان العمل، الحقول، الطرق بين المدن، قصص يشيب لها الرأس، قَتْلٌ يبدو ظاهراً لا غرض له، والحقيقة أنه لخلق الفوضى وجعل مكوناته الدينية والأثنية تتقاتل، تخريب مرتب ومنظم من فرقِ موتٍ سريةٍ وظفت خبراتها في تخريب دول أمريكا اللاتينية في سبعينيات القرن المنصرم، فرق تديرها مخابرات دول التدخل والجوار ضحيتها العراقي البسيط، إذ جرى تفجر مساطر العمال، الأسواق الشعبية، المطاعم المكتظة، المدارس، محطات النقل بين المدن.

في هذه الأجواء المضطربة لم أكف عن زيارة عراقيَّ غير آبهٍ بالموتِ، فقد حاذيته طوال القصة، الصدف وحدها أنقذتني كأن أكون بعيداً عن مكان الانفجار، أو مررت به قبل ساعة.

فقدتُ أحباباً خطفهم الموت الجائل و المُعَد في دهاليز معتمة،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

يبكر المفخخ أو سيارته وقت خروج الناس للعمل ليقتل أكبر عدد ممكن، فقدت صديقاً تشكيلياً جميلاً حالماً "ياسين عطية"يسكن جواري في كوبنهاجن، نزل إلى بغداد لزيارة أهله، وشاءت الصدفة أن يبكر ذلك الصباح ليفطر في مطعم على الرصيف المقابل، فَفُجِرَ المطعم، كان من المفترض أن يعود إلى الدنمارك في اليوم التالي، الثاني جاري في الطفولة "يوسف نهير"معلم مهذب وديع كان يتسوق في سوق السمك والخضر وسط الديوانية عصف الانفجار به وبأسماكه فتناثر أشلاءً، الثالث أبن عمك "كامل عباس"مدير مصرف خرج من بيته باكراً لشراء الفطور في "بغداد الجديدة"فأصابته شظية خرقت جبهته.

مئات الآلاف من العراقيين قتلوا هكذا، لا علاقة لهم بالقوى المتصارعة على السلطة ونهب الثروات، لم أنقطع بالرغم من تلك الظروف عن زيارتي السنوية الثابتة، كنت أقول لنفسي:

- ألف موته عِبرتك، وإذا متت!

بهذه الروح أجوب شوارع الديوانية وبغداد غير آبهٍ، بالانفجارات التي أسمع دويها قريباً أحياناً وبعيداً في أخرى، سأحكي لكما يا حبيبيَّ حكاية أختم بها حكايات الموت الذي حام حولي وذهب لغيري، حتى أن صديقي الدكتور "أحمد بن نعمة النجار"قال لي تلفونياً قبل أيام:

- أنت عجيب سلام، كل اللي رادوا يموتُكْ من صدام وشرطة الأمن و.. و.. كلهم ماتوا وأنت ما زلت حيّ.. عجيب!

أسمعا كيف أنقذني الروتين الحكومي من ميتةٍ مؤكدةٍ، خرجنا باكراً أنا و"عبد الحسين داخل"من شقته في الكرادة، تتذكره يا

منشورات «الفيْاء» AlIYaa

أبي كان يعمل معك في شركة المبازل اليونانية، قصدتُ المصرف العقاري المجاور للسفارة الإيرانية في الصالحية، لمتابعة معاملة سلفة بناء قطعة أرض أشترتها "ناهدة"أملاً في شيخوخة هادئة في حال عودتنا، كنا نحلم بقضاء أخر أيام العمر بين أبناء جلدتنا ولم ندرِ أو نقدر أن جحيم العراق لم ولن يخفت أواره حتى اليوم، كنتُ قد راجعت المصرف في اليوم السابق فطلبوا مني جلب كتاب صحة صدور من وزارة الهجرة.

افترقنا تحت جدارية جواد سليم في الباب الشرقي، عبرت جسر "الجمهورية"سيراً على الأقدام، من فرع صغير نفذت إلى الوزارة القريبة، لم أجد الموظف المسؤول أخبروني أنه سيأتي بعد ساعة، قضيت وقت الانتظار بالمشي رواحا ومجيئاً أمام البناية إذ لا يوجد مكان لانتظار المراجعين، فجأة هزَّ صوت انفجار ليس بعيداً، أعقبه أخر بعد دقائق، ارتجفتْ أوصالي، والموظفون خرجوا من الأبنية المتقابلة مرتبكين، في عيونهم خوف ولذة شريرة تبرق مثل وميض خاطف، هل انتابني مثل هذا الشعور؟ لا أدري، فضول رؤية ما يحدث في مكان الانفجار تشغلني، فكل يوم أسمع أخبار الانفجارات وأشاهدها في التلفاز لكن لم أرَها بعينيَّ، في هذه الأثناء رجع مسئول الذاتية قلب دفتر الواردة، لم يجد كتاب المصرف العقاري. سألته النصيحة، فأشار بمراجعة المصرف.

كانتْ شمسُ منتصف الظهيرة ساطعةً، استعدتُ هويتي وتلفوني من نقطة السيطرة، قطعتُ الزقاق الضيق نفسه إلى الشارع العريض المؤدي إلى جسر الجمهورية كان مكتظا بالجنود والشرطة المستنفرة إلى أقصى الحدود، عبرتُ إلى الرصيفِ المقابلِ، وفيما كنت أستدير لدخول شارع الصالحية

منشورات «الفيلياء» «AlFyaa»

سمعت هدير مروحية تطلق شرراً وتحوم بارتفاع منخفض قرب العقاري والسفارة الإيرانية، وما أن قطعت أمتاراً قليلة حتى ارتجتْ الدنيا بدوى انفجار أسقطني أرضا، فوجدتني منبطحاً على بطني أعانق حافة الرصيف وأغطي رأسي غريزياً بكفيَّ، متشنج الجسد، أرتعدُ، الدقائق جبال، والروح تفور بحلاوتها في السكون الذي ساد لوهلة، هببتُ من رقدتي راكضاً نحو أقرب زقاق يؤدي إلى المنطقة الخضراء، لبثت قرابة ربع ساعة إلى أن هدأت الأوضاع، وبدلاً من الابتعاد عن المنطقة التي انتشرت رائحة البارود الخانقة فيها، أسرعت إلى وسطه الذي كان من المفترض أن أكون فيه لولا صدفة غياب الموظف، الطرق والجسور قطعت، صرت وسط موقع الانفجار، دمار فظيع، رؤوس وأشلاء، أجساد متناثرة على مساحة كبيرة جدا، قبل شهرين فقط أوقفت صديقة لزوجتي تعيش في الدنمارك اسمها "كريمة"سيارة أجرة في عرض الشارع لتسلم عليّ ولتعلمني بوجودها في العراق، في نفس المكان بالضبط كانت سيارة أجرة محترقة تماما ولا أدري ماذا حلَّ بركابها، قبل شهرين عبرتُ مع "ناهدة"وسط هذه الجثث المتناثرة ودخلنا بناية المصرف العقاري من خلال كابينة الاستعلامات الخشبية حيث يُفتش المراجعون، يومها نسجت ناهده علاقة طيبة مع المفتشة الجميلة، الكابينة طارت واختفت تماماً، ماذا لو كان توقيت الانفجار وقت تواجدنا أنا وناهدة فيها، ماذا لو أن موظف قلم مكتب وزير الهجرة لم يتأخر ساعة، لكنت الآن في طريقي إلى السماء، رأيتُ أجساداً مقطعةً، مهروسة، أصابع. أفخاذاً.. أكفاً.. رؤوساً محروقة، مهروسة، مقطوعة..

يا إلهي أي جحيم جعلت هذه الذوات البريئة تذوقها

منشورات «الفياء» AlYaa

يا إلهي ما الحكمة في ذلك؟!

خفت فضولي، فتجسدت فاجعة التفجير حيةً لا كما أشاهدها في التلفاز، أدركت أن الأمر يحدث بغتة لتعود الحياة بعد ساعة إلى مجراها، من قتل قُتِلَ، ومن تعوق تعوق ولا شيء أخر، حثثتُ خطاي وقبل أن أستدير نحو جسر "الجمهورية"التفت ملقياً نظرة أخيرة على المكان الذي كان من الممكن أن أغادر العالم منهُ والفرق موظف تأخر فأبعدني دقائق عشر ليس إلا!

حينما رآني "عبد الحسين"أدخل من باب البار الذي تواعدنا فيه قفز من مكانه وركض نحوي عانقني بقوة مردداً:

- خفت عليك.. خفت عليك!

قال إنه سمع الانفجار وقدر مكانه فاستفهم وعرف المكان من أحد المارة، حكيتُ له التفاصيل، حملق في وجهي بعينين اتسعتا دهشةً وقال:

- عجيب سلام، أَفتَرْ بغداد كل سنوات الاضطراب، ولا مرة كنت قريباً من انفجار مثل قربك اليوم.

هكذا نجوتُ يا "عبد سوادي وعلية عبود"،

نجوتُ وكأن ثمة ملائكة حارسة ترفُ حولي في الأمكنة كلها، في الماء والأرصفة، في الزنازين وجبهات الحرب، في مطحنة الحرب الأهلية وفي ليالي الاختناق في المنفى، ملائكة خفية، وأطباء وممرضات هنا في الدنمارك لهم وجوه ملائكة رعوا جسدي المنهك والمعطوب ومَدّوا عمري حتى عبرت السابعة والستين، جعلوني أعيد صياغة حياتي قصصاً قد تكون هذه ختامها، فتهيئا لاستقبالي فلم يبقَ سوى القليل وأغفو في

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

حضنيكما.

الدنمارك - 2013- 2021

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

صدر للكاتب

1. **رؤيا اليقين** (قصص)، الطبعة الأولى 1994دار الكنوز الأدبية بيروت ـ لبنان.
2. **رؤيا الغائب**(رواية)، الطبعة الأولى 1996، دار المدى دمشق ـ سوريا.
3. **سرير الرمل**(قصص)، الطبعة الأولى 2000، دار حوران دمشق ـ سوريا.
4. **الإرسي**(رواية)، الطبعة الأولى 2008، دار الدار القاهرة ـ مصر، الطبعة الثانية 2022، مؤسسة أبجد ـ العراق. (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025
5. **الحياة لحظة**(رواية)، الطبعة الأولى 2010، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ـ مصر ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025
6. **في باطن الجحيم**(رواية)، الطبعة الأولى 2013، وزارة الثقافة، بغداد ـ العراق، الترجمة الإنكليزية 2014دار صافي، الولايات المتحدة الأمريكية.
7. **حياة ثقيلة**(رواية)، الطبعة الأولى 2015دار الأدهم القاهرة ـ مصر، الطبعة الثانية 2022، مؤسسة أبجد، العراق ـ (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025
8. **إعدام رسام**(رواية)، 2016دار الأدهم. القاهرة ـ مصر.
9. **طفلان ضائعان**(قصص)، الطبعة الأولى 2019دار الدراويش بلغاريا، الطبعة الثانية 2023، دار الدراويش بلغاريا.
10. **كل شيء ضدي**(رواية بجزئين)، 2021دار الدراويش بلغاريا. (النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025
11. **قبلة الصباح**(قصص)، 2022، دار الدراويش بلغاريا.
12. **دونت سبيك أسطب**(رواية) 2023، مؤسسة أبجد العراق. النسخة الرقمية "ألف ياء alfyaa.net"- 2025

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

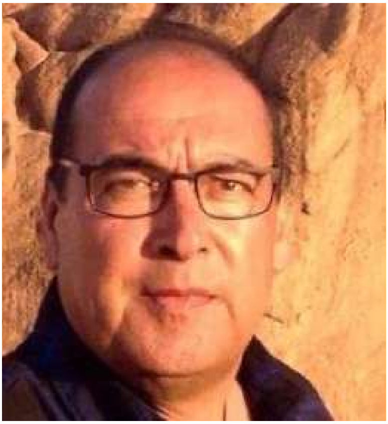

سلام إبراهيم

سلام إبراهيم، روائي عراقي، ولد في 8كانون الثاني / ديسمبر 1954، في مدينة الديوانية - العراق. يقيم حاليا في كوبنهاغن - الدانمارك منذ العام 1992، متزوج ولديه ولدان وبنت.

بدأ **سلام إبراهيم** مساره الحيوي مبكراً في نشاطات سياسية وأدبية، عايش خلالها تحولات العراق الحديث القاسية. تعرض للاعتقال والتعذيب النفسي والجسدي أكثر من أربع مرات بين عامَي 1970و1980، بسبب مواقفه المعارضة لنظام الحكم آنذاك.

في سياق الحرب العراقية - الإيرانية، تم تجنيده كجندي احتياط إلى جبهات القتال الجنوبية، لكنه اختار الانشقاق والانضمام إلى صفوف أنصار الحزب الشيوعي العراقي في آب / أغسطس 1982. بعد تسلله إلى المدن وعيش حياة مختبئة بين شباط 1983وتشرين الأول 1983، عاد قسراً إلى وحدته العسكرية، ليُرسل إلى جبهات القتال في البصرة حتى شباط 1985.

واصل مواجهته مع النظام بانضمامه مجدداً إلى الثوار في

كردستان، مصطحباً زوجته معه، لكنه اضطر إلى ترك ابنه البكر وراءه. تعرض لجريمة إنسانية جديدة خلال القصف الكيميائي الذي استهدف مقرات المقاومة في "زِيوة"قرب العمادية في 5يونيو 1987، ما أدّى إلى إعاقة رئتيه بنسبة 60%.

في حملة "الأنفال"عام 1988، نزح مع آلاف الكرد إلى تركيا ثم إيران، حيث عاش في مخيمات اللجوء حتى عام 1992، حين استقر أخيراً في الدنمارك، حيث يقيم حتى اليوم.

المسار الأدبي:

بدأ **سلام إبراهيم** كتابة القصة القصيرة أوائل سبعينيات القرن الماضي، ونُشرت أولى قصصه في صحيفة **"التآخي"**العراقية (كانون الأول 1975). طوال مسيرته، كتب أكثر من خمسين قصة قصيرة، وتوزّع إنتاجه الأدبي بين القصة القصيرة والرواية والنقد، مع مساهمات في صحف ومجلات عربية دولية مثل **"الثقافة الجديدة"**، **"القدس العربي"**، **"الحياة"**، **"السفير"**، **"الاغتراب الأدبي"**، وصحف المعارضة العراقية.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»